عندما وصلني الكتاب من المعرض
تراءت لي صورة الباحث المهم
والأخ الصديق حسين العزي
أرجو أن تقبله
مع تحياتي
جمال

فاتنة المهدي

أو

استعادة السودان

رواية غرامية تاريخية

تأليف

المستر دوجلاس لندره

وترجمة

الكاتب الاديب وهبه افندي فهمي

عني بنشرها

الياس انطون الياس

صاحب

المطبعة العصرية بمصر

شارع علوي ٥ تليفون ٢٠ ـ ٥٦

كلمة الناشر

لما كنت قد آليت على نفسي متابعة نشر كل ما تعم فائدته وتلذ مطالعته من الـكتب ، فاني اتقدم الى مواطني بهذه الرواية « فاتنة المهدي » وهي الاولى من سلسلة الروايات المصرية التي وطدت النفس على نشرها ، وقد وقع عليها اختياري لما تضمنته من تاريخ القطرين الشقيقين – مصر والسودان – ابتداء من ثورة المهدي الى ان استعاد الجيش المصري الظافر السودان ودخل مدينة الخرطوم

والرواية فوق ما اشتملت عليه من الحوادث التاريخية الشيّقة ، مصوغة في قالب غرامي يستهوي القلوب و يأخذ بالالباب ، ومكتوبة بلغة هي عنوان السلاسة . فعسى ان تنال رضى القراء الـكرام ، وهو جلّ ما أتمناه والسلام ؟

الياس انطون الياس

كلمة

للاستاذ داود بركات

الروايات التاريخية فن قائم بذاته . اذا اتفق مع فن الروايات الأدبية من وجهة التأليف فانه يختلف عنه في سرد الوقائع التاريخية. فالفن الروائي الصرف قد أرادوا منه مغزى الحوادث بتصوير الحياة واطوارها واستنتاج الصالح من هذه الأطوار ونبذ الطالح

أما الفن الروائي التاريخي فقد أرادوا به ترويج علم التاريخ وحث النفوس على الاقبال عليه دون سآمة ولا ملل ، فهم يزخرفونه ويزينونه تزيينا حسناً لهذا الغرض . وقد راج رواجا كبيراً في أوروبا وأميركا فأفاد كثيراً لأنه أدخل الى أذهان الجمهور كثيراً من التاريخ الذي لم يكن الجمهور يقبل عليه لولا صياغته في القالب الروائي الفتان

واذا كان لهذا الفن خصوم فان خصومه هم المؤرخون المدققون الذين يأبون ان يزج بحوادث التاريخ اشخاص لم يشتركوا بهذه الحوادث . ولكن اصحاب الفن يردون عليهم بأن ترويج التاريخ مطلوب لذاته ، وانه لولا تزيينه تزيينا روائياً يستهوي قلوب العامة والخاصة لما وصل الينا شيء من التاريخ القديم ، سواء في ذلك تاريخ

الرومان وتاريخ اليونان والعرب والكلدان والسريان والمصريين والفنيقيين وكل مايطلقون عليه كلمة «التقاليد» التاريخية. فالتاريخ الروائي من هذه الوجهة نافع ومفيد ، وهو ميراث من الاقدمين المعاصرين

تلك حجج الفنيين نوردها للقراء الذين يطالعون في هذه الرواية القيّمة تاريخ ثورة السودان وتاريخ استعادته ، فهي اذا ضمنت لهم معرفة تطورات الثورة السودانية فانها بما حوته من لطف التعبير وجمال التصوير تقيهم السآمة والملل

ولا شك بانا محتاجون جداً ، بل نحن في اشد الحاجة ، الى معرفة التاريخ . ومن جهل تاريخ وطنه والأطوار التي مر بها والتطورات التي تطورها لاتتشرب نفسه حب ذلك الوطن ولا تهتدي من عظات التاريخ وتطورات الحوادث وتقلباتها الى ماينفع ويضر والى مايتفق مع مدارك الأمة وما لايتفق

ولهذا قالوا ان الأحياء إنما هم يحيون بالأموات ، وأرادوا من من هذا القول ان حياة الأمم والشعوب سلسلة متواصلة الحلقات . فالحلقة الحاضرة هي رابطة من روابط الحلقات السابقة بالحلقات اللاحقة ، فمن لم يعرف الماضي لايدرك سر الحاضر ولا يستطيع أن يحسن السير في المستقبل . لذلك يحق للمترجم الأديب الشكر والثناء على هديته التي يقدمها اليوم لابناء أمته فيعرفون منها مايجهلون من التاريخ الحديث للسودان وثورته ثم استعادته

ويكفي ان نسرد الوقائع التي تضمنتها هذه الرواية لنعد قراءتها واجبة محتمة على الناشئة التي يجب عليها ان تعرف تاريخ بلادها .

فقد تضمنت الرواية سفر غردون باشا الى السودان لجلاء الحامية المصرية والموظفين المصريين والجاليات الأجنبية عن تلك البلاد ، ثم سقوط الخرطوم وأم درمان في قبضة الدراويش ، وقتل غردون واسر ابراهيم فوزي باشا وسلاطين باشا ، وهجوم ولد النجومي على على الحدود المصرية ووصوله الى وادي حلفا وانهزامه في معركة كوتشي ، ثم زحف الجيش المصري بعد ذلك وفتح الخرطوم

وقد تخلل هـذه الرواية وفاة المهدي وقيام خليفته عبد الله التعايشي واستبداده بالأمر وتنكيله بالاشراف وزعماء السودانيين الخ. ثم تصف المجهودات التي بذلها الجيش المصري في استعادة السودان

واذا كانت الرواية لم تستوعب الوجهة السياسية المصرية فانها تستوعب الحوادث ، وللسياسة مؤلفات أخرى يطالعها من يريد الانصراف اليها ، وكل ما يقال للقارىء الذي تطيب نفسه لتلاوة القصص انه يجد في هذه الرواية الحقائق التاريخية ممزوجة بحوادث غرامية قصد الترغيب في قراءة التاريخ بلا سآمة ولا ملل

وهذا آخر ما وصل اليه جهد المبتدعين الأدباء لترويج التاريخ بين الناس ؟

داود بركات

مقدمة المؤلف

أوحت مأساة غردون الي بوضع هذه القصة في صورة تمثل الحياة في السودان ابتداء من حصار مدينة الخرطوم وسقوطها الى معركة أم درمان وسقوطها ، أي من فبراير سنة ١٨٨٤ الى سبتمبر سنة ١٨٩٨

وسيجد القارىء قصة غرامية خيالية تتخلل هذه الرواية ، تنتقل به الى حكم ارهاب يكاد لا يكون له نظير في التاريخ ، وقعت معظم حوادثه في آخر أيام الجنرال غردون وتحت حكم المهدي والخليفة عبد الله التعايشي . وقد نقص سكان السودان من ثمانية ملايين الى مليونين ونصف مليون نفس بسبب الحروب والقتل والقحط والامراض ، وتحولت الاراضي الواقعة على جانبي النيل من سنار الى وادي حلفا تقريباً ، الى صحراء قاحلة جرداء

لدينا مواد كثيرة لمعرفة الفظائع التي عمت المدن والبلاد أيام حكم الخليفة عبد الله ، واتباع سياسة الخداع الغاشمة التي حاول هذا الرجل الغريب ان يؤسس بها اسرة من سلالته تتولى الحكم في البلاد بدلاً من اتباع نظام الولاية النظري الذي وضعه المهدي في

دستوره . فقد نشر ثلاثة من الذين وقعوا في اسر الخليفة عبد الله — وهم سلاطين باشا وشارلس نيوفلد والاب اهرولدر — مذكرات عن اسرهم لا تباريها كتب أخرى من نوعها في وضوحها وتفاصيلها ، وذكر كثيرون من المراسلين الحربيين أوصافاً بديعة لحرب السودان ، واتى كتاب مختلفون باوصاف ضافية عن البلاد وأخلاق السودانيين وعاداتهم بحيث صاروا معروفين لدينا اكثر من سكان استراليا . ثم وضع السر رجنلد ونجت ، حاكم السودان السابق ، كتابه المسمى « المهدية والسودان المصري » وهو المنبع الذي يجب ان يرده كل كاتب يريد ان يصف سقوط الخرطوم . وقد اتبعت في وصف سقوط تلك المدينة البيان الذى نقله السر رجنلد ونجت عن مذكرة تاجر اعرابي كان صديقاً لغردون . ومن دواعي الارتياح ان يكون السر رجنلد اكبر ثقة يعتمد عليه في ما كتب ، لانه هو الذي قضى على حكم الخليفة عبد الله في معركة « أم دبركات » حيث قتل الخليفة وجميع امرائه ما عدا عثمان دجنه

اذا امكن الانسان ان يقف على هذه المعلومات ثم زار السودان ، استطاع ان يضع صورة جلية تمثل حياة أم درمان خلال الاربعة عشرة عاماً التي مضت تحت حكم المهدي ، وهي المدة التي انقضت في الدسائس والمذابح والنزعات النفسية المنطوية على الجنون ، وغيرها من الحوادث التي جعلت السودان مهداً لاعمال القسوة والفظائع

هذا هو المسرح الذي نصبته ، وسيمثل عليه الجنود المصريون والسودانيون والبريطانيون دورهم بغيرة لاتعرف الملل . فقد الفوا منهم الجيش المنتقم ، وأقاموا وسائل النقل التي اقلته الى السهول الواقعة خارج الباب البحري لأم درمان حيث اخذ بثأر غردون وسكان السودان التعساء — فهذا الكتاب هو قصة الانتقام

اما القصة الخيالية التي وردت في هذه الرواية فمستقاة من مورد جديد بالنسبة الى كثير من قراء القصص . ففي القاهرة والاسكندرية عدد ليس بقليل من أهل صقليا معظمهم من الطبقة الوضيعة . وقد وجد هؤلاء وغيرهم في مصر مرعى صالحاً للاشتغال بالدسائس والجمعيات السرية بفضل ذلك النظام الفاسد ، وأعني به نظام الامتيازات الاجنبية في مصر

وبطلة هذه الرواية وأمها وأبوها من الصقليين . وقد اشتهر نساء صقليا بالجمال وعرفن بالملاحة الفتانة لانهن خليط من اليونانيين والنرمانيين ، وعيونهن العسلية التي تظهر سوداء اللون في اضواء أو حالات معينة ، تلمع أحياناً لمعاناً غريباً ، وهذه الحقيقة يلاحظها كل من زار بلادهم . وتحمل الفلاحات في صقليا جرات الماء أو الاحمال الثقيلة على رؤوسهن بتوازن دقيق يكسب اجسامهن الطويلة المعتدلة رشاقة غريبة

وقد اعتاد النساء كالرجال في صقليا على تجشم الاخطار الجسيمة

وحوادث الاعتداء الفجائية لما يشاهدنه كل يوم من القتل الذي ينجم عن مشاحنات فجائية تافهة ، وحوادث الانتقام والأخذ بالثار التي تقع دون ان ينال اصحابها عقاباً

فبطلة روايتنا هذه – فرنشسكا لنتيني – من هذا الطراز من النساء ، وعلى ذلك سيجد القارىء فوق قصة مأساة غردون والانتقام له ، وقصة استعادة السودان ، وطرفاً من الحياة في القاهرة في أواخر القرن التاسع عشر – قصة أخرى تساعده على درس أخلاق وعادات شعب من أقدم الشعوب الاوروبية ، لعبت فرنشسكا لنتيني فيها دور المغرمة المتضاربة العواطف . أما أنا فقد اتخذت من قصة غرام هذه الفتاة خيطاً حبكت به اطراف هذه الرواية معاً

وقد اتبعت في بعض الفصول ما رواه ونجت واهرولدر ونيوفلد بدقة على قدر ما سمح به وضع حوادث تاريخية في قالب روائى

وأني مدين بالشكر للفيلد مارشال السر ايفلين وود ، السردار الأول للجيش المصري ، الذي اشترك في استعادة السودان ، والمرحوم ابراهيم فوزي باشا صديق غردون وغيرهما من الذين أمدوني بالمعلومات الثمينة التي استقيتها منهم عن حالة مصر والسودان في ذاك العهد ؟

المؤلف

الفصل الاول

﴿البطل والبطلة﴾

تبدأ حوادث هذه الرواية في وقت كانت الاحوال فيه لاتزال مضطربة في مصر بعد انتهاء ثورة احمد عرابي باشا وتأليف جيش جديد من الفلاحين الذين اشتهروا بحب السلام والهدوء . وقد تمت هذه المهمة ، مهمة تأليف الجيش ، في خلال ستة أعوام بمساعدة ستة وعشرين ضابطاً وعشرين جاويشاً من البريطانيين

اتجهت أنظار الانكليز في ذاك العهد الى مصر . وكانوا على ثلاثة أنواع : منهم من كانوا ذوي مطامع ، أرادوا اظهار مواهبهم الحربية فوجدوا في الفتنة المشتعلة إذ ذاك في السودان فرصة نادرة لتحقيق مطامعهم هذه . ومنهم من كانوا في حالة فقر فوجدوا في المرتبات العالية حظاً لهم . ومنهم من أرادوا التسلية واللهو فجاءوا لتبديل الهواء في مصر لانها واقعة على مسافة ملائمة يمكن للاصدقاء زيارتها وقت الحاجة

من هذا الطراز الأخير ، كان لامبرت اليفانت . وكان شاباً جميل الطلعة قوي الجسم وضابطاً برتبة ملازم في الجيش البريطاني . وكان جندياً شجاعاً ، غير انه اظهر استخفافاً بسلطة رؤسائه فاتفقوا

في ما بينهم على ان يرسلوه الى خارج انكلترا ، وفعلا قرروا ارساله الى مصر بدلا من مستعمرة ساحل الذهب — وهكذا وجد لامبرت نفسه في القاهرة

رأى لامبرت الحياة في القاهرة هنية لذيذة في البداية ، فوجد تسلية في مقامه بالقلعة مع فريق من الضباط الشبان الذين قدموا مصر ليبنوا لانفسهم مستقبلا ، أو الذين جاؤوا مثله للتسلية

وكان وصول لامبرت الى القاهرة قبل انتهاء موسم السياح في مصر ، فوجد مورداً كبيراً للتسلية . على انه لم تنقض مدة وجيزة حتى أخذ هؤلاء يغادرون البلاد كلما اشتدت حرارة الصيف وأخذ عددهم يقل كلما صار الطقس متعباً . وعلى ذلك وجد لامبرت انه خسر عاملا من عوامل التسلية ، وان علامات الوحشة بدت على الحياة في المدينة ، وفي الواقع كانت الشوارع تكاد تكون خالية في ذلك الوقت من المارة من الصباح الى المساء

وكان للامبرت صديق من زملائه الضباط يدعى جورج ثوربي فشكا اليهِ حاله قائلا

— لعمري لم أر في حياتي مكاناً يقبض النفس كهذا ، فانك اذا ما فرغت من التمرينات العسكرية اليومية لا تجد شيئاً تفعله إلا الذهاب الى أحدى « قهاوي » الغناء . وكم أبغض أولئك النساء اليهوديات اللائى يرقصن هناك

فقال صديقه :

— لماذا لا تفعل مثلي فتسلي نفسك برؤية الحياة الوطنية والآثار العربية القديمة ؟

— لأنني لا أميل اليها فلا أريد رؤية الوطنيين ولا شيئاً من آثارهم

فرثى جورج لحال رفيقه ولم يجبه على قوله هذا بكلمة

وكان رفيقه هذا رجلا طويل القامة نحيف الجسم ، لفحت الشمس وجهه ، ذا عينين رماديتين رائقتين . شديد الجلد ، صبوراً على المكاره بالرغم من نحول جسمه ، لطلعته تأثير في قلوب النساء أشد من تأثير كثير من الرجال الذين يفوقونه ملاحة . ومع انه كان معروفاً بكثرة الضحك بين رفاقه إلا انه كان مشهوراً كذلك بالعزم والجد ، مولعاً بالمناظر الشرقية في القاهرة. وفي الواقع كان يشعر بالانشراح والابتهاج كلما وجد نفسه بعيداً عن الاحياء الاوربية ومن فيها من الاجانب . وقد حمله اعجابه بالوطنيين وعاداتهم على تعلم جزء كبير من اللغة العربية

كان جورج شديد الميل الى رفيقه لامبرت لملاحته وما آنسه فيه من الصراحة والسذاجة . وقد قابل لامبرت هذه العواطف بمثلها من جانبه ، و بفضل صديقه استطاع ان يرى بعض الرجال القلائل الذين

ساعدوا بكفاءتهم ومقدرتهم على احياء الجيش المصري ثم نالوا بعد ذلك انتصارات في حرب السودان أعلت مكانتهم ورفعت من شهرتهم – رجال أمثال كتشنر وهنتر

ولما كان الضباط الانكليز قد تلقوا ارشادات فحواها ان لا يتنقلوا في أنحاء المدينة منفردين فقد كان لامبرت يرافق في الغالب صديقه جورج في ذهابه الى الاسواق الوطنية والمساجد الأثرية . على انه لم يكن شديد الاهتمام بشيء وكثيراً ما كان يسخر مما يشاهده و يضحك زملاءه

أخيراً ملت نفسه هذه الزيارات التي كان يقوم بها مع صديقه جورج ولم يجد تسلية إلا في مطالعة الصحف الانكليزية التي كانت ترسل الى الضباط الانكليز من وقت الى آخر. على انه لم يكن من الرجال الذين يكتفون بقضاء السهرة في مطالعة الجرائد

وكان على لامبرت وهو في طريقه من شبرد الى القلعة ان يجتاز حياً من أحياء القاهرة كان يعرف في ذلك الوقت باسم « صقليا الصغيرة » لكثرة ما فيه من الصقليين والايطاليين الذين يسكنون جنوب ايطاليا. فحدث ذات يوم ان كان لامبرت يجتاز هذا الحي برفقة زميله جورج فوقع نظره على فتاة ذات ملاحة فتانة ، تدخل باب منزل من منازل المماليك العتيقة، فهرع لامبرت خلفها يتبعه جورج وهو

يحتج على عمله هذا ، غير أنه وجد لابتهاجه ان المنزل الذي دخلاه ليس الا مطعماً صغيراً ، وعلى ذلك ليس هناك ما يمنعهما من ان يطلبا زجاجة من الخمر مثل أي رجل آخر

دخل لامبرت فرأى أن الفتاة قد صعدت سلماً ضيقاً واختفت عن الانظار . على انه رأى امرأة اخرى هي والدة الفتاة بلا مراء وكانت جميلة مثل ابنتها فتقدمت اليه وسألته عما يطلب . وكانت تجيد التكلم باللغة الانكليزية فمالت الى مخاطبة الضابطين اذ رأت في أحدهما ملاكاً جميلا ، وشعرت بما يشعر به الايطاليون عادة من الاعجاب بالشباب والملاحة الرائعة . والواقع كان لامبرت يبدو كانه شاب غادر المدرسة حديثاً بالرغم من قوة جسمه وامتلائه

جلست المرأة بجانب الضابطين ولم تلبث ان اظهرت لهما روح الصداقة الايطالية فأخذت تقص عليهما كل ما يتعلق بها و بأسرتها . فقالت ان زوجها واسمه روزاريو لنتيني كان مرشداً للسياح الانكليز في صقليا الى ان اقتصد مبلغاً من المال يكفي لفتح مطعم . وهو يجيد الانكليزية اكثر منها وقد علمها التكلم بها هي وابنتها . ثم قالت أنه قدم الى مصر لأنه يحب الانكليز وانه يرجو ان ينال ربحاً كبيراً من ورائهم . وهو ليس بصاحب الفندق ولكنه يديره بدلا من قريب له سافر الى ايطاليا لقضاء فصل الصيف . وهو ينوي فتح فندق للانكليز او مطعماً لهم متى وجد مكانا ملائماً . ولما كان ذا

خبرة في شراء الاطعمة الجيـدة بأثمان رخيصة فان الانكايز سيحتاجون اليه يوماً ما

أخيراً جاء روزاريو – وهو معروف في الحي باسم الدون زارو – وكان رجـلا يطفح البشر من وجهه الاحمر ، ذا عينين لامعتين ، قصقص لحيته على الطراز الانكليزي ، مقوس الساقين ، فحيي الضابطين بلغة انكليزية صحيحة ثم رجاهما ان يجربا طعامه قائلا أنه أمهر طاه في مصر بلا ريب

كان الرجل ذا صوت رائق ، غريب السلوك ، قرر في نفسه على ما يظهر ان لا يدع هذين الضابطين حتى يحولها الى رسولين يبلغان زملاءهما ما عرفاه عن مهارته في الطهي . ولمـا كان لامبرت وجورج سائرين في طريقهما من شبرد الى القلعة لتناول الغداء فقد لبيا الدعوة عن طيب خاطر ورضيا ان يتناولا طعامهما في هذا الفندق

لم تمض لحظة وجيزة على انصراف الدون زارو لتهيئة الطعام حتى نادت زوجته انوسنزا ، ابنتها قائلة « فرنشسكا ، فرنشسكا » وسرعان ما اجابتها الفتاة قائلة « لبيك يا أماه » ثم ظهرت بعد قليل تحمل غطاء المائدة ومملحة واكواب الماء وغيرها من أدوات الطعام . وكانت جميع هذه الادوات عادية غير متقنة الصنع ، ولكن كان لفرنشسكا عينان تحاكيان النجم لمعانًا ، ووجه لا يدري الانسان أيعجب باستدارته ام بنقاوة بشرته ام بثغره الوردي ، كما كانت

ذات قـد رشيق وقوام معتدل ورثتهما عن امهاتها في صقلية اللائي اشتهرن بحمل جرات الماء على رؤوسهن

مكثت الدونا انوسنزا مع الضابطين بينا كانت فرنشسكا تعد المائدة فأخذت تحييهما كما لو كانا زائرين من الاصدقاء والمعارف لا رجلين عاديين يريدان تناول الطعام في مطعم

جاء الدون زارو بعد ذلك وقال ان الطعام قد اعد ، فتبعته الام وابنتها الى المطبخ حيث كان الرجل يهيء الطعام بنفسه . وبعد قليل عادت فرنشسكا تحمل وعاء من الحساء (الشوربة) فوضعت مقداراً منها أمام الضابطين ولـكنها لاحظت في الحال اشارة من لامبرت تدل على شيء من الامتعاض وهو ينظر الى طبقه . وكانت الحساء نوعًا لذيذ الطعم من الانواع البسيطة جداً التي اشتهر الطليان بصنعها من المرق والخضروات المسلوقة

لاحظت فرنشسكا ذلك فـلم يسعها الا ان ابتسمت تلك الابتسامة الايطالية الرقيقة ولمعت عيناها ثم قالت ، ولم تكن قـد تكلمت من قبل

— انها لذيذة الطعم . انك لم تذقها حتى تستاء . ذقها اولا فربما كانت قليلة الملح

فضحك لامبرت وقال

— هل لا بد لي من اكلها ؟

— لا أدري هل تسمون ذلك اكلا ام شرباً

فقال جورج مازحا

— عليك ان تشربها او تأكلها يا لامبرت، فاختر نفسك ما يحلو

ابتسم لامبرت في وجه الفتاة ثم ملأ ملعقة من الحساء وهو يعد نفسه بطلا شجاعاً. على أنه لم يكد يبتلع الملعقة الاولى حتى شفعها بثانية وثالثه والتهم ما في الطبق كله بشهية غريبة وقال هل من مزيد

تناول الضابطان طعامهما على هذه الحال. وكان لامبرت يكثر من المناقشة والجدال في كل شيء ليجتذب الفتاة اليه ولكنها لم تكن في حاجة الى ذلك لأن الخادمة الايطالية الجميلة تعودت، محافظة من تتولى خدمتهم طول الوقت ما دامت في الغرفة

كان الدون زارو طاهياً ماهراً لا يبارى بلا مراء . فقد اعجب لامبرت وجورج ايما اعجاب بطعامه وقهوته وخمرته الجيدة . وقد حقق جورج آمال الدون زارو اكثر من رفيقه مع ان الرجل كان يتوقع من لامبرت المساعدة الكبرى ، ولا عجب فقد كان لامبرت لا يريد ان يهتدي جميع زملائه الضباط الى هـذا المطعم فيشاطرونه ابتسامات فرنشسكا الحلوة اللذيذة . أما جورج فكان يرى في تردد الضباط على المكان سلامة لرفيقه لامبرت ودرعاً تقيه الوقوع في المشاكل و المتاعب

الفصل الثاني

﴿ المطاردة ﴾

لم تمض أيام قليلة حتى صار مطعم الدون زارو محط انظار الضباط البريطانيين الذين يريدون تناول الطعام قبل عودتهم الى القلعة . وكان الطعام في هذا المطعم يكلفهم جزءاً يسيراً مما يكلفهم في شبرد ، هذا فوق جودته وما هناك من الخمر الايطالية العتيقة والخدمة الحسنة التي كانت تقوم بها فتاة حسناء تسليهم بكلماتها الانكليزية الرقيقة

وكان هناك ضابط طويل القامة ، ذاعت شهرته فيما بعد في ارجاء العالم ، اعترف بما حواه هذا المطعم من عوامل السرور وجودة الطعام والهدوء . وكانت الدونا انوسنزا تقوم بخدمته اذا كانت ابنتها مشتغلة بخدمة آخرين ، ولكن هذا لم يمنع الفتـاة من حمل هذا الضابط على الابتسام لها ، وهي مهمة دونها حصار مدينة

على ان الضابط كان يفضل الأم التي كانت من الأفراد القلائل الذين استطاعوا ان يحركوا ساكن هذا الرجل . ولا عجب فقد كانت المرأة خفيفة الحركة ذات وجه مستدير جميل وقوام لا يعيبه نقص ، تستخدم جميع ملاحتها في اجتذاب قلوب الرجال الذين تعثر بهم في طريقها . ولكن لم يلبث الضابط الطويل — كما

كانت تسميه دائمًا – ان ادرك ان هـذه المعاملة مقرونة بحكمة واصالة رأي

تعود لامبرت ان يتناول عشاءه كل ليلة في مطعم الدون زارو ليتمتع بابتسامات فرنشسكا . وكان الدون زارو قد ادرك منذ زمن بعيد ان الغيرة لا تنفع صاحب مطعم وعرف ان زوجته امرأة شريفة ولذا تركها تسلك الطريق التي تريدها مع من يترددون على المطعم

كانت الدونا انوسنزا تميل الى خدمة ذاك الضابط الطويل اكثر من غيره لانه لم يكترث بابتساماتها وكان يسألها عن خطط زوجها في المستقبل ومقدرته على شراء كميات وافرة من الطعام . وكانت المرأة تتألم في بعض الاحيان لعدم معرفة شخصيته ، ولكن ذلك لم يمنعه من ان يقدم اليها خدمة لم يقدمها اليها ضابط آخر . فقد مهد السبيل لزوجها الدون زارو وقابله بالسردار الجديد للجيش المصري

وكانت الدونا انوسنزا تسلك سبيلا أخرى في معاملتها للامبرت لانه انعش الدسائس الكامنة في قلب كل صقلي ووقع في شرك غرام ابنتها الجميلة . ولكن فرنشسكا كانت مخطوبة الى شاب من جنسها يدعى انجيلو ترادينور ، وهو ابن تاجر كبير في الاسكندرية ووكيل اعماله في القاهرة . وكان يقطن في الفندق مع الدون زارو

وكان انجيلو هذا شابًا طويل القامة ، جميل الوجه ، يقلد الانكليز في كل شيء مثل القرد ، فكان يقلدهم في ملابسهم ويقلدهم في

احذيتهم ويقلدهم في قص شعرهم حتى في لغتهم ، وكان يطمع كذلك في الاثراء على حسابهم . على انه كان يختلف عنهم في حركات عينيه ، فقد كانتا تتوهجان كالنيران كلما احدق النظر الى فرنشسكا ، ويرخيهما الى الارض اذا القيت عليه سؤالا ، واذا غضب أو سخر من شيء رفع كرتيهما الى فوق حتى يظهر بياضهما من تحت

بدأ انجيلو يتضايق من تردد لامبرت على المطعم واهتمام فرنشسكا بخدمته فألح بلهجة شديدة على ان تتولى الدونا انوسنزا خدمة لامبرت بدلا من ابنتها . ولكن الدون زارو أفهمه جيداً انه لا يكون خطيب ابنته اذا كان سيفسد عليه أعماله بغيرته هذه ، واخبره ان الضابط الانكليزي انما يتردد على المطعم لتتولى فرنشسكا خدمته فاذا انقطعت الفتاة عن خدمته انقطع الضابط كذلك عن المجيء ، ومن الحماقة ان يطرد « زبونًا » يتردد على المكان بهذه الحالة

هذا ما قاله الدون زارو . أما الدونا انوسنزا فقد أظهرت حكمة ولينًا في تهدئة خاطر انجيلو اكثر من زوجها ، فاوحت الى ابنتها ان تفهمه ان لامبرت لا شيء لديها وانها انما تحاول ارضاءه كما تحاول ارضاء الضباط الآخرين ، وانها تتحمل آلامًا في افهام لامبرت انها لا تريد التوغل في صداقته . في حين أخذت الدونا انوسنزا تبذل اقصى جهدها لتستميل لامبرت اليها

كانت فرنشسكا صادقة أمينة فيما نقلته الى خطيبها ، ولا غرابة فقد

كانت هي الرابحة في صفقة زواجها بانجيلو ترادينور ، لأن الشاب كان من اسرة غنية وطبقة ارفع من طبقتها ، وفوق ذلك كان صادقاً في حبه للفتاة ولو لم يكن قد بلغ سن الرشد لحال والده دون زواجه ، ولكن نجاحه في اعماله التي قام بها باسم أبيه حالت دون التعرض له . وقد وجد والده عزاء في ان الدون زارو ينتمي الى اسرة نبيلة ولو انه لم يكن الا صاحب مطعم

والواقع كانت أسرة الدون زارو أرفع من أسرة أنجيلو ، وكان في وسعه أن يسمى الكونت لنتيني ولكنه رأى عن حكمة ان هذا اللقب لايتفق مع مكانته هذه

واذا كانت فرنشسكا قد قصرت ابتساماتها وكلماتها الحلوة على أصناف الطعام والاعتذار عن الأدوات العادية ، فقد حذت أمها حذوها كذلك . على انها كانت بصرف النظر عن عدم وجود علاقة غرامية بينها و بين لامبرت ، لاتستطيع ان تكتم اعجابها بالضابط الجميل الذي وقع في شرك غرام ابنتها

مرت الليالي تباعا . وكان مايقع في هذه الليلة يقع في الليلة التي تليها . فكانت فرنشسكا تقدم الطعام الى الضباط المعروفين ثم تنسل على اثر ذلك الى خطيبها انجيلو وتدع أمها تقوم بالطلبات الأخرى . وكانت الدونا انوسنزا تجلس على مكتب بجانب الباب الذي يوصل الصالة

بالمطبخ حيث تدون الحساب ثم تقوم لقضاء مايطلب منها وتتحدث مع « الزباين »

تعود لامبرت ان يدفع حسابه للدونا انوسنزا ثم يتلكأ بجانبها ويتحدث معها نصف ساعة أو اكثر لأن فرنشسكا كانت تأتي وتخاطب امها من وقت الى آخر . وقد شغف الشاب بالفتاة وافتتن بها الى حد انه لم يدرك انه يلعب بالنار

اما الدونا انوسنزا فكانت تسلم جدلا بأنه يطلب يد ابنتها . وقد ينتهي مثل هذا الاهتمام الظاهر في صقليا بالقتل اذا لم يطالب الرجل يد الفتاة التي تودد اليها ، كذلك يستحيل على الفتاة ان تستبدل خطيبها برجل آخر لو أرادت ، لأن هذه تعد في صقليا معرّة لا يمحوها الا الدم

على ان العادة المتبعة في صقليا لاتقيم العراقيل في وجه لامبرت ولا تمنعه من ان يكون محباً لفرنشسكا بعد زواجها . ولا يتحتم ان يفضي هذا الى القتل لأن مثل هذا شائع بينهم . والواقع لم تفكر الدونا انوسنزا في احتمال الوقوع في مثل هذه الورطة وانما كانت تعجب بالشاب وتميل اليه ميلا شديداً . وقد شجعته على ان يتردد على المنزل ماشاء ، فاكثر من التردد لأنه كان لايكترث باعماله ولا يحسن القيام بها كما يجب

في مصر شواذ كثيرة : فمع انها لم تذق طعم استقلالها الحقيقي

منذ ايام دارا ملك الفرس ، ومع انها تحملت متاعب كثيرة في السودان بسبب ثورة المهدي ، ومع انها اصيبت بصدمة لايستهان بها من جراء الثورة العرابية — مع ذلك كله كانت مادة مصر صالحة لاخراج جيش قوي لايباريه من الوجهة الجسمانية واحتمال المكاره جيش آخر في العالم ، اللهم الا بعض أجناس حربية معروفة في الهند وجنوب افريقيا .

فالجندي المصري قوي الجسم والعضل ، قادر على السير والعمل والقتال تحت حرارة الشمس المحرقة ، مع ميل طبيعي غريب الى التدرج والارتقاء ، وهو بشوش مخلص لضباطه مطيع لأوامرهم حتى الموت

أدرك لامبرت على اثر التحاقه بخدمة الجيش المصري الجديد هذه الحقيقة وآنس من نفسه ميلا شديداً الى الجنود المصريين الذي عرفوا بالشجاعة والصبر والجلد . على ان اهتمامه كان موجها بصفة خاصة الى جنديين فقط — حسن ومحمود — دون رجال الألاي ، وبالمثل تعلق به هذان الجنديان وأحباه اكثر من غيره من الضباط الآخرين

استاء جورج من اهمال لامبرت اعماله — وكان معه برتبة قائمقام في الجيش المصري — ولكن « الكبتن الطويل » الذى يتردد على المطعم قدّر ما أظهره لامبرت من العطف نحو الجنود

الوطنيين وتعلقهم الشخصي به وقدرته على قيادهم ، كما قدّر مقدرة الدون زارو وصلاحيته لأن يكون متعهداً لتوريد الطعام والمؤن للجيش . وهكذا أدرك ذاك الضابط ببعد نظره من الحقائق ماخفى على كثير من الناس

ساءت الاحوال في مطعم الدون زارو . فاخذ صبر انجيلوتراديتور ينفد وحار في ادراك خطة فرنشسكا وسلوكها الذي كان بعيداً عن الاخلاص والمنطق . والواقع كان يصعب على رجل انكليزي ان يدرك مثل هذا السلوك ، فكم بالحري على رجل صقلي

كان انجيلو يتمتع بحب فرنشسكا ، مالكا لمجامع قلبها فلم يخطر ببالها ان يكون لامبرت لها زوجاً أو عاشقاً . نعم كانت تعجب به وتميل اليه ولكن اعجابها هذا وميلها لم يكن ليزيد على اعجابها بجواد جميل أو ميلها اليه . ومع أنها كانت لا تحتمل التصور بأنه قد يصير زوجاً لهـا غير أنها كانت تميل الى التمتع باهتمام اجمل ضابط بريطاني في القاهرة بها . وكانت تعرف جيداً انه مغرم بها الى حد الوله والجنون ، ولكن حبه هذا العقيم لم يؤثر فيها كما لو كانت فتاة من جنس آخر ، بل بالعكس كانت ترتاح الى عمله هذا

كان لامبرت شاباً يقنع بالحاضر ولا يهتم الا بيومه . فقد كان شديد التأثر عند ما ودع «روزا موند ايلمر» على رصيف الميناء يوم سفره ، ولما وصل الى مصر كتب اليها عدة خطابات اعرب لها

فيها عن حبه الخالص لها وشكا اليها عزلته وانفراده، الى ان تعرف بفرنشسكا فطغى الحب الجديد على الحب القديم في قلبه وقلت خطاباته تدريجاً كلما طال الوقت الذي أخذ يقضيه في التردد على مطعم الدون زارو

نعم لم تظهر فرنشسكا له من الحب مثل ما أظهرته لها إلا أنها لانت الى حد ما وقبلت ما كان يظهره الشاب من الالحاح وكثرة التردد فسمحت له ان يشغل من وقتها ساعات كانت تطول شيئاً فشيئاً وحققت اشياء معينة من رغباته واعترفت بوجود صداقة متينة بينها وبينه، ولكنها كانت لاتحتمل ان تلين أو تقبل أي مسعى يرمي الى حرمانها من انجيلو

ولا عجب فان الصقليين يعدون رابطة الخطبة أقوى من رابطة الزواج، فكان من العبث ان يحاول لامبرت اقناعها بأنه سيكون لها زوجاً أعظم وفاء وأشد اخلاصاً من انجيلو . ولو كانت هذه الفكرة خطرت ببالها لرأت انه يستحيل عليه ان يحول عواطفها عن خطيبها، ولكن ليس ثمة مايحملها على هذه الفكرة لأن انجيلو كان لديها الكل في الكل، وهو شاب جميل نشيط شديد الاخلاص لها والغيرة عليها

على ان فرنشسكا كانت لا تقبل الأذعان والخضوع لغَيرة خطيبها عليها . نعم قد يكون انجيلو ملك قلبها المطلق والمسيطر على

فؤادها ولكنها لم تكن لتريد ان تكون راهبة ، فكانت تحاول دائماً وهي في مطعم أبيها ان تستميل اليها قلوب الرجال ، ولم يكن غرضها من ذلك اللعب بقلوبهم ولكنها كانت تشعر بابتهاج كلما رأت اعجاب الناس بها وتهافتهم عليها

واذا كانت هذه خطتها العامة نحو الرجال الذين يجلسون على موائد العام مباشرة ثم يغادرون المكان مباشرة كذلك، فكم بالحري يكون ميلها شديداً الى اثارة روح الاعجاب بها في قلب ضابط ارفع منها مكانة ، يأتي كل ليلة ليلقي قلبه تحت قدميها ويفعل ذلك لا بتأفف ولا تذلل ولكن بروح غالية وبيد سخية . ولكن لسوء الحظ طاشت النبال التي صوبها لامبرت الى غرضه فأصابت قلب الدونا انوسنزا بدلا من ان تصيب قاب ابنتها

كانت الأم تفوق ابنتها ملاحة من وجهة النظر الايطالية ، فكانت اكثر منها اعتدالا ، لا تزال حافظة لتلك الرشاقة التي اشتهر بها نساء صقليا ، في حين كانت لها عينان عسليتان تلمعان بذلك النور الغريب من تحت حاجبين كالقوسين وثغر وردي جميل واسنان كالدر وشعر أسود طويل . على أنك اذا تحدثت اليها اسرتك بانسها وبشاشتها اكثر من ملاحتها، فكانت صديقة لكل شخص

كان انجيلو يرجو ان يقع الضابط الجميل في غرام والدة خطيبته ويقول انه اذا لم يعشق أحداهما فان بشاشة الأم ستجذبه بلا مراء .

ولكن يظهر ان الحب الصادق يتغذى بالجوع وتدفعه العراقيل والموانع الى الوثوب دون رؤية ما حوله

ان الاسود تخشى الاقتراب من حظيرة المواشي بالتهور الذي اظهره لامبرت في التقرب من فرنشسكا ،لذا كانت نيران الحقد تستعر كل يوم في عيني خطيبها الصقلي. وكان انجيلو ،مثل لامبرت ، يتعشى كل ليلة على مائدة صغيرة في زاوية المطعم ، وهناك كان يحدق النظر الى الضباط البريطانيين ويراقبهم . وكانت العادة ان يتعشى ثلاثة ضباط أو اكثر غير لامبرت لانهم كانوا يجدون من السهل تناول الطعام في المطعم على ان يقطعوا المسافة الطويلة الى القلعة ليأكلوا مع زملائهم . ولعمري من الصعب ان نقول هل كان استقبال لامبرت بمظاهر الترحيب واعجابه بجمال الفتاة هما العامل الاكبر في اشعال نار البغضاء في قلب انجيلو ، أم تودده اليها اذا ما تحركت عوامل الغرام في قلبه

ليس ثمة ريب في ان فرنشسكا كانت تبتهج لاهتمام لامبرت بها و بما كان يقدمه اليها من الحلوى والازهار وما كانت تراه في عينيهِ من دلائل الحب والاعجاب بها ، على أنها كانت تقبل كل اهتمام يوجه اليها وتعد ذلك نتيجة طبيعية لتأثير جمالها ، فكانت تشجع لامبرت على التقرب منها زاعمة ان هذه هي الوسيلة التي تستطيع ان تعوضه بها من اخلاصهِ لها وتفانيه في حبها

وكان والداها يعلمان كل ذلك فلم يستخفا بعمل لامبرت هذا الذي لا أمل فيه ، وعداه مجاملة من جانبه قدراها له

وقعت أول مصادمة بين لامبرت وانجيلو . ولم يكن وقوعها في المطعم بل في مكان هادىء من حديقة الازبكية حيث ذهب لامبرت على أمل ان يلتقي بفرنشسكا لنتيني ، فلم يعثر بها ، ولكنه التقى بخطيبها انجيلو فابتدره هذا بلهجة لا تخلو من القحة التي اشتهرت بها أمته قائلا

— عمن تبحث ياسنيور ؟

فأجابه لامبرت ببرود قائلا

— لست في حاجة الى مساعدة . شكراً لك

— أنني أعرف من تبحث عنها

فقال لامبرت بملل

— يا لك من رجل حاذق نبيه

— انك تبحث عن خطيبتي فرنشسكا لنتيني

— انك تضايقني ، بالله أذهب

— كلا ، لا أذهب حتى أطلعك على ما اضمره لك في قلبي منذ شهر

فقال لامبرت ساخراً

— ان هذا يطول شرحه ما لم يكن في قلبك أقل من غيرك من الناس

— لافائدة من محاولتك الافلات مني. لقد ترقبت الفرصة مدة طويلة لكي اخبرك انك تجر على رأسك الويلات والمصائب اذا لم تكف عن الذهاب الى مطعم الدون زارو للتودد الى الآنسة لنتيني

وكان دم لامبرت قد غلى الآن في عروقه فقال :

— ليست هناك غير وسيلة واحدة لتجنبك والتخلص منك ، وهي القاؤك في هذه البركة ، وهذا ما سأفعله حالا اذا لم تنسحب من أمامي

وكان انجيلو شابا طويل القامة قوي العضل ولكنه لم يشأ أن يبت الآن في الأمر مع خصمه ففضل الانتظار الى أن يعثر به في فرصة ملائمة له، وآثر ان يضرب ضربته في وقت لا يتعرض فيه لأي خطر ، وعلى ذلك انسحب وهو يصيح قائلا للامبرت

— أحذرك مرة أخرى من الذهاب الى المطعم ، وأنصحك أن تبتعد عنه فلا تريني وجهك فيه مرة أخرى

فقال لامبرت

اسدِ نصائحك هذه لأمتك الحقيرة ولا تجرأ على الاقتراب من راعي هذه واعلم انني اذا رأيتك تحاول الاقتراب مني قضيت عليك

قرض الشاب الصقلي على اسنانه ثم بصق على الأرض . وكان يد ان يستخدم مسدسه ولكنه رأى شهودا فلم يشأ أن يضع سه تحت طائلة الاحكام العرفية وفضل الانسحاب

ذهب لامبرت الى المطعم كعادته تماما . وتعمد أن يكثر من التقرب الى فرنشسكا وأما مخافة أن يرميه غريمه بالخوف والجبن . وقد سارت الأحوال على هذا المنوال نحو شهر، والفتاة تثير اعجاب لامبرت وتضيق عليه حبائل الغرام التي أوقعته فيها ، حتى كاد انجيلو يخلق الاضطراب والشغب غير مرة . وخاطب فرنشسكا بلهجة شديدة في الموضوع ، ولكن لم تصل الأمور الى نهايتها ، حتى جاءت ليلة اتفق ان كان لامبرت فيها الضابط الوحيد الذي يتعشى في المطعم . وكان انجيلو هناك حسب عادته ولكنه خرج قبل انتهاء العشاء وغادر منافسه في الميدان ، وقد لحقت فرنشسكا بخطيبها ولكنها عادت ثانية بعد مدة وجيزة

مكث لامبرت في المطعم الى ساعة متأخرة على غير عادته فلم يجد عربة تقله الى القلعة . وقد شاء تهوره وعدم حرصه أن لا يسلك الطريق المباشر الى القلعة فأراد الذهاب بطريق العتبة الخضراء وشارع محمد علي ، على أمل ان يجد في طريقه عربة ، ولكن كان عليه ان يجتاز طريقا ضيقا في الحي المعروف « بصقليا الصغيرة » قبل ان يصل الى الرحبة الواقعة بين حديقة الازبكية والعتبة الخضراء

لم يكد يبتعد لامبرت عن المطعم خمسين خطوة حتى أحس بأن ثلاثة رجال من رعاع الايطاليين يقتفون اثره . ولم يكن لامبرت يحمل مسدسا ، وكانت عصاه التي يحملها خفيفة لا تصلح للدفاع وعلى

ذلك رأى ان الفرصة الوحيدة للافلات هي التفوق عليهم في النشاط والحركة لأن هؤلاء الاشرار يحملون معهم دائما خناجر ومسدسات بلا مراء

وكان اثنان من الاشقياء يسيران خلفه ليقطعا عليه خط الرجعة الى المطعم، الذي زعموا انه سيكون أول ملجأ يلتجيء اليه، في حين تقدمه الثالث لكي يناوشه الى ان يلحق به الاخران

رأى لامبرت موقفه هذا فصمم على أن لاينتظر حتى يهاجمه الاشقياء، وحمل على الرجل الذي وجده امامه وهو أضخم الرجال الثلاثة. وكان لامبرت قد وصل إذ ذاك الى امام قهوة على بابها منضدة من الخشب حولها كرسيان من الجانبين، فحمل المنضدة ثم القاها على رأس الذي وجده أمامه فألقاه على الأرض

على ان عمله هذا أراه ان هناك رجلين آخرين في طريقه على أهبة الانقضاض عليه عند مايريان ان الرجل الأول قد أوقفه، وان الرجلين اللذين يقتفيان اثره في الخلف قد اقتربا منه وقد شهر كل منهما خنجره

ندم لامبرت لأنه القى المنضدة من يده ولو انها كانت سلاحا حقيرا أمام خمسة رجال مسلحين بالمدي والخناجر. على انه نظر فيما حوله باحثا عن وسيلة للنجاة فرأى على يساره حارة ضيقة قذرة في سوق

السمك فعرج اليها واطلق ساقيه للريح عالما أن نجاته متوقفة على اجتياز هذه الحارة

غير أنه وجد بعد هنيهة رجلا آخر في طريقه شاهراً خنجره. ولم يكن مع لامبرت غير عصاه ولكنه كان مالكا لحواسه فلم يحاول ضرب الرجل بها ولكنه صوبها الى احدى عينيه بخفة ففقأها ثم واصل الجري تاركا عصاه الى أن وجد نفسه بعد هنيهة في سوق السمك

جرى لامبرت في هذا الشارع بأقصى سرعته، وكان لحسن الحظ ماهراً في الجري فلم يحاول احد من الوطنيين ايقافه أو ايقاف الذين كانوا يطاردونه. ولكن اتفق ان التقى بخفير في طريقه فانتزع هراوته على غرة منه، ثم واصل الجري الى ان عرج على حارة أخرى ضيقة قائلا في نفسه انه اذا لم يجد من يساعده فانه يستطيع على الأقل ان يختفي في زاوية مظلمة فلا يراه احد من الأشقياء الذين يطاردونه

شعر لامبرت بسكون خلفه فاعتقد ان آماله تحققت. وقد وقع ذلك فعلا. ولكن حدث ان رآه وطني فدفعه بغضه للانجليز على أن يرشد مطارديه الى الناحية التي اختفى فيها، فلم يلبث ان سمع اقدامهم تدب خلفه ثانية

لم يجد لامبرت إذ ذاك مندوحة من استئناف الجري ثانية الى ان يجد من ينقذه من خصومه أو الى أن يسقط تحت طعنات

خناجرهم . وكان يعلم أنه على مقربة من احد الشوارع الكبرى ولكنه رأى في طرف الحارة رجلا أدرك من حركاته انه من الأشقياء ولو أنه لم يشهر خنجراً في وجهه عندما اقترب منه

لم يخش لامبرت غريمه هذا لأن هراوة الخفير التي اختطفها كانت سلاحاً لابأس به . وفوق ذلك كان لامبرت يحسن الطعن بالحراب ، فاتخذ من الهراوة التي يحملها حربة طعن بها احشاء الشقي الايطالي فألقاه على الأرض لاحراك به

بيد ان هذه المعركة القصيرة قربت مطارديه حتى صاروا منه على مسافة بضع خطوات . وكان لامبرت قد وصل أذ ذاك الى طرف الشارع فحار في أمره ولم يعرف الى أي ناحية يسير . ولكن حانت منه التفاتة نحو اليسار أدرك منها انه في شارع مطعم الدون زارو ، وان المطعم نفسه لايبعد عنه اكثر من مائة خطوة

حول لامبرت وجهه شطر المطعم ولكن أمله بالنجاة كان ضعيفا لأن الدون زارو لايستطيع ان يصد غائلة هؤلاء الاشقياء الا اذا كان مسلحاً في حين لم يكن لديه أحد من الرجال غير شيخ ايطالي يجلس دائما على باب المطعم لقضاء الحاجات البسيطة

رأى هذا الشيخ الضعيف لامبرت الضابط الانجليزي القوي يجري حاسر الرأس حاملا في يده هراوة خفير ، يطارده ستة من

الاشقياء شاهرين خناجرهم ، فكان أول من هب لمساعدته ، فوقف في وجه القتلة بالرغم من ضعف بصره وهزال جسمه وشيخوخته

رأى لامبرت عمل الشيخ فلم يختف داخل المطعم بل وقف الى جانب حاميه ، ولكن لم تكن ثمة حاجة الى ذلك فقد أشار الشيخ الى الاشقياء اشارة خاصة فانثنوا راجعين في الحال وقد اخفى كل منهم وجهه

التفت الشيخ الى الضابط بعد ذلك وقال

– لا تحسب لهؤلاء الاشرار حساباً بعد الآن أيها « الدون لامبرتو ». لقد نقضوا أوامرهم وهم الآن يفرون من مصير لايستطيعون الافلات منه

وكان الشيخ لا يستطيع التكلم بغير اللغة الصقلية فلم يدرك لامبرت مما قاله شيئاً ، ولكنه وجد في حركات الرجل وما ارتسم على وجهه من العلامات ما أرسل الطمأنينة الى قلبه

سمع الدون زارو الضجة فجاء الى الخارج . ولم يشأ ان يذكر السر الذي انقذ لامبرت من يد هؤلاء الاشرار ولكنه كرر ما فاه به الشيخ قائلا

– لقد نقضوا أوامرهم وهم الآن يفرون من مصير لا يستطيعون الافلات منه

ثم تحول نحو لامبرت وقال

ـ ادخل ياسيدي، ستأتيك ابنتي أو زوجتي بكاس من الخمر. ان خمرتي جيدة . وسأعد العشاء الآن فابق معنا لتستريح وتتناول الطعام و بعدها سأحضر لك عربة ويرافقك الشيخ الى القلعة ولو انه ليس ثمة حاجة الى ذلك لأن سكان هذا الحي قد عرفوا الآن ما حدث

جاءت الدونا انوسنزا الى لامبرت وكان قد القي نفسه على مقعد ذي مسندين إعياء ، ثم قالت

ـ مسكين ياولدي . لعمري لا أتصور قسوة هؤلاء الاوغاد الذين أرادوا ان يحرموا العالم من مثل هذا الجمال

ثم أخذت تسوي شعره الجميل الذي تحبه ، فقال لامبرت

— أنني في حالة رثة وشعري غير مرتب

— فقالت الدونا

— هل تريد أن آتي اليك بفرشة ؟

— فأجابها بتأدب قائلا

— هذه مكرمة منك ياسيدتي

— هل تريد أن اعطيك نفسي اذا طلبتها، أليس كذلك يازارو؟

فضحك الدون ورقصت عيناه بجالة دلت على ما كان يشعر بهِ من الخوف والوساوس

جاءت فرنشسكا بعد خروج أمها ثم ابتسمت وقالت بسذاجة وهي تعرب عن حقيقة ما تشعر به

— سأخبر القديس فرنشسكو والقديسة شاريا بأنهما أنقذا حياتي من الهلاك

أخيراً عادت الدونا انوسنزا لـكي تقوم بمهمة طالما حنَّت الى القيام بها . فجذبت كرسيًا وجلست خلف لامبرت ثم اخذت بغير استئذان تمشط شعره وترتبه كما كان ، فلم يعارضها لامبرت لانه كان في حالة تحتاج الى تدليل

لم تطل مهمة الدونا انوسنزا ، فقد ذكرت الطعام الذي لابد ان يكون « الطفل المسكين» في حاجة اليه فهرعت الى الخارج لتأتي به

تنهدت فرنشسكا . ولا عجب فقد كانت تود ان لايكون هناك انجيلو فتحب هذا اكثر منه ، أو ان يكون لها قلب مثل قلب امها

الفصل الثالث

— المافيا —

لم يعلم لامبرت السر الذي انقـذه من ايدي الايطاليين الاشرار حتي قابل القنصل البريطاني في صباح اليوم التالي واخبره انه افلت من مخالب الموت بفضل « المافيا » الرهيبة . فقال لامبرت

— وما هذه المافيا ؟ انني لم اسمع بها في حياتي

فاجابه القنصل قائلا

— هي جمعية سرية صقلية لا يعرف نظامها ولا اغراضها الحقيقية الا اشخاص قلائل، وهؤلاء الاشخاص يحرصون على هذه الاسرار حرص القبور . وهي تشبه من الوجهة العملية نقابة من نقابات العمال ، لانها ترفع اجور اعضائها الفقراء بوسائل الارهاب وتحمي جميع اعضائها من كل أذى أو عقاب مهما ارتكبوا من الجرائم . وفي وسع العضو فيها أن يتحدى القانون لانه لا يجرأ أحـد على أن يؤدي شهادة ضده . ومن المحتمل ان يـكون القضاة والحراس متآمرين معهم، ولـكن المحاكم التي تقضي بينهم اعدل من محاكم الحـكومة

— هل معظم اعضائها من الاشقياء ؟

— لا يقول بهذا صقلي . ولـكن لاريب في أن الذين يقومون

باعمال الارهاب فيهم — وهم الجلادون، اذاشئت أن تسميهم — من الاشقياء . ولـكن لا يستطيع احـد من هؤلاء الاشقياء أن يمس شخصاً يتمتع بحماية هذه الجمعية . وينتمي اليها جميع الاشرار الذين يريدون التخلص من جرائمهم ، والعمال والخدم الذين يستخدمونها لرفع اجورهم ، والرعاع الذين يفخرون بالانتماء اليها ، والرجال الذين يلتجئون اليها للفصل في قضاياهم بسرعة وعدالة ، ثم الطبقات العليا من قضاة واعضاء في البرلمان وضباط ممن يريدون أن يتخذوها وسيلة للوصول الى مراكز السلطة والسيادة . وقد كان احد رؤساء وزارة ايطاليا عضواً بهذه الجمعية

فقال لامبرت

— هل الدون زارو عضو اصلي في هذه الجمعية ام دافع جزية؟

— لا ادري، ولـكن يحتمل أن يكون عضواً بها لأن اصحاب المطاعم يجرون مغنماً كبيراً من الانتماء الي « المافيا »

— هل تعني أن تقول أن القنصل الايطالي لا يحرك ساكناً اذا ما علم بما اصاب الرجلين على يدي امس ؟

— هو ما تقول

— وماذا يصنع اهلوهم ؟ الا يسعون للانتقام مني ؟

— انهم لا يجرأون على أن يمسوا شعرة واحدة من رأسك

— هل ذلك لانني صرت تحت حماية المافيا ؟

— بالضبط

— ولكني لا اريد ان اكون تحت حماية من . . .

فقاطعه القنصل قائلا

— لا تفه بالكلمة ، ولا تكن احمق . أن حياتك لا تساوي شيئاً بدونهم ، ولا يستطيع احد حمايتك غيرهم

— لا يهمني

— وفوق ذلك ستخلق المتاعب للدون زارو ، الذي انقذ حياتك ، ولاسرته

— ويحي ، لم يخطر شيء من ذلك ببالي . زعمت انني لا بد من . . .

— امسك لسانك ولا تقدم على أي عمل . لا يريد أحد منك جزاء ولا شكورا

فقال لامبرت

— حسن جداً

— ثم عليك أن تذكر التعليمات العسكرية التي تحتم على الضباط الانجليز أن لا يسيروا في انحاء المدينة منفردين

الفصل الرابع

انتقام لامبرت

أن الايطاليين شعب مدهش غريب الاطوار ، فقد حاول انجيلو أن يغتال لامبرت ومع ذلك واظب على المجيء الى الفندق ومقابلة غريمه كل يوم كأنه لم يقع شيء بينهما مطلقاً واخفى حقده وغله تحت ستار شفاف من الابتسامات الكاذبة ينتظر سنوح فرصة أخرى

على أن لامبرت لم يطق مناورات انجيلو هذه ، وقد شاهده مرة يجلس في زاوية المطعم كعادته فحمل عليه ، ولكن الشاب فرّ من وجهه وانسل من المطبخ واختفى عن الانظار ، فاقتفى لامبرت اثره ولكنه لم يجده ، فسأل الدوق زارو عنه فاجابه هذا بهزة من كتفيه

هرع « الضابط الطويل » الى الخارج وقد خشي أن يقع قتال بين الشابين فأمر لامبرت أن يعود الى غرفة الطعام ثم تحول الى الدون زارو وقال له انه اذا حدث ما يخشى منه بسبب التقاء لامبرت وانجيلو فانه سيطلب الى القائد أن يحظر على الضباط الانجليز دخول المطعم

كان على لامبرت ، ليكون في مأمن من غريمه ، أن يتخذ خطة

الحياد المسلح على الاقل، ولكنه لم يكترث ناسيا ما اشتهر به أهل صقليا من الغدر والخيانة ، وود لو يلتقي بغريمه في اقرب فرصة

اما الدون زارو فكان يعلم أن انجيلو لا يجرأ على مقابلة الضابط الانجليزي وانه لا يستطيع استخدام الاشقياء للفتك به لان جمعية « المافيا » قد تداخلت في الامر إجابة لطلب الدون زارو نفسه . فكل من يجرأ على أن يضع اصبعاً واحداً على لامبرت، يعرض نفسه لانتقام تلك الجمعية الرهيب

لم يقدم الدون زارو على اتخاذ هذه الخطوة المتطرفة الا ليحقق حلما قديما وهو ان يصير متعهدا لتوريد المؤن والاطعمة الى الجيش طمعاً في الاثراء على حسابهم ، ولم يشأ أن يدع هذه الفرصة تفلت اكراماً لخطيب ابنته

على أن الدون زارو لم يشأ من جهة أخري ان يفسخ خطبة ابنته بسبب الحادث الذي وقع بين انجيلو ولامبرت ، عالماً أن هذه الحوادث شائعة بين قومه .ثم علم أيضاً أن انجيلو لا يقدم على مثل هذا العمل من جانبه اذا كان يهوى فرنشسكا ويحبها حباً صادقاً

لم يغادر انجيلو المطعم عندما فرّ من وجه لامبرت وانما اختفى في الغرفة التي تجلس فيها فرنشسكا وامها اذا ما فرغتا من العمل ، وهناك اخذ ينتظر بفروغ صبر قدوم خطيبته التي كان يتوقف على اخلاصها له الشيء الكثير

أخذ انجيلو يضطرب كلما سمع وقع اقدام في الخارج ، زاعما ان خصمه يبحث عنه . اما لامبرت فكان خالي الذهن من ناحيته معتقداً انه بعيداً عن المطعم . اخيراً جاءت امرأة من بائعات الزهور تعودت القدوم الى المطعم كل ليلة . وكانت هذه المرأة تميل الي لامبرت لحسن معاملته لها وتبغض انجيلو لانه كان ينتهرها كلما وقعت عيناه عليها

تقدمت هذه المرأة من لامبرت واشارت اليه أن يتبعها منتهزة فرصة اشتغال فرنشسكا وامها بخدمة « الكبتن الطويل » — وكان الضابط الوحيد الباقي في المطعم — فتبعها لامبرت وخرج معها مجتازاً المطبخ بسكون بعد أن حيي الدون زارو

قادت بائعة الزهور لامبرت الي غرفة في المطعم مرتبة على النظام الصقلي العتيق ، وهناك رأى لامبرت غريمه انجيلو جالساً على مقعد يحاول أن يحصر افكاره في النظر الى صورة فتوغرافية لخطيبته . وكانت بائعة الزهور تبتسم ابتسامة الظفر والفوز وهي تدفع لامبرت الى الداخل

احسّ انجيلو بالقادمين فدس يده في جيبه بسرعة ، وهي حركة ادرك لامبرت معناها في الحال ، فوثب على خصمه ودفع المنضده التي كانت عليها الصورة فوقه فطاشت الرصاصة التى اطلقها انجيلو في تلك اللحظة وسقط المسدس من يده المضطربة ، ولم تمض لحظة حتى امسك لامبرت بخناقه فخر انجيلو على ركبتيه بدلا من المقاومة

هز لامبرت غريمه هزتين عنيفتين ثم همّ بالقضاء عليه ولكنه رأى خلفه « الكبتن الطويل » وقد هرع الى المكان على صوت الرصاصة

رأي الضابط أن لامبرت قابضاً على عنق غريمه فسأله قائلا

— ماذا تفعل يا لامبرت ؟

— هذا هو الرجل الذي اغرى الاشرار على قتلي ، وقد اراد الآن اغتيالي، وهذا هو مسدسه ملقي على الارض أمامك

التقط الضابط المسدس ثم قال

— وماذا تريد به ؟

— اخمد انفاسه

فقال الكبتن بذاك الحزم الذي عرفه العالم عنه فيما بعد

— ولكني لا اريد ذلك .

— لا ادري ماذا يهمك من ذلك ؟

— اعلم ياعزيزي أن ارادتي هذه هي لفائدتك لا لفائدتي

— شكراً لك . لا اريد مساعدتك

— اخشى أن تحتاج اليها حتما

لم يحرك احد الرجلين ساكناً . وكان الضغط شديداً على عنق انجيلو ولكنه لم يجرأ على التحرك مخافة أن ينتهي اجله

وثبت امرأة الى الغرفة فجأة وصاحت قائلة

— دع هذا الرجل !

كانت المرأة فرنشسكا ، فرنشسكا التي يهواها لامبرت

تردد لامبرت هنيهة ، فجثت الفتاة أمامه ورفعت اليه يديها تضرعا وقالت

— بالله دعه ايها الدون لامبرتو اكراماً لي

اجاب لامبرت توسلاتها وترك غريمه ، فلما شعر انجيلو باطلاق سراحه تقدم الى فرنشسكا وهو يترنح ثم القى نفسه عند قدميها

تأثر « الضابط الطويل » من هذا المشهد بالرغم مما شهده في حياته المملوءة بالحوادث الخطيرة .ولا عجب فقد رأي روح فرنشسكا بارزة في عينيها وهي تشكر لامبرت وتبتسم له وتذرف الدمع في آن واحد ، ثم رأى نظرة أخرى ملؤها العطف وهي تنظر الى خطيبها الجاثي امامها وتخاطبه قائلة

— إقسم يا انجيلو أن لا تدخل هذا المكان بعد الآن مادام لامبرت في القاهرة ، وأن لا تضمر له الشر أو تحاول الفتك بمن وهبك حياتك

أقسم الشاب على أن يبر بقسمه هذا ، فقالت فرنشسكا

— سيحافظ على قسمه

ثم رفعت انجيلو عن الارض برقة وامرته بالانصراف

اطرق الضابطان أثناء هذه المأساة الصغيرة ، وساد سكون عميق عكر الكبتن صفوه بقوله

— عد الى تناول طعامك يا لامبرت

عاد الضابطان الى الصالة ، فدعا الكبتن الطويل لامبرت الى الجلوس على مائدة طعامه ، ولكنه اعتذر شاكراً وذهب الى المائدة الخاصة به ، وإذ ذاك اسرعت الدونا انوسنزا اليه فصاح قائلا

— انني أشعر بجوع شديد أيتها الدونا انوسنزا . لقد انتظرت طعامي مدة طويلة

ثم تظاهر بالضحك لكي يحملها على ان تضحك تلك الضحكة الايطالية الجميلة

وكانت الدونا انوسنزا قد تبعت ابنتها الى فوق وشاهدت ماجرى بين الشابين فازدادت غراماً بلامبرت ، واشتد ولهها به عند ما نزل الى تحت وأخذ يتناول طعامه كالتلميذ الصغير كأنما لم يقع شيء . أما فرنشسكا فكانت أبعد حكمة من أمها ، فانها لم تظهر إلا وهي حاملة وعاء الحساء ، فوضعته أمام لامبرت ثم مالت نحوه واسرت في أذنه بضع كلمات تورد لها وجهه

تنهد الكبتن الطويل إذ ذاك وقال في نفسه ، ألم يتعظ لامبرت بما جرى ؟

الفصل الخامس

﴿ سفر فرنشسكا ﴾

لما مالت فرنشسكا نحو لامبرت اسرت اليه أنها ستأتي له بالقهوة في الغرفة التي وقعت فيها المعركة بينه و بين انجيلو . وكان الكبتن الطويل يجهل ذلك . فلما قام لامبرت وتأبط ذراع الدونا انوسنزا وشرع في صعود السلم غضب الضابط لعمل ربما كان اكبر عمل ينطوي على الحكمة قام به لامبرت منذ قدومه الى القاهرة

دخلت فرنشسكا فوضعت القهوة على كرسي ثم اغلقت الباب واجتازت الغرفة مسرعة الى حيث كان لامبرت جالساً فوضعت يدها على منكبه ثم مالت عليه وقبلته مراراً قائلة

— هذا لأنك لم تقتل الرجل الذي احبه وأهواه

ارسلت هذه القبلات الدم حاراً في عروق لامبرت وأثارت لواعج غرامه بهذه المخلوقة الجميلة ، فقال

— ولكن ألا تحبينني بدلا منه ؟ كيف تعشقين رجلا أغرى عصابة من الاشقياء على قتل رجل اعزل ، ثم شهر في وجهه مسدسه في عراك اشعل هو جذوته ؟

فأجابته الفتاة قائلة

- هـذه حوادث اتفاقية أيها الدون لامبرتو لا تقع كل يوم ولا تأثير لها في صفات انجيلو التي اعشقها فيه

- ولكنك لا تقبلين الزواج برجل حط من كرامة نفسه

- هذا رأيكم أنتم معشر الانكليز لا رأينا نحن الصقليين . لا ارضى ان تقتل انجيلو

رأت فرنشسكا ما بدا على وجه لامبرت من دلائل الدهشة والاستغراب فاستطردت في حديثها قائلة

- لقد احببت انجيلو منذ زمن طويل ، وهو الرجل الذي اخترته ليكون أبًا لاولادي ، واذا كان قد حاول قتلك فانما فعل ما يفعله أي صقلي آخر ، وعلى ذلك ليس ثمة ما يدعوني الى لومه

رأى لامبرت في قول الفتاة شيئًا من الحق ، ولكن ذلك لم يمح احتقاره لغريمه انجيلو ، فقالت

- أما ما حدث اليوم فقد كان إهانة في حق أبي لوقوع الحادث في منزله . اننا نعد عمله هذا نحن الصقليين دليلا على انه لم يفقد شجاعته . لقد حاول قتلك دفاعًا عن نفسه ، فالقيت مسدسه من يده ثم صار تحت رحمتك . ولما لم يكن يعادلك قوة لم يجد فائدة من مقاومتك ، إذ كان في وسعك ان تخمد انفاسه بهزة عنيفة من يدك . وعلى ذلك لم يكن ثمة شيء ينقذه من الموت غير التدخل بينك وبينه . أما استسلامه لك فقوة الضعيف — قوة الشهيد . فلماذا احتقاره ؟ ان قبول ما ليس منه بدٌّ هو الاساس الذي تبنى عليه أخلاق الصقلي

- وهذا ما ينطبق قوله أيضًا علينا معشر الانجليز متى شاءت أرادة الله أمرًا ، ولكن لا يشبه هذا العمل سلب ما يمتلكه رجل آخر

فقالت الفتاة

- ان القوة القاهرة واحدة في الحالتين أيها الدون لامبرتو مهما تكن الصورة التى ظهرت بها هذه القوة ، ولا يستطيع أحد ان يلومه على ذلك

فصاح لامبرت غضبًا قائلا

- حسن . اذا كان هذا رأيك . ... واذا كنت لا تستطيعين أن تميزي . . .

فقاطعته الفتاة قائلة

- ولكن في وسعي ان اميز انك تتمتع بقوة القديسين ، فأنت بطلي وهو حبيبي . ولا استطيع ان اعبر لك عن اعجابي بشجاعتك ، ولا كيف أشكرك على انقاذ حياته ، ولا كيف احببتك لانك فعلت ذلك اكرامًا لي

- ولكني أريد ذلك النوع الآخر من الحب ، الحب الذي يجعلك تقبلينني زوجًا لك

ـ ان هذه أمنية لن تتحقق أيها الدون لامبرتو مادام انجيلو على قيد الحياة

* * *

أفسدت النسوة اخلاق لامبرت الى حد ان أطلق لنفسه العنان ممهن، على انه لم يقطع الأمل بفرنشسكا .

أما الفتاة فكانت تميل صراحة الى اعجابه بها ولو انها لم تكن تريد أن تترك حبيبها من أجله . وكانت تثق من نفسها وتشعر بأنها ستظل فاتنة عقله وسالبة لبه وهي تقوم بخدمته وقت الطعام . على حين كان انجيلو يفكر في هذه الاثناء بالانتقام ولا يجد في غير ذلك عزاء ولا سلوى

وكان أول شيء خطر ببال فرنشسكا هو اين تقابل انجيلو مادام لايستطيع الذهاب الى المطعم، فوقع اختيارها على كنيسة سان بانكرازيو الكائنة بشارع كلوت بك، وكانت على مقربة منها فصممت على الذهاب اليها لحضور الصلاة و بعدها تجثو امام المذبح فيأتي انجيلو ويجثو الى جانبها

كانت فرنشسكا تتمنى أن تتزوج انجيلو في الحال فتسهل الأمور وتذلل الصعاب ولكن انجيلو كان يأبى الزواج قبل أن يعقد مع أبيه شركة رسمية مخافة ان يقيم والده العراقيل في سبيل زواجه اذا أقدم على هذا العمل على غير أرادته . وكان انجيلو حريصاً على تحقيق

هذه الأمنية ولذا لم يشأ ان يقدم على الزواج، كذلك لم يكن الدون زارو براغب في فقدان ابنته التي صارت معبودة الضابط الانكليزي

لم يكن لامبرت سهل القياد، فقد نسي انجيلو بعد غيابه واختفائه عن عينيه، وشرع يحاصر الفتاة بجد واهتمام . على انه لم يتقدم نحو غايته، لأن الفتاة لم تنظر الى اعماله بعين الجد ولو انها لم تحاول الأفلات من نظراته

أخيراً بلغت الأمور حدها الأقصى ذات يوم، وكانت فرنسسكا تجهل ان الأنسان اذا اختلس قبلة في انكلترا لايعد ذلك ذنبا عظيما، فأخذت تمازح لامبرت والضابط يطاردها الى ان حاصرها في ركن لم تستطع الافلات منه واستعادة حريتها إلا بقبلة

وانهما لكذلك واذا بالباب قد فتح - لانهما لم يسمعا دقا عليه بسبب انشغالهما - ودخل عليهما رجل قصير القامة، نحيف الجسم، مجعد الشعر، له عينان زرقاوان مملوءتان دعة وعطفا، تبدو عليهما دلائل الابتهاج بسهولة كما تبدو دلائل الغضب بسهولة كذلك، يرافقه سردار الجيش المصري نفسه

اطلق لامبرت يد فرنشسكا وقدم التحية العسكرية للسردار، وكانت تبدو عليه دلائل الاضطراب فنظر الرجل النحيف اليه وابتسم في وجهه ابتسامة ملؤها الانذار والتحذير، ثم تحول نحو السردار وقال بصوت خافت لم يسمعه الاخران

— ها قد رأيت انني على حق . ان النساء أُس كل فساد ، والحب منبع كل بلاء

ثم قال بصوت عال

— ليس هذا رجلك على ما أظن ؟

فضحك السردار بملء شدقيه وقال

— كلا ياجنرال . ان هذا هو البكباشي اليفانت .

ثم نظر الى لامبرت وقال

— اقدمك الى الجنرال غردون

تقدم لامبرت الي القائد وحياه باحترام وسرور ولو انه لم يكن يدري شهرة الشخص الذي يحدثه . وقد حاولت فرنشسكا في خلال ذلك أن تنسل من الغرفة ولكن السردار ناداها وطلب اليها أن تدعو اباها

جاء الدون زارو واخذ يطأطيء رأسه ذات اليمين وذات اليسار باسطا يديه ، لأن ابنته كانت اخبرته أن الذي يطلبه هو السردار

التفت السردار الي الجنرال غردون وقال

— هذا هو الرجل الذي حدثتك عنه . لقد جربته وخبرته في مقاولات صغيرة لتقديم المؤن والمهمات فوجدته قادراً واميناً ، وهو يجيد التكلم بالعربية

فقال القائد مخاطبًا الدون زارو

— حسن ياسنيور لنتيني، ماقولك في مرافقتك اياي الى الخرطوم؟

وكان الدون زارو يعرف اسم الخرطوم، لأن تجار القاهرة لهم بها صلة تجارية عظيمة بواسطة تجار العرب الرحل المعروفين « بالجلابة » ، كما كان يعرف ان الأعمال التجارية هناك اضطرب حبلها بسبب ثورة المهدي فقال :

— وبأية صفة تريد ان أرافقك ياصاحب السعادة ؟

— كوكيل لي في شراء المهمات والاطعمة اثناء نقلي الحاميات والموظفين الملكيين من الخرطوم وسنار وغيرهما من الأماكن التي لاتزال في قبضة الحكومة المصرية في السودان

— هل يمكنني ان آخذ زوجتي وابنتي معي ؟ لأنه يستحيل علي ان اتركهما في القاهرة

فأبدى القائد شيئا من التردد ، لأنه كان لايميل الى وجود النساء وخشى أن تكون الابنة هي الفتاة التي رآها الآن ، على انه قال

— ولكن يحتمل ان يتعرضا للخطر . لا أريد ان يرافقني احد من النساء الى السودان لأن مهمتي سحب القوات الموجودة هناك، وسحب الجنود مهمة لاتخلو دائما من الخطر لأنه يحتمل ان يهاجم العدو مؤخرتنا

— انا وحظي ياصاحب السعادة

— حسن . سنقضي بعض الوقت في الخرطوم وقد نحتاج اليهما

وكان لامبرت قد لزم الصمت الى الآن فخاطب الجنرال قائلا

— هل لك ان تأخذني معك ايضًا ياسيدي ؟ ستحتاج الى ضابط أبيض يتكلم العربية ، أليس كذلك ؟

فأجابه القائد قائلا

— كلا ، لست ذاهبا للقتال ولكني ذاهب لسحب القوات الموجودة هناك

فاستاء لامبرت وقال

— لك ان تثق بضابط مصري في مثل هذه المهمة

على ان القائد أبدى من الحزم ماخفف غضب لامبرت إذ قال

— ان بين المسلمين جميعًا رابطة عطف وثيقة العرى تجعل هذه المهمة سهلة اذا لم يكن لأحد من المسيحيين فيها يد ، ولكن اخبرني ياولدي ، هل تعرض علي هذه التقدمة لكي تكون على مقربة من ابنة السنيور لنتيني ؟

فقال لامبرت بلهجة ملؤها الجرأة والصراحة

— نعم . . .

وكان القائد يجل الصدق بعد الله ، فود لو استطاع أن يأخذ لامبرت معه ولو أن وجوده لمثل هذه الغاية مما ينافى المبادىء الحربية ، على انه مع ذلك سأل السردار هل يستطيع الحصول على احد من الضباط البريطانيين الذين التحقوا بخدمة الجيش المصري الحديث

اذا احتاج الى عدد منهم لسحب الجنود والموظفين المصريين والاجانب القليلين الذين يشتغلون بالتجارة في الخرطوم ، فقال السردار

— لقد اخبرت القائد أن ليس لدي غير ستة وعشرين ضابطًا بريطانيًا في الجيش المصري الحديث كله . ولا بد أن يمضي وقت طويل في تدريب الجنود ، ولهذا السبب لا استطيع الاستغناء عن احد منهم

سأل الدون زارو القائد قائلا

— ومتي نسافر ياصاحب السعادة ؟

— انا شخصيًا سأسافر غدًا مساء ، فهل تستطيع أن تلحق بي بعد اسبوع ؟ لقد علمت أن هذا المطعم ليس ملكا لك ولكنك تديره باسم غيرك

— اذا تركته دون سابق اعلان دفعت تعويضا

فقال القائد

— سأقوم بدفع هذا التعويض

كان القائد هو الجنرال غردون ، وكان قدم القاهرة في اليوم السابق ، يحمل حقيبة يد صغيرة لا يرافقه احد من الخدم . فاتفق مع الخديوي بتأثير بارنج القنصل البريطاني ، على أن يسافر الى الخرطوم مع الكولونيل ستيوارت دون أن يأخذ معه اية نجدة عسكرية للجلاء عن السودان

وكان غردون يتمتع بشهرة واسعة في السودان والمناطق

الاستوائية ولذا لم يخش أن يصيبه أذى . ثم انه كان من السهل عليه الوصول الى الخرطوم لأن الضفة الشرقية للنيل كانت خالية من الثوار ، ومتى استطاع الوصول الى هنالك صار على رأس الجيش المصري الذي عهد اليه الآن بسحبه من السودان

على أن المشكلة الكبرى هي في ايجاد السلطة التي تتولى زمام البلاد بعد انسحاب السلطة المصرية . وقد رأى غردون أن خير وسيلة هي أن يعهد بادارة البلاد الي زعيم عربي ، لديه من القوة ما يساعده على صد غارات المهدي ، وهذا الشرط لم يتوفر الا في رجل واحد هو زبير باشا ، عدو غردون القديم وتاجر الرقيق المشهور الذي بذل غردون مجهوداً عظيما للقضاء على سطوته

على انه لما رأي غردون هذه الحقيقة اشار على الخديوي بواسطة القنصل البريطاني أن يعين زبير باشا حاكما على السودان ، وقد رأى القنصل أن الضرورة تقضي بهذا التعيين فأرسل يطلب موافقة الحكومة الانجليزية ، ولكن هذه رأت أن زبير باشا من تجار الرقيق فرفضت الموافقة على تعيينه غير حاسبة حسابًا للدماء التي اهرقت ولا للارواح التي ازهقت

وعلى ذلك لم يجد غردون مندوحة من سحب الجنود والموظفين من الخرطوم ، والبقاء هنالك اذا تركه المهدي واكتفى ببسط نفوذه على دارفور وكردفان

الفصل السادس

﴿ لامبرت في الخدمة العسكرية ﴾

قضى لامبرت الاسبوع التالي في نكد وحزن ، وقد قضى معظمه تقريبًا في التردد على فرنشسكا التي لم تكن لديها مشاغل كثيرة ، لأن الصقليين لا يأخذون معهم وقت سفرهم شيئًا من الأمتعة الاهم إلا الثياب التي يرتدونها وحقيبة صغيرة ، وعلى ذلك لم تفكر فرنشسكا بشيء استعداداً لسفرها غير شراء بعض ملابس خفيفة تلائم جو الخرطوم

لم تسمح فرنشسكا ، بعد الذي وقع من لامبرت أثناء ثورة حبه ، له بتقبيلها ، على انها لم تكن لتعترض على ان يطارحها حبه ويبث لها غرامه بالاحاديث اللطيفة والهدايا الجميلة وغير ذلك ، فكان الاسبوع الذي قضاه في جوارها اسبوعًا ذهبيًا ، ولكنه انتهى على عجل ، اذ لم يلبث ان رأى دخان القطار الذي أقل فرنشسكا ووالديها الى الجنوب يتوارى عن عينيه وهو واقف ينظر اليه في محطة بولاق القديمة ، فشعر بوحشة لم يشعر بها من قبل

سمع لامبرت في اليوم التالي اتفاقًا ان غردون عين انجيلو

ترادیتور مساعداً للدون زارو وانه سيلتحق بهم ، فثارت ثائرة غضبه فوق ما كان يتحمله من لوعة الشوق والوحشة

قال لامبرت في نفسه ان الجنرال غردون كان يؤثر ان تقطع عينه على ان يلحق رجلا مثل انجيلو بخدمته لو كان يعلم حقيقة أخلاقه . أما الدون زارو فقد سلك سبيل الحكمة لأنه أبعد انجيلو من طريق الرجل الذي كان ينوي الاضرار به متى استطاع . ثم انه استطاع، بادخال انجيلو في خدمة الجيش ، ان يحمل والد الشاب على الموافقة على زواج ابنه بفرنشسكا وعلى جعله شريكا له وهو الشرط الذي يطلبه انجيلو لاتمام الزواج . نعم كان الدون زارو يود ان يتخذ لامبرت صهراً له، ولكن نقض العهود في صقليا يؤدي حتما الى القتل والانتقام ، وهما من الجرائم التي لا يحجم انجيلو عن ارتكابهما لحظة. وفوق ذلك رأى الرجل ان لامبرت سيبقى في القاهرة وان انجيلو سيكون معهم في الخرطوم لا يحول بينه وبين رؤية فرنشسكا حائل، فمن السهل اتمام صفقة الزواج

* * *

لا تسل عما استولى على لامبرت من اليأس بعد ان فقد الفتاة التي هام بحبها ولا سيما انه لم يجد ما يقتل به أوقات الفراغ غير الذكرى التي كانت تنغص عليه حياته . وقد خطر بباله في بادىء الأمر ان ينتحر ولكن لم يلبث ان عاد اليه صوابه . ولما لم يكن له في

القاهرة أهل فقد زج بنفسه في غمار الدعارة التى لم يكن له بها عهد حتي ذلك الوقت والتي كان يشهدها كمتفرج على سبيل التسلية . وقد اشتد به وجده اشتداداً اطال سهاده وحال بينه وبين الكرى فلم يذق للنوم طعما كلما ذكر تلك الهوّة العميقة التى ستفصل بينه وبين فرنشسكا باقترانها بانجيلو . فكان كلما شعر بحاجته الى النوم لم يجد بداً من ان يلتجىء الي الخمر حتى اصبح من المدمنين

وقد ساءت حالته الى حد لم يستطع السردار معه إلا ان يصارحه القول بأنه اذا لم يطرأ على حالته تحسن سريع فلا بد من عزله من الجيش المصري واعادته الى ارطته ، اذا سمحت له وزارة الحربية بذلك ، وإلا فلا مندوحة له من ترك الخدمة .

كانت هذه الصدمة أشد من ان يتحملها لامبرت . فلما عاد الى غرفة التدخين صار بحال من الهلع أدهشت الكبتن الطويل الذي حال بينه وبين الفتك بانجيلو، وكان وحده بالغرفة فاقترب من لامبرت وجلس الى جانبه ونظر اليه نظرة ملؤها العطف ثم قال

— انك تنتحر يا لامبرت وتحرم بلادك من جندي باسل

فقال لامبرت بلهجة الكئيب المحزون

— أعرف ذلك ، ولكني لا استطيع ان اسلوها أو امحو هواها من قلبي

— كن رجلا ولا تستسلم لمثل هذا الحب

— لا استطيع

— بل تستطيع ، وكل رجل مثلك يستطيع

— وكيف السبيل الى ذلك ؟

— بدخول الخدمة العسكرية

— لقد قدمت نفسي الى الجنرال غردون ولكنه أبى قبولي . أما السردار فانه لا يسمح لأحد من ضباطه بالذهاب . وقد اخبرني الآن انني ان لم أهجر الخمر فلا بد لي من العودة الى بلادي حاملا على رأسي لطخة عار لا تمحى

فقام الكبتن ثم ولى وجهه شطر الباب وخرج فاستأجر مركبة اقلته الى مركز قيادة الجيش حيث قابل السردار وقال له

— لقد حضرت لأطلب نقل البكباشي لامبرت اوليفانت الى قوة الجنرال جراهام في سواكن

فقال السردار

— اوليفانت ! ماذا تقول ؟ لقد اخبرته اليوم بأن لا بد له من اعتزال الخدمة بالجيش المصري ان لم يعدل عن تعاطي الخمر

— أنت على حق في ذلك ياسيدي

— ماذا تعني؟ لماذا لم يأت لامبرت نفسه الى هنا اذا كان يريد السفر؟

— انه في حالة يرثى لها

— انظر اليّ أيها الكابتن . أراك في حال غريبة جداً ولكنني أظن انك لا تقصد شراً . فماذا يشغل بالك الآن ؟

— هل تسمح لي ياسيدي بان احدثك بصراحة ؟

— بلا ريب

— ألا ترى معي انه يحسن أن يقتل الدراويش لامبرت اليفانت أولى من أن يقتل هو نفسه بادمانه الخمر ؟

— بلا شك . وعلى ذلك جئت من اجل . . ؟

— . . . أن احملك ياسيدي على ارسال البكباشي أوليفانت الى الخدمة العسكرية . نعم انه سيكون بعيداً ولكن رائحة البارود قد توقظه من سباته ، فانه رجل كفاح بطبيعته

— انت رجل طيب القلب . . .

— انك ياسيدي أول من قال ذلك . على انني اعتقد انني ذلك الرجل حقيقة

وهكذا وجد لامبرت اليفانت نفسه في خط النار في تاماي والتب

لما وصل لامبرت الى سواكن قال الجنرال جراهام : « كنت أظن أن السردار قال انه لا يستطيع أن يستغني عن أحد من ضباطه؟

— لقد هددني بالعزل ياسيدي ثم عدل عن ذلك وارسلني الى هنا

— ولم ذلك ؟

— لأني ادمن الخمر ادمانا سيؤدي بي الى الهلاك ، وهذا ما اريده ، فلا خير لي في الحياة

جعل القائد يحدق به النظر ثم قال

— أمثالك لا خير له في الحياة ، فماذا دهاك ؟ أعاشق أنت ؟

— نعم ياسيدي

— اذن قص عليّ قصتك

فأخذ لامبرت يفضي اليه بحكايته كما هي ، فلما فرغ منهـا قال له القائد

— إنك على حق . والآن أنا اكثر سروراً بحضورك من أي شخص آخر يرسله السردار الى . انك في حاجة الى القتـال والدفاع عن حياتك لكي تعرف قيمتها . والآن اصبر قليـلا ! لا تحرك ساكنًا حتى تنتهي المعركة . أفهمت ؟

فصبغ الخجل وجه لامبرت وقال .

— نعم . نعم ياسيدي

— لا تنس ان هذه فرصة تمهد لك سبيل المستقبل الزاهر . واعلم ان الذين سبقوك الى ذروة المجد انما بدأوا حياتهم من حيث تبدأ أنت الآن حياتك

الفصل السابع

﴿ وصول غردون الى الخرطوم ﴾

تقع مدينة الخرطوم على مسافة الفي ميل أو اكثر في قلب افريقيا وهي جالسة فوق عرشها كقسطنطينية المستقبل

ليس من السهل ان يصدق الانسان ان هناك مدينة تمتد في بقعة رملية على شكل خرطوم فيل بين النيل الازرق والنيل الابيض ترتفع الفًا ومائتي قدم عن سطح البحر ، ولكن يسهل ذلك اذا ألقيت نظرة على سلم الآلهة المدرج واعني بهِ شلالات النيل الستة الكبرى التي تقطع النهر ، وعلى الارض المرتفعة من اسوان الى الخرطوم

ولعمري لا تحتاج مدينة الى بقعة أجمل من تلك الارض المرتفعة التي تشبه الخرطوم – لهذا سميت بهذا الاسم – والتي تمتد فوقها الى مسافة خمسة أميال على طول النيل الازرق ، والى أربعة أميال على طول النيل الابيض وقت انخفاض النيل . وقد ظلت الخرطوم طول حياتها مدينة النخيل والحدائق ، فترى اشجار النخيل تمتد خطًا طويلا في الأفق بين النيلين الابيض والازرق ، هي تظلل مرسى السفن والاماكن التى تورد منها المياه . في حين تدخل القصور التى

تمتد الى ميلين على شاطىء النيل الازرق ، في احضان حدائق شاسعة تكتنفها المياه وتمر من أمامها مثل قناة مدينة البندقية . وترى المنازل كعنقود عنب في ظلال القصور ، والنيل الابيض يجري مثل بحيرة من ورائها . أما مدينة أم درمان ، ذات التاريخ الحافل، فتقع وراء هذه المياه في جهة الغرب . في حين تقع في الشرق « حلفايا » وهي ترسانة لاسطول نهري

نعم ، كان في مدينة الخرطوم حوض للسفن واسطول من البواخر التي تجري في النهر العظيم الذي يحمل فرعه الشرقي مياه جبال الحبشة بخيراتها ، والذي يحمل فرعه الغربي مياه بحيرات نيانزا ، وهما الفرعان اللذان يلتقيان ويتحولان بعدها الى مجرى واحد في أهم نقطة في مدينة غردون

وقد أصبحت الخرطوم اليوم عاصمة السودان ، واكبر مدينة في افريقيا الاستوائية بفضل ما شيد فيها من الأبنية العمومية ودور الحكومة ، ووجود الحامية المصرية الانكليزية ، وما انشيء فيها من الأندية ، والقبائل المتوحشة التي قاتلت مع المهدي ، وزيادة تجارتها ، وامتداد ضواحيها الى أم درمان وخرطوم بحري . فيها يرى العلم المصري ، علم فرعون الحديث ، وهو يرفرف بجانب العلم البريطاني فوق القصر الكبير الابيض الذي يقطنه حاكم السودان

كان « شارلي غردون » — كما يسميه اصدقاؤه الى اليوم —

شديد الايمان بعلم بلاده ، حتى انه ظل يعتقد اعتقاداً وطيداً ، الى تلك الساعة الرهيبة التي قتل فيها وهو واقف يرى الاعراب على سلم القصر كالنحل ، بأنه سيرى جنوده حاملين هذا العلم وقد شقوا لأنفسهم طريقاً الى الخرطوم

واذا ضربنا صفحاً عن المظاهر العسكرية ودور الحكومة وأماكن الصيد ، رأينا ان الخرطوم التي وقف فيها غردون جيشاً بمفرده ، لا تختلف كثيراً عن الخرطوم اليوم . فقد كانت مدينة عظيمة بها اربعون الفاً من السكان، لها اسطولها وترسانتها ، كما كانت عاصمة لسلطنة واقعة قرب خط الاستواء تحولت اليها جميع الحركة التجارية والحياة الوطنية التي تحولت من قبل الى مدينة أم درمان في عهد الخليفة

وكانت الخرطوم في ذاك الوقت — كما هي اليوم — تتجه نحو النيل الازرق . تقع أهم مبانيها فوق شاطىء ذاك المجرى المرتفع . وهي تبتدىء من بقعة على مسافة نحو ميلين من طرف اللسان الممتد بين النيل الابيض والنيل الازرق ، ثم تجري نحو ميلين آخرين تأتي بعدها الاحياء التجارية . ولا تمس مياه الفيضان هذا الجانب ولكنها تضيق اللسان الارضي كثيراً من ناحية النيل الابيض

من السهل على الذين يتسلطون على النهر ان يحولوا الخرطوم الى قلعة حصينة بانشاء سور قوي وخندق ، ونصب بضعة مدافع على

الجانب الجنوبي من المدينة وراء اللسان الارضي ، وهـذا ما فعله الـكولونيل دي كويتلجون ، وهو ضابط مهندس خلفه هكس باشا

كانت الخطوط الواقعة على الجانب الغربي لا تمتد الى شاطئ النيل ولـكنها كانت تنتهي بقلعة تسمى « مكرم » وهي على مسافة ميل من ملتقى النهرين ، على الجانب الشمالي لـكي تكون بعيدة عن الفيضان . ولم يحاول الاعداء القيام بهجوم من الشمال أو الغرب أثناء حصار المدينة ، ولو ان اطلاق المدافع ظل مستمراً بعد سقوط حصن غردون في أم درمان

لما وصل غردون الى الخرطوم في ١٤ فبراير سنة ١٨٨٤ كانت الحدائق المحيطة بالمدينة لا تزال زاهية زاهرة بمياه الفيضان في العام الماضي ، وقد استقبله السكان كمنقذ ارسل من السماء لأن المدينة كانت خالية من الحراس — عدا قوة صغيرة من الباشبزق (الاهالي المسلحين) والجنود المصريين — الى ان تعززت هذه الحامية باستدعاء الف واربعمائة جندي كانوا في فاشوده وبقوات صغيرة أخرى

أما الابيض ، التي كان بها حصن قوي مسلح بخمسة مدافع وستة آلاف بندقية ، فلم تستطع مقاومة محمد احمد المهدي الجـديد في السودان . وانهزم جيش هكس باشا المؤلف من ستة عشر الف

جندي، ولم يقع شيء من الانتصارات بعد ارتداد القوة التي ارسلت من الخرطوم للقبض على المهدي في جزيرته

لا يعلم أحد حتى الآن السر في فشل الحملة التي أرسلت للقبض على المهدي لأن معظم رجالها كانوا من المسلمين ، ولأن العرب اشتهروا بموالاة الفريق المنتصر والتمسك بهِ بارادة غريبة، حتى ولو لاح لهم الخذلان مؤقتاً

وكان سكان المدينة يجهلون ان القاهرة تفكر بصفة جدية في تسليم الخرطوم بسحب الحامية وادارة الحكومة ، ولـكنهم كانوا يعيشون في جو من الاضطرابات والقلاقل و يعتقدون انه قد قضى عليهم بالهلاك ما لم تأتهم نجدة من الخارج

ولـكن ها قد جاءتهم النجدة — النجدة في شكل رجلين لم يأتيا معهما بمدفع واحد أو بجندي واحد

نعم هذا ما جرى ، ولـكن كان أحد الرجلين الحاكم المطلق السودان والمناطق الاستوائية ، الذي ظل أعواماً طويلة يصدر أوامره فيطيعه أكبر شيخ من مشايخ القبائل ، والذي قضى على سلطة زبير باشا وأعدم ابنه سليمان زبير لعصيانه ، وحرم استعباد الزنوج ، وعلم الفلاح ان يزرع ويجني في سلام . وكان السكان لا يعرفون غير تجارة الرقيق والعاج . فحول التجار والزنوج الى جيش اتخذه

قاعـدة لسلطته وملأ خزانته بالعاج والمواشي التي كانت تسلب وتنهب ، وسيَّر بها دفة حكومته

لم يجد السكان المسلمون غضاضة في ان يأتي رجل مسيحي لانقاذهم من الوقوع تحت سيطرة نبي كانوا يؤمنون بهِ سراً ، ولهذا خرجت جموعهم الى لقائه واستقبلوه استقبالا لا يستطيع غير الشرقيين ان يقوموا بهِ . فقد احتشد الزنوج من رجال ونساء واطفـال على شاطىء النهر بثيابهم البيضاء حتى لم يعد هناك موطىء لقدم . ولما جاء الرجل العظيم ألقوا أنفسهم تحت قدميه وهو سائر من المرسى الى الشاطىء حيث أعدَّت له الجياد وللكولونيل ستيوارت رفيقه

وكان الطريق الى القصر مزدحماً بجماهير الهاتفين . ولما أعلن غردون انقاص الضرائب واعفاء المتأخرين عن دفعها ، ارتفعت أصواتهم بالدعاء حتى بلغت عنان السماء

مكث سكان المدينة في ابتهاج وفرح مدة اسبوع ، واصل غردون في خلاله التحري والبحث . وكان الموظفون المصريون وضباط الجيش مجهزين بفرقة منظمة من الجواسيس ، فعلم منهم أن الموظفين ورجال الحامية هم وحدهم المخلصون للحكومة ، وانه لا تقع فتنة في البلاد ضد المهدي ، وانه لا مندوحة من الحرب ، وانه اذا لم تغلق أبواب المدينة ، اقتحمها ليلا أحد المشايخ الذين يتوقون الى الاستيلاء عليها

أغلق غردون الابواب ، وتأهب للقتال ، وارسل تلغرافاً الى القاهرة لارسال زبير باشا الى الخرطوم

وصل الى الخرطوم في الشهر نفسه الذي وصل فيه غردون والكولونيل ستيوارت — ذاك الصقلي المقوس الرجلين الذي اختاره غردون ليكون عوناً له في مهمته الشاقة ، ومعه امرأته الدونا انونسزا وابنته الدونا فرنشسكا وخطيبها انجيلو . ولم تكن هناك علامات تميز الدون زارو عن غيره من الرجال العاديين ، على عكس امرأته وابنته اللتين كانتا جديرتين بأن تعيشا في القصور لما كانت تتمتع بهِ كلتاهما من الجمال والملاحة الفائقة

وكان غردون قد أدرك من أول حديث له مع الدون زارو انه وفق الى رجل يصلح في مدينة حاصرها العـدو . وفي الواقع كان الدون زارو سريعاً في تقدير الكميات وحساب الاسعار ، ماهراً في حفظ الاشياء القابلة للتلف، يرى ما وراء الحجب الكاذبة ، يخترع مواداً مغذية اذا ما نفذت الاطعمة ، وفوق ذلك يستطيع التكلم باللغة العربية

لم يعترض غردون على مجيء انجيلو . على انه ألح ان يترك الدون زارو زوجته وابنته خلفه ، لانه كان بطبيعته غير ميال الى عشرة النساء ، يعتقد ان وجودهن مما يفسد عليه الاعمال الحربية الجليلة التي كان يعلم انها ستخلد في بطون التاريخ

والواقع كان غردون يوجس خيفة من تأثير دخول مثل الدونا انوسنزا بملاحتها و بشاشة وجهها ، ومثل ابنتها الجميلة ، في بلاد كالسودان وما قد ينجم عن ذلك من اشتغال عقول الحراس عن مهمتهم

نعم كان غردون يصلي ويتوسل الى الله قائلا : « اللهم لا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير » . دون أن تخطر بباله أية فكرة عما للجمال من قوة التأثير من الجهة الأخرى ، ولكن ياليته علم أن الضابط الانجليزي الشاب الذي ألح عليه هو بنفسه أن يغادر الفتاة الصقلية ، سيصير رجلا من النار والحديد بفضل الانباء التي علمها عن الفتاة ، اذن لادرك شيئاً عن هذا السر العظيم

بيد ان الدون زارو لم يعر توسولات غردون اهتماماً . وقد اذعن القائد في النهاية عندما سمع الرجل يقول إن زوجته الدونا انوسنزا هي مرشدته في كل شيء وانه يجهل القراءة والكتابة بالرغم من ذكائه وانتمائه الى اسرة رفيعة الحسب والنسب . وعلى ذلك ابتهجت الجالية الصغيرة من اليونانيين والايطاليين والنمسويين الذين كانوا في الخرطوم في ايامها الأخيرة ، بوجود امرأتين اروبيتين مليحتين

لم تخيم سحب الكآبة في البداية لأن ابواب الحرب لا تغلق في افريقيا ، ولأن الدين كان لا يزال الى ذلك العهد يمشي هناك بالنار والسيف ، فكانت الفتن والغزوات تقع في كل بقعة ومكان ولذا كان السكان لا يكترثون كثيراً بالحروب ولا بما يذاع عنها

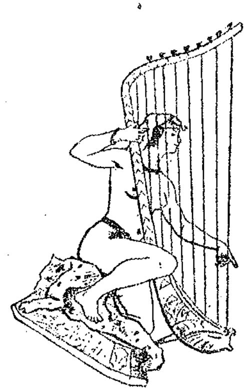
ولكن لماذا يقلق بال سكان الخرطوم ؟ ان غردون في وسطهم وفيها الجنود والبنادق والمدافع ، واذا كان غردون في الخرطوم و بواخره المسلحة تجري في النيلين فكيف يصاب اهلها بأذى ؟

اخيراً قال غردون شيئاً عن سحب الحامية المصرية والنزلاء الاوربيين والمصريين والعودة بهم الى القاهرة ، فأحدث قوله هذا تأثيراً في نفوس جميع السكان على اختلاف اجناسهم . فقد كان الزنوج لا يريدون أن يتركهم وشأنهم تحت رحمة محمد احمد المهدي الجديد وعبء الضرائب الباهظ الذي يلقيه على عاتقهم ، في حين كان البيض يؤثرون البقاء داخل اسوار مدينة حصينة على أن يتجشموا اخطار رحلة طويلة بالبواخر والابل ، يكونون في خلالها دائما عرضة لشرور المهدي وعدائه ، هذا بصرف النظر عما لهم من الثروة والاموال في مدينة الخرطوم نفسها

لم يكن لدى غردون لمناوأة النبي الجديد غير قوة لا اهمية لها من اليونانيين والتجار الشرقيين والموظفين والجنود المصريين والباشبزق والفلاحين ، ولكن كان لديه عدد قليل من الزنوج الذين كانوا في جيشه عندما كان حاكما عاماً على منطقة خط الاستواء . وهؤلاء لم يكن لهم وطن يرومون العودة اليه وانما كانوا يريدون أن يعيشوا حيث هم ويقاتلوا النبي الذي كان يؤمن به نصفهم

وهكذا ترى ان الذين خلدوا ذكر الخرطوم قاتلوا ضد عقيدتهم

ثم قاتلوا فيما بعد ضد آمالهم ، وحاربوا دفاعاً عن قائد ، لو كان في مكان محمد احمد لاستطاع أن يقبض على افريقا كلها ولهدد شواطيء البحر الابيض المتوسط وبلاد آسيا . لقد وجد نبي « الابيّض » الكاذب نبياً آخر خصما له ، ولكن كانت له الغلبة عليه لأن رجال السياسة في دوننج ستريت (مقر الحكومة الانجليزية بلندن) الذين كانوا يخاطبونه بواسطة قنصل جنرال محتقر في القاهرة ، ضنوا عليه بحرس مؤلف من مئتي جندي من المشاة البريطانيين



الفصل الثامن

﴿ سقوط الخرطوم ﴾

لم يكد يقضي غردون يوما واحداً في الخرطوم ، حتى ادرك انه لا يستطيع سحب الاوروبيين والمصريين احياء ، مالم تقم سلطة اخرى موالية لمصر مقام الادارة التي يراد سحبها . وكان جميع مشايخ القبائل في السودان لا يترددون عن تحمل التبعة ولكن اخلاصهم كان أمراً مشكوكا فيه . ولكن كان بينهم واحد يستطيع الوقوف في وجه الآخرين ، هو زبير باشا تاجر الرقيق السابق المشهور الذي كان فيما مضى من الد اعداء غردون واعماله

كان في وسع زبير باشا أن يؤسس سلطنة في السودان تتلاشى أمامها سلطة المهدي الذي سبب جميع هذه المشاكل والاضطرابات فقط اذا امدته الحكومة باعانة مالية لشراء الاسلحة ودفع مرتبات الجنود ، فقد كان زبير باشا من سلالة قريش وليس له مثيل في السودان سواء كمحارب أو حاكم بأمره . وقد اراد غردون وهو في القاهرة مقابلة زبير باشا ، فلما بلغ الخرطوم الان أيقن أن خير وسيلة لانقاذ الموظفين والجنود المصريين والتجار واخراجهم من السودان ، هي تعيين زبير باشا حاكما عاماً للبلاد

غير أن اللورد جرنفيل ابتسم استخفافاً بالامر ولم يشأ أن يصغي الى قول غردون . وعلى ذلك لم يجد القائد مندوحة من أن يغلق أبواب المدينة ويحتمل حصارها الى أجل لايعلمه الا الله

لم يكن غردون من الرجال الذين يأخذون الأمور بالتراخي والاهمال، فلاحظ في ١٦ مارس أن العصابات و بعض رجال القبائل تقوم بأعمال النهب والسلب حول الخرطوم فأمر اثنين من الباشوات المصريين وهما سيد باشا وحسن باشا أن يأخذا الف رجل من الباشبزق (السودانيين المسلحين) ومدفعاً لمطاردة رجال العصابات. وفعلا خرجت هذه القوة ، ولكن لم يكد يلتقي السودانيون برجال العصابة حتى فروا من أمامهم بعد أن تركوا مهماتهم الحربية وقتل منهم نحو ستين وغادروا القائدين المصريين اللذين استشهدا في تلك المعركة

وكان الكولونيل ستيوارت قد شهد المعركة ولكنه لم يستطع أن يعمل عملا . والواقع وجد غردون انه لا يستطيع الاعتماد على الوطنيين الذين كانوا يميلون في قلوبهم الى المهدي و يؤمنون به ، وان القوة الحقيقية التي في وسعه الاستناد اليها هي تلك الشرذمة الصغيرة المؤلفة من الف جندي من الزنوج الذين قاتلوا بقيادته في الأيام الماضية ، عدا الثلاثة الآلاف جندي من المصريين والعرب الذين ثبتوا في وجه قوة تفوقهم عدداً

مكثت هذه القوة تقاوم الأعداء من ١٦ مارس الى ٣٠ يوليو

مقاومة الأبطال، ولم يقتل منها في خلال هذه المدة غير ثلاثين وجرح ستون مع انها أطلقت ما لا يقل عن نصف مليون رصاصة وأرسلت في اثناء المدة نفسها ٢٦٠٠ مهاجر الى بربر

جاء انجيلو في اليوم الذي فر فيه الباشبزق الى الدون زارو وقال له

— أضرع اليك ان تدعني أرافق الدونا انوسنزا وفرنشسكا الى القاهرة ثانية ، أو على الأقل الى أسوان قبل أن يغلق الطريق

فقال الدون زارو

— ان الطريق سيظل مفتوحا بلا مراء

— ان السفر خطر جداً الآن ومع ذلك فقد نستطيع الأفلات بعون الله . لقد وصل حرس قوي هذه المرة مع الأبل التى جاءت تحمل بضائعي، لأن اللصوص كثر عددهم في الطريق ، ففي وسعنا أن نصل معهم الى بربر بسلام، في حين لاتزال الاراضي الواقعة شمالا في يد الحكومة المصرية

فأجابه الدون زارو قائلا

— لانستطيع أن نترك القائد

وكان الرجل لايريد في الحقيقة أن يجعل ابنته وزوجته عرضة للتأثيرات السيئة في القاهرة وهو بعيد عنهما

فقال انجيلو

— يجب ان تحرصوا علي حياتكم قبل كل شيء

— ان الخرطوم أأمن على كل حال من بربر ،ولا يستطيع احد ان يمسنا بأذى داخل حصن منيع كهذا . سنبقى هنا الى أن تصل الينا النجدة من مصر ونخرج سالمين

— لن يأتي لنجدتكم أحد ، وقد أرسل الانجليز غردون باشا الى الخرطوم ليكفيهم المشقة . قد يكون الباشا رجلا عظيما ولكنه لايستطيع ان يفعل شيئا مع هؤلاء الناس . وقد رأيت بعيني رأسك اليوم كيف خان الباشبزق القائدين المصريين وفروا من وجه اعدائهم مع انهم كانوامسلحين بالبنادق وهؤلاء بالحراب،وقد استولى الاعداء الآن على ما كان معهم من البنادق والذخيرة وعلى المدفع الذي اخذوه معهم ، واذا كان هـذا حالهم فأي امل يراه غردون في الاحتفاظ بالمدينة ؟

— لقد نسيت جنوده الزنوج . أما الجنود المصريون فسيرسلهم غردون الى الخارج لانهم هم الجيش . المصريون لا يعرفون غردون كما يعرفه هؤلاء الزنوج الذين كانوا في جيشه عندما كان بمثابة ملك البلاد

— أن المؤن لا تكفي

— في وسعي ان اجعلها تكفي متى خول لي الباشا السلطة اللازمة . وقد اخبرته اننا لا نستطيع أن نطعم اربعين الف نفس الى أجل غير معين ، وأن في المدينـة الوفا من السكان لديهم من يعولونهم في معسكر العدو

فقال انجيلو

— حسن . ساعود انا قبل أن يقطع الطريق لانني لا اريد أن يحبسني المهدي هنا

— لماذا لاتتزوج بفرنشسكا؟اذا فعلت ذلك تعين عليها مرافقتك

— لم يرسل والدي الي عقد الشركة الى الآن ، فأخشى اذا تزوجت بفرنشسكا قبل الوصول الى غرضي هـذا ، أن يعدل عن مشاركتي بتاتا

— حسن . ان فرنشسكا لا تزال شابة ، وستعود الى القاهرة بعد عام أو اقل

— لست مرتاحا لسير الامور وأرى غردون يستخف بموقفه كثيراً

— لا استطيع على كل حال أن اغادره ، ولا تستطيع أن تغادرني فرنشسكا قبل زواجها

فقال انجيلو بلهجة الاصرار

— لا مندوحة من السفر ، اذ لابد من تسوية مسألة الشركة قبل أن يعدل والدي عن رأيه ، ثم لا بد لي أن اهيء منزلا لفرنشسكا و بعد ذلك سأحضر لاتمام الزواج ثم اعود بها الى القاهرة

كان انجيلو غير مرتاح لسير الأمور ، ولم تكن لديه اقل

نية للعودة الى الخرطوم اذا استطاع الرجوع الى القاهرة سالما حيث ينتظر فرنشسكا حتى تعود . نعم انه يهواها ويحبها ، ولكنه لا يحبها أكثر من حياته . وقد رأى انه سيأتي يوم ليس ببعيد ، فيه يضرب العدو حصاراً قوياً حول المدينة

وكان الشاب يرتاب في قدرة المدينة على الدفاع والمقاومة ويخشى ان يثور السكان في وجه غردون ويسلموا المدينة الى عمال المهدي ، فكان يذهب الى فراشه كل ليلة وهو يتوقع أنه سيذبح وهو نائم . وقد ود الشاب لو انه لم يأت الى الخرطوم ، لا لضعف أصاب حبه لفرنشسكا بل لانه لم يستطع البقاء حتى ينتهي غردون من مهمته السخيفة ، وهي سحب جميع المصريين والعودة بهم الى القاهرة . أما الدون زارو فكان من طراز آخر ، لا يقوى على مواجهة الفظائع ولكنه كان قادراً على احتمال ما يصيبه من الآلام والمشاق خلف الاسوار حتى يقضي عليه جوعاً

أصاب انجيلو فيما ذهب اليه ، فقد كانت الخرطوم في حالة لا تستطيع معها الثبات في وجه هجوم يقوم بهِ جيش مدرب ، ولكن هل يأتي يوم يقع فيهِ مثل هذا الهجوم فعلا ؟ لم ينتظر انجيلو حتى يرى بعيني رأسه الجواب

ركب انجيلو في صباح اليوم التالي بعيره بعد ان ودع فرنشسكا وأهلها ، ثم سار مع قافلته في الطريق القديم قاصداً القاهرة

استقر رأي غردون في شهر اغسطس – بعد التأهب والاستعداد بضعة شهور – على ان يضرب العدو ضربة تزعزع ثقته بنفسه . وكان لديهِ قائد عربي جرىء يدعى محمد علي باشا فأرسله مع زهرة جيش الخرطوم وجميع الجنود الزنوج تقريباً في باخرة الى « الجريف » حيث هزم عبد القادر وضربه ضربة شديدة وغنم منهُ الف بندقية

وقعت هذه المعركة في ٢٩ اغسطس ، وفي اليوم التالي حمل محمد علي شمالا وطهر شاطىء النهر من المصاة الى المتمة وشندي بعد ان انتصر انتصاراً مبيناً على شيخ الابيض في حلفايا الواقعة في منتصف الطريق . وقد أخذت المواشي والمؤن على اختلاف أنواعها تتدفق إذ ذاك الى الخرطوم فهبطت الاسعار الى المستوى العادي وعمَّ الابتهاج والفرح

وفي ٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ أرسل غردون القائد محمد علي باشا مرة أخرى لمقاتلة شيخ الابيض وأمير مداوى فداهمهما في « الفونج » ودحر قواتهما مرة أخرى ففرا الى أم درمان في الداخلية فاقتفى أثرهما وترك فرج الله باشا مخندقاً على شاطئ النهر

وكان غردون قد أرسل الامدادات بقيادة الكولونيل ستيوارت الى محمد علي باشا ، ولكن هذا لم ينتظر وصولها واكتفى بتموين رجاله بالمؤن والذخيرة . وكان غرضه القيام بحملة ليلية ومداهمة العدو على غرة منهُ

على انهُ ضل الطريق في الظلام فلما قام الأعداء بحملة ليلية بدورهم اختلت صفوف رجاله الذين كان قد انهكهم التعب، ولكنهم ثبتوا مع ذلك في وجه العدو وقاتلوه بعد ان شطرت قوتهم الى شطرين وانفصلت قوة منها مؤلفة من نحو ثمانمئة رجل مع قائدها الذي قاتل بشجاعة حتى قتل

خسر غردون بعد هذه المعركة تسعمائة رجل وثمانين بندقية وكمية كبيرة من الذخيرة ففقد بذلك الشطر الاكبر من جيشه

سمع الدون زارو بهذه الكارثة فسأل غردون قائلا :

— لماذا لم ترسل سعادتكم الكولونيل ستيوارت لقيادة هذه الحملة بدلا من محمد علي باشا ؟ انهُ أوروبي وكان في وسعه ان يعيد الجيش الى حظيرته

— لم أرسله لأنهُ جريء اكثر مما يجب . ولو تولى زمام القيادة لكان أول من ألح على القيام بحملة ليلية . وقد تكبدنا خسارة في كل مرة خرج فيها الى القتال لأنه كان يطلب الى الجنود القيام بأعمال ليست في طاقتهم

— ولكن محمد علي باشا قام مع رجاله بالعجب العجاب

— إن محمد علي اشجع الشجعان وهو يعرف أطوار العرب والزنوج ويعلم هل ينفذون أوامره أو يعصونها، ولو لم يضلوا الطريق لأصابوا انتصاراً باهراً

— والآن علامَ عولت يا صاحب السعادة؟ لم يعد لدينا جيش يمكن ان نسميه جيشاً

فقال غردون

— لدي فكرة لا أستطيع ان اسرها اليك الآن لأن للحيطان آذاناً كما يقولون

عقد غردون مساء ذلك اليوم مجلساً من الاعيان ومن المستر بور القنصل الانكليزي والمسيو هربين القنصل الفرنسوي والكولونيل ستيوارت ومن كبار الموظفين الوطنيين ، فبعد ان اخبرهم بما أصاب محمد علي وانكسار جيشه قال

— اننا الآن في حاجة الى مساعدة الحكومة ، وعلى ذلك يجب ان يسافر الى القاهرة من يستطيع ان يفهم السلطات هنالك الحالة التي وصلنا اليها ، فمن منكم يريد السفر ؟

فقال عدد منهم معاً

— انك خير من يقوم بهذه المهمة ، فسيصغي بارنج الى قولك ويحمل الانكليز على ارسال المساعدة في الحال

فرفع غردون يده ثم قال

— لا استطيع ذلك . لا أقبل مغادرة هؤلاء المساكين ولو سمحوا لي بالسفر

ساد السكوت هنيهة الى ان قال القنصل الفرنسوي

— سأسافر أنا ، ليس لدى ما يحملني على البقاء هنا لأنه لم يعد أحد من الرعايا الفرنسويين في المدينة . أما رعايا الانكليز ففي وسعي ان اساعدهم في القاهرة ولا اكتم عنكم انه يسرني مغادرة الخرطوم

قبل غردون هذه الفكرة في البداية ولكنه عاد فحسب حساب ما هنالك من المنافسة بين انكلترا وفرنسا وان هذه المنافسة قد تمنع الانكليز من المبادرة الى ارسال الامدادات فقال :

— يجب ان يسافر ستيوارت . انه جندى وفي وسعه ان يشرح لهم الحالة الحربية هنا فيقدرون أقواله اكثر من غيره

فقال الكولونيل

— أرسل المستر بور فهو مراسل التيمس ، وسيصغون الى أقواله ، وفوق ذلك لستم في حاجة اليهِ مثلي

فاه الكولونيل ستيوارت بحقيقة لا مرية فيها ، لأن غردون كان في حاجة قاسية اليه للقيام باعمال البحث والتحرى ، ومع ذلك قال القائد

— كلا يجب أن يسافر ستيوارت . ومن الصواب أن يرافقه بور لانه يستطيع ان يؤثر بكتاباته في الرأي العام البريطاني وهو في القاهرة اكثر من وجوده هنا

والظاهر أن الكولونيل ستيوارت اظهر رغبة شديدة في عدم السفر ولكنه قبل في النهاية أن يقوم بالمهمة اذا كتب غردون اليه

كتاباً ينفي عنه ما قد يعزي اليه من انه تركه في وقت حرج كهذا ، فقال غردون

— انك لم تتخل عني ليس في . وسعي ان اسافر ، فأذا قمت بهذه المهمة لاجلي قدّمت الىّ خدمة جليلة

ثم كتب له مذكرة رسمية ولكن الكولونيل طلب ان يعطيه أمراً ، فقال غردون

— كلا . نعم لا اخشى تحمل التبعة ولكني لا اريد أن اضعك في خطر لا اشاطرك اياه .

ثم كتب له خطاباً آخر قال فيه

« ستبحر الباخرة « عباس » وقد قلت انك تقبل السفر فيها اذا كنت اعد عملك هذا عملا شريفاً ، ففي وسعك ان تسافر مكرماً لانك لا تستطيع ان تفعل شيئاً هنا . واذا سافرت فارسل رسالة برقية الى القاهرة بآرائي »

نظر غردون بعد ذلك الى الضابط وقال

— ستلاحظ عدد اليونانيين . انهم حرس جهزته لك لكي يحولوا دون وقوع اية خيانة من جانب البحارة . وقد امرتهم أن يلقوا مرسى الباخرة وسط النهر وان لا يأخذوا الوقود إلا من الاماكن المقفرة المنعزلة

الحّ غردون بعد ذلك على القنصل النمسوي ان يسافر معهم

ولـكن لما كان قد قضى اثنين وثلاثين عاماً في الخرطوم وله فيها مصالح عظيمة وسبع نسوة فقد رفض السفر

استقر الرأي على ان تسافر البعثة في اليوم العاشر من شهر سبتمبر على الباخرة « عباس » تخفرها باخرتان اخريان ومعها اربعة زوارق لحمل المسافرين اذا وقع حادث اثناء الطريق

وصلت الباخرة « عباس » بهم الى بربر ، وهناك غادرتاها الباخرتان الاخريان والزوارق على زعم ان الخطر قد زال . وفعلا عمل ستيوارت بنصيحة « الريس » الاعرابي وامر الزوارق بالعودة ثانية لـكي تستطيع الباخرة مواصلة السفر بهم بسرعة . وقد رأى « الريس » اذ ذاك ان ليس لديهم وسيلة للنجاة والافلات فشرع في تنفيذ مشروعه الذي استقر عليه رأيه من قبل

لاحظ ستيوارت عدد الوطنيين الذين اخذوا يحتشدون على شاطيء النهر . على انه لم يلبث ان شعر بالباخرة ترتطم بالشاطيء فصدق ما قاله الريس عن اضطراب السكان وخوفهم بعد سقوط بربر ، فنزل الى البر مع القنصل الفرنسوي والمستر بور ومعظم اليونانيين ليزيلوا مخاوف السكان ، قائلين انهم لم يأتوا لمحاربتهم وانما جاؤا لشراء إبل لاجتياز الصحراء الى مروى

تعهد الشيخ سليمان والشيخ ابو نعمان وعم الفقيه عثمان بنقلهم على ظهور الابل وقدموا اليهم مرشداً لقيادتهم . وقد ابتهج الذين كانوا

على ظهر الباخرة عند سماع هذه البشرى واهدوا شيخاً منهم سيفاً ذهبياً والاخر سيفاً فضياً وقدموا الى المرشد ثوباً فاخراً . فطلب المشايخ اليهم اذ ذاك ان يغادروا الباخرة وينزلوا في ضيافتهم حتى تتم الاستعدادات اللازمة لاجتياز الصحراء

لبي الركاب الدعوة ودخلوا منزلا حيث ذبحوا على بكرة ابيهم ، وبعد ذلك عاد المشايخ الى الباخرة وقتلوا معظم الذين تخلفوا على ظهرها فلم ينج من الموت غير اربعة عشر شخصاً من اربعين ، وهؤلاء وقعوا في الاسر

ذهب آخر امل لغردون بارتطام الباخرة «عباس» لانه كان من المستحيل عليه ، بدون وصول ستيوارت الى القاهرة وشرح الحالة في الخرطوم ، ان يقنع السلطات ذات الشأن بضرورة المبادرة الى ارسال النجدة

ثبت غردون في وجه العدو اكثر من اربعة شهور ، أي الى ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥

اما سبب التقصير في ارسال النجدة سريعاً فتأخر الانكليز الى اخر ساعة لـكي تستفيد الاحزاب الانجليزية وتكون لها رأس مال من حوادث عسكرية تافهة — وهكذا ضاعت الخرطوم حبا في اقتصاد كاذب ، واذعانا للرياء والمكر .

الفصل التاسع

﴿ غردون في الخرطوم ﴾

شعر غردون بألم اليأس والقنوط عندما سافر ستيوارت و بور وهر بين القنصل الفرنسوى على ظهر الباخرة عباس لينالوا حتفهم، لأن هانزل ، القنصل النمسوى ، بدأ يخشى علي سلامته ، ولأن نيقولا ليونتيدس القنصل اليونانى كان جباناً خمولا

لم يمض يوم واحد حتى علم غردون ان الرجل الأوروبى الوحيد الذى يستطيع الاعتماد عليه هو روزاريو لنتيني — الدون زارو — الذى جاء به من القاهرة ليكون متعهداً لتوزيع الاطعمة . أما زوجته فكانت لا تقل عنه أهمية ونشاطاً ، فقط لو كانت رجلا

كان غردون لا يكترث بما للنساء من التأثير ولا يعدهن إلا مخلوقات على الرجال حمايتهن من جهة ، وعليهن من جهة أخرى ان يقمن بحاجات الرجال ، ولذا فات القائد ان الدونا انوسنزا ، وهى لا تزال في العقد الرابع من عمرها ، من اجمل النساء في افريقيا ، ولكن ربما استمد القائد من عينيها الثابتتين شجاعة ومن ابتساماتها عزاء

وجدت الدونا انوسنزا مجالا واسعاً أمامها للعمل في الأيام

التي تلت سفر ستيوارت و بور . واذا كان زوجها قد وجد بينه و بين الحاكم العام شقة واسعة لا يستطيع اجتيازها والعمل معه ، فقد اجتازت الدونا انوسنزا هذه الشقة واقدمت على العمل

خرجت الدونا انوسنزا في صباح اليوم التالي لسفر الباخرة « عباس » لتتفقد خطوط الدفاع فرأت النسوة يغسلن الثياب على شاطىء النيل الازرق على مسافة بضع مئات من الامتار من المدينة ، لا يعرن دوي الرصاص فوق رؤوسهن اهتماماً أعظم من اهتمامهن بطنين البعوضة . ثم شاهدت الاطفال الصغار يلعبون حول امهاتهم و ينذرونهن اذا ما شاهدوا العدو ، وكانوا اذا رأوا رصاصة اطلقها جنود المهدي تدفن في الرمال هرعوا لاستخراجها دون ان يخشى واحد منهم ان يصاب بأذى

عادت الدونا انوسنزا بعد ذلك الى القصر وطلبت مقابلة غردون فاعتذر قرياقص بك كاتم اسراره قائلا ان القائد لا يقابل احداً من النساء في قصره ، وهي حقيقة مشهورة ، ولكنه يتلقى ما يردن عرضه عليه من الالتماسات في الخارج

فقالت الدونا انوسنزا

— أذهب واخبر القائد ان زوجة الدون زارو في الخارج

وكان كاتم السر يعرف ثقة القائد بالدون زارو فدخل ليخبر غردون ، واذ ذاك انتهزت الدونا الفرصة وخلعت نعلها — كعادة

الايطاليين الذين من طبقتها في تلك الايام — ثم انسلت خلفه بسكون دون أن يعترضها الحارس الزنجي لانه رأى السكرتير يتقدمها فزعم انه أمرها بالدخول

دهش غردون الى حد انه لزم الصمت وقال في نفسه ، ماذا تريد امرأة بيضاء من الدخول عليّ في مكتبي ؟ وكان غردون يعرف من هي ، ولكنه حار في معرفة السر الذي حملها على المجيء

رأى السكرتير بعد ذلك ان الدونا انوسنزا تتبعه فتحول نحوها واراد ان يطردها طرداً ، ولكن غردون لم يقره على معاملة النساء بمثل هذه الخشونة ولو انه كان لا يميل الى جنس المرأة ، فأشار الى قرياقص بك ان يذهب الى طرف الغرفة وان يبقى هناك . ثم تحول الى الدونا انوسنزا وقال

— لا بد ان يكون هناك سبب قوي حملك على القدوم الى هنا والا لما اقدمت على هذا العمل . تكلمي بالفرنسية لانه يجهلها

اخبرته الدونا انوسنزا بما جرى ، فغضب غردون ثم غادر الغرفة وخاطب الحارس حسن حسين بلهجة شديدة قائلا ان كل من يظن ان قرياقص بك هذا خان المدينة ، اعتبره عاصياً ابتداء من هذا اليوم

عاد غردون بعد ذلك وشكر الدونا انوسنزا . على انها لم تدرك ثناءه كله ، واستطردت في حديثها فاخبرت القائد كثيراً مما يقع في المدينة من الحوادث التي غابت عنه ، قائلة ان المخازن

التي كان يعتقد أنها ملأى بالحنطة خالية خاوية ، وان اللصوص تولوا حراسة المؤن ، وان المهدي يبث في المدينة جواسيس من النساء تؤيدهن الحكومة ، وان هؤلاء النسوة يخرجن من المدينة خفية تحت جنح الظلام ويفشين أسرار المدافعين لأزواجهن في جيش المهدي

أطلعت الدونا انوسنزا غردون على هذه الحقائق الهامة ثم قالت

— انك في حاجة الى امرأة لادارة شئون المدينة ، ونحن جواسيس بالفطرة ، ولذا في وسعنا ان نرى جميع الأمور التي تقع على مشهد منكم دون ان تميروها اهتماماً

فقال غردون بحزن

— لم يعد لدينا رجل يعتمد عليه تقريباً ، ولو كان زبير باشا هنا لما سقطت بربر على الارجح ولكان في وسعنا ان ننشىء حكومة تقاوم حكومة المهدي في السودان . لا أميل الى هؤلاء الفلاحين السود ولكن قلبي يذوب أسى عليهم

فقالت الدونا انوسنزا

— انهم يستطيعون افساد الحالة لا اصلاحها . ولعمري انهم ليسوا احسن حالا من السلطات البريطانية التي ارسلتك الى هنا ثم نفضت يدها منك

— ان كل ما نتلقاه منهم ، أسئلة قائمة على الحماقة والغباوة

— انى أعد عمل الانكليز هذا بمثابه خيانة لك

— ان الانسان بغريزته خائن ، وكل انسان كذاب

— ومع ذلك أعتقد أنهم لا يتعمدون خيانتك والتخلي عنك

— قلت ان الانسان خائن بغريزته، ولكنى اعتقد ان كل رجل يريد ان يكون أميناً ، ومصلحته هى التى تحول بينه و بين هذه الأمنية

— انهم على كل حال لم يرسلوك الى هنا

— نعم لا أجهل ذلك ، ولكن الانسان يشعر بأنه يكون وحشاً ضارياً اذا هو استحث الرجال على القتال ثم تركهم وولى هارباً

— يقول زوجي ، ياصاحب السعادة — الذى قابل في «بيت المال» كثيرين من السكان على اختلاف طبقاتهم — ان النهاية ستأتى غداً ، وان الرجال الذين لك بهم ثقة هم الذين سيتحملون المصائب اذا سقطت المدينة ، وهؤلاء هم الذين تحاول النجاة بهم الى القاهرة . أما الذين تريد ان تخلفهم وراءك فلا يمكن الثقة بهم لأن المهدي سيضمهم الى حكومته بعد سفرك ويتخذهم رعايا له

فكر غردون طويلا فيما سمعه ، ومن ذاك الوقت صار يفتح أذنيه لما تقوله الدونا انوسنزا ، ولكن لما كانت امرأة فأنها لم تنل من الحظوة والميل لدى غردون ما ناله زوجها الدون زارو .

الفصل العاشر

﴿ غردون والدون زارو ﴾

أخذ غردون يعتمد على الدون زارو منذ ذاك اليوم الذي وقعت فيه تلك الكارثة التي حلت بجيش محمد علي في الفونج . وقد شعر القائد في ذاك اليوم بقلق فارسل كشافاً لاستطلاع الانباء فعاد يحمل تلك الاخبار المشئومة . وكان لدى غردون جهاز تام من الاسلاك التلغرافية يمتد من القصر الى جميع الحصون ، فارسل تعليماته اليها لكي تكون على حذر واستعداد مخافة ان يحاول العدو التوسع في النصر الذي أصابه فيهاجم الخرطوم

وصل فرج الله باشا قبل غروب الشمس مع البواخر وفلول الجيش ، فارسل غردون الكولونيل ستيوارت (قبل سفره) ليتفقد الحصون ثم استدعى الدون زارو لمقابلة السكان معه . وكانوا في حالة يأس فأخذوا يبكون ، فلما رآهم غردون في مثل هذه الحالة المحزنة بكي أيضاً ، وهى المرة الوحيدة التى شوهد فيها القائد مستسلماً لعواطفه

على ان العدو لم يحاول دخول المدينة ، ولكن جاء مئة الف رجل منهم من كل حدب وصوب بقيادة النجومي وغيره من الامراء . وفي الواقع أخذت كل قرية واقعة حول المكان ترسل

وجاها ، لانهم كانوا واثقين ان الموت يكون نصيبهم جميعاً اذا لم يشتركوا في القتال ، وسرعان ما شرعت المدافع والبنادق والسهام النارية تلقي قذائفها على المدينة

استولى الرعب على قلب الدون زارو لأن غردون لم يشأ الاحتراس لنفسه والتوقي . وكان الرصاص يتساقط على المدينة كالمطر ليلا ونهاراً ، ومع ذلك كان غردون يجلس في غرفته ليلاً يكتب والى جانبه شمعدان جعله هدفاً لرصاص مئات من حملة البنادق

وكان أعيان المدينة يعرفون مكانة الدون زارو لدى القائد فتوسلوا اليه ان يطلب الى غردون ان لا يضيء غرفته ليلا لكي لا يكون هدفاً لرصاص الاعداء ، ولكن لم يكد يسمع القائد ذلك حتى احمرت عيناه الزرقاوان وسأل الدون زارو بحدة قائلاً

— من قال ان غردون جبان ؟

وكان الدون زارو يعرف حاجة القائد الي الاشتغال أثناء الليل فرأى ان خير وسيلة لاتقاء الخطر هي ان يضع اكياساً من الرمل في النوافذ . وفعلاً ذهب الى القصر حاملا عدداً من هذه الاكياس . فلما رآه غردون اشتد غضبه عن ذي قبل وأمر باعدام الدون زارو اذا هو تقدم الى الامام خطوة واحدة، ثم جاء بثريا كبيرة كالتي يسير بها المسلمون في المواكب ووضع بها اربعا وعشرين شمعة

وعلقها أمام النافذة ثم امر الدون زارو ان يجلس بجانبه أمام المنضدة والتفت اليه وقال

— وزّع الله الخوف على سكان الارض فلما جاء دوري كان الخوف قد نفد فلم يبق لي منه شيء . اذهب وقل لجميع سكان الخرطوم ان غردون لا يهاب شيئاً لأن الله خلقه بلا خوف

خرج الدون زارو من لدن القائد ولكنه لم يخبر السكان بما قاله غردون وانما ابلغهم ما هو اقرب الى اذهانهم ، فقال لهم ان غردون محجّب لا يمسه اذى

لما وصل المهدي بجيشه لامداد المحاصرين ، ارسل الى غردون حلة من الثياب ، وهي البذلة الرسمية لرجاله ، مع كتاب يدعوه فيه الى تسليم مدينة الخرطوم . وكان الدون زارو مع غردون لما تلقى الكتاب ، فرأى الثياب المرسلة الى القائد وهي عبارة عن جبّة من الدمور وقلنسوة من القش ونعل ، فألقاها غردون على الارض ورفسها بقدمه بازدراء وأمر قرياقس بك ان يرسل الي المهدي كتاباً يقول فيه انه لن يقبل خطابات أخرى منه

رافق ضابط واربعون جنديا رسول المهدي الى ما وراء الخطوط فكان ذلك بمثابة اشارة لاطلاق وابل جديد من الرصاص ، فأخذت

المدافع في « حلة ابو حمد » الواقعة وراء النيل الازرق ترسل قذائفها على القصر والقلعة والمدينة

والظاهر ان القتال انعش نفس غردون وارسل في قلبه الحمية فكان كلما وجد من وقته فراغاً صعد الى سطح قصره حيث نصب مدفعاً فيطلقه على معسكر الاعداء، أو يركب زورقاً و يبث الالغام في النهر بنفسه

وكان غردون أمر رجاله ببيع كميات كبيرة من الحنطة كل يوم للسكان باوراق مالية ، فانخلع قلب الدون زارو لعمل القائد هذا واحتج قائلاً

— هنالك أسباب ثلاثة تدعو الى العدول عن عملك هــذا ياصاحب السعادة : الاول ان رجال الحامية قد يشتد بهم الجوع الى حد التسليم . ثانياً ان الاوراق المالية لا قيمة لها . ثالثاً ان نصف الذين يشترون الحنطة من انصار المهدي أو من جواسيسه

فقال غردون

— سيرزقهم الله رزقهم . ان هؤلاء المساكين في حاجة الى الطعام فيجب ان يحصلوا على ما هم في حاجة اليه

أخيراً شحت المؤن لدى غردون فارسل الدون زارو الى المدينة ليبحث عن الحبوب المخبأة وأمره ان يعطي بها ايصالا ثم ينقلها الى « بيت المال » لتموين المدينة ، فقام الصقلي بهذه المهمة خير قيام

اذا كانت الخرطوم قد احست بضائقة شديدة من حيث المؤن

والحبوب، فقد احست حامية أم درمان بضيق أشد سواء لقلة المؤن أو الذخيرة . وقد أرسل قائد الحصن تلغرافاً الى غردون قال فيه انه ان لم يتلق المؤونة اللازمة لرجاله اضطر الى التسليم، فألقى غردون بكل قواته على جنود المهدي الذين كانوا يحاصرون القلعة الصغيرة مرتين : ارسل في الاولى منهما جيشاً وثلاث بواخر حربية ، فقاتل الجميع طول النهار وكبدوا العصاة خسارة فادحة ولـكن قوة الاعداء الرئيسة لم تتزعزع واغرقوا باخرة من بواخر غردون واقاموا دائماً سداً من رجالهم بين جيشه و بين الحصن ، فلم تستطع الحامية ان تشق لنفسها طريقاً وتلتحق بقوات غردون

وفي اليوم الرابع والخمسين لحصار المدينة ، ارسل قائد الحامية اشارة قال فيها انه لا يستطيع الثبات اكثر من يوم واحد ، فعرض محمد ابراهيم الجريء على غردون ان يأخــذ باخرتين مشحونتين مؤونة وذخيرة ويشق بهما لنفسه طريقاً الى الحصن ، ولـكن علم أحد رجال المهدي من زوجته ، وكانت تشتغل الجاسوسية ، بأمر هاتين الباخرتين ، فلما وصلتا الى الضفة الغربية للنيل الابيض وجد محمد ابراهيم ان جيش المهدي كله قد احتشد لقاء السفينتين وعلى ذلك لم يستطع الوصول الى الحصن فاضطرت الحامية الى التسليم بعد ان تعهد المهدي لرجالها بسلامة ارواحهم واملاكهم

تحولت مسألة الطعام الى مشكلة خطيرة بسبب ما أظهره غردون

من السخاء والكرم ، فاضطر الدون زارو الى البحث مرة اخرى في المدينة عن المؤن بمساعدة ضابطين واربعين جندياً فاكتشف كميات كبيرة أخرى لم يعثر عليها في أول مرة ونقلها الى بيت المال . وهكذا لم يصغ غردون الى صوت الحكمة والتعقل إلا بعد ان ادرك ان المدينة لا تستطيع الثبات حتى تأتيه النجدة

استطاع الدون زارو الآن ان يفعل ما يشاء للقيام بأعظم مهمة جاء لاجلها الى الخرطوم وهي توزيع الحبوب توزيعاً منظماً على السكان . على ان مجهوداته ذهبت كلها عبثاً فقد نفدت الحبوب واضطر السكان الى اكل لحم الكلاب وجلود الحيوانات والصمغ والياف النخيل ، واذا ساعدهم الحظ اكلوا لحم الحمير وسلقوا عظامها

ثبت الجنود في مراكزهم بالرغم من هذه المجاعة المريعة . واخذ الاهالي يسقطون في الطريق جوعاً حتى تكدست جثثهم في الشوارع ، وبلغ الاعياء والضنك بالناس حداً اقعدهم عن دفن موتاهم . وعبثاً حاول غردون ان يحملهم على هذا العمل سواء بوسائل العنف أو اللين . واخيراً اخذ الجنود يفرون الى العدو خوفاً من الموت جوعاً ومنهم بعض الضباط والاعيان ، فاقترح الدون زارو عدة مشروعات لمنع الناس من الهرب ولكن غردون رفضها كلها قائلا

— لكل انسان حق الحياة

فقال الدون زارو

— ولكن الا تعلم ياصاحب السعادة انهم سيطلعون العدو على حقيقة أمرنا ؟

— انهم لا يخبرونه بشيء جديد يجهله ، فقد هيأت له جيشاً كبيراً من الجواسيس في المدينة

وفي اليوم التالي ذهب غردون الى الدون زارو وقال له

— هيىء احدى البواخر وبعض الزوارق وضعها تحت تصرف السكان الذين يريدون الالتجاء الى العدو ، لأن هذه هي ارخص وسيلة لاطعامهم

غادر الوف من السكان المدينة بهذه الوسيلة ، خصوصاً الذين كان يجب ترحيلهم قبل ذلك بشهور لعدم صلاحيتهم للقيام بأي عمل ولأنهم كانوا ممن يؤمنون سراً ببعثة المهدي

اضطرب سكان الخرطوم في ٢٠ يناير سنة ١٨٨٥ اضطراباً عظيماً عند ما سمعوا مدافع المهدي تطلق مائة مدفع ومدفع ، فقد كانت هذه عادته اذا ما اصاب فوزاً عظيماً وقالوا ان عمله هذا معناه أن جنوده انتصرت على القوات التي ارسلت لانقاذ المدينة . ولكن صعد غردون الى سطح قصره وصوب منظاره نحو معسكر العدو فرأى النسوة يبكين ويندبن ، فعلم ان المهدي انما التجأ الى هذه الحيلة لكي يخفي ما في معسكره من الضيق والمصائب

صدق غردون فيما ذهب اليه ، فقد جاءت امرأة من قبيلة «شجيه» تعودت ان تجتاز الخطوط كل ليلة من أم درمان الى الخرطوم تحمل أنباء العدو ، فقالت ان جيشاً من الجنود المصرية الانكليزية زحف على « ابو كليا » فهاجمه جيش قوي من انصار المهدي ، ولكن ارتد هؤلاء على اعقابهم مخذولين بعد ان خسروا ألوفاً من رجالهم ، وهذا هو السبب في بكاء النساء وعويلهن

اذا استطاع هذا الجيش الآن ان يواصل الزحف فانه لا تمضي ثلاثة أيام أو اربعة حتى تسمع طبوله وهي تدق على ابواب المدينة فيتأهب المهدي للرحيل بقواته الي صحاري كردوفان متى وقعت عيناه على بريق الحراب المصرية الانكليزية

ارسل غردون في الحال فطلب اعيان المدينة وقال لهم

— ان الجنود قادمون كما قلت لكم غير مرة . وقد هزموا جيش المهدي في معركة كبيرة في « ابو كليا » وسيصلون الى هنا بعد ثلاثة أيام أو اربعة على الاكثر

ابتهج الرجال عند سماع هذا النبأ . وكانوا يصدقون ماوعدهم به غردون ولكنهم كانوا يعتقدون ان وعده هذا لا يتحقق الا في المستقبل الغامض ، ولكن ها قد اقترب الجيش الذي أتى لنجدتهم واصاب فوزاً عظيما

ولكي يرسخ غردون هذا الاعتقاد في قلوبهم ، عقد مجلساً

حضره فرج الله باشا وابراهيم فوزي باشا من القواد المصريين وليونتيدس القنصل اليوناني وبعض الاعيان والدون زارو . ولم يحضر غردون هـذا الاجتماع بنفسه ولكنه ارسل قرياقس بك يحمل تعليمات بما يجب عليهم عمله متى وصل قائد الجيش . فأوصاهم ان يرتدي الضباط منهم بذلاتهم الرسمية وان يصروا على بقاء غردون في الخرطوم اذا دعاه القائد الى مرافقته ، وان يخبروا السكان ان لا شيء يبعد غردون عن المدينة لأنه صمم على ان يبقى الى جانب جنوده حتى يموت معهم . وكان ذلك في ٢٠ يناير ، فلما انقضى اليوم الحادي والعشرون ظن السكان ان الجيش هزم

كان السكان لا يريدون شيئاً اكثر من ان يصل اليهم جندي واحد أو رسول يخبرهم ان بقية الجيش في طريقها الى الخرطوم ، لأن الجميع كانوا لا يجهلون كيف انتقم المهدي من الاسرى بعد سقوط الابيض ولذا صمموا على القتال حتى الموت

جاء اليوم الثالث والعشرون ومع ذلك لم تصل باخرة واحدة تحمل اليهم رسولا ، فاستولى اليأس على قلوب الجميع الى ان ذاعت في المدينة اشاعة فحواها ان جاسوساً وصل اليها يحمل خطابات ، وان محمد افندي بدوي تلقى كتاباً من مصطفى باشا ياور من دنقله يشتمل على مبلغ من النقود ، وان تاجراً وجد قصاصة من أحدى الجرائد ملقاة على جانب الطريق جاء فيها ان الجيش القادم يبلغ خمسة عشر

الف جندي ، وكان الدون زارو هو الرجل الوحيد الذي عرف ان غردون هو الذي دبّر هذه الحيلة ، فأمر بكتابة الخطاب الى محمد افندي بدوي ووضع معه مبلغاً من المال ، وانه هو الذي أمر بطبع قصاصة الجريدة في الخرطوم

اخيراً امر غردون بنقل الذخيرة من الترسانة والمخازن الى كنيسة الكاثوليك،وهي بناء قوي من الحجر في جوار القصر،وذلك عملا بمشورة الدون زارو الذي رأى ان الذخيرة فيها تكون في مأمن من نيران العدو . وفوق ذلك امر غردون بتوصيل تيار كهربائي اليها من القصر لنسفها اذا خشي عليها من الوقوع في ايدي العدو

رفض غردون ان يبني سورا حول القصر لتحويله الى شبه قلعة بعد سقوط المدينة بحجة ان مثل هذا العمل من شأنه ان يثبط شجاعة السكان اذا رأوا انه في مأمن من الخطر اكثر منهم . على انه سمح باعداد باخرة صغيرة لنقله ونقل النزلاء الاوربيين بعد سقوط المدينة . وقد وعد ان يرافقهم بنفسه لانهم رفضوا الذهاب بدونه . غير انه اخبر الدون زارو سراً انه لا ينوي التخلي عن السكان . وفعلا شرع جميع الاوربيين يتأهبون للرحيل على ظهر الباخرة عند أول اشارة ،وتلقى المهندس اليوناني الأوامر بان يكون على استعداد للسفر بالباخرة في اية لحظة . على انه لما هاجم الاعداء المدينة كان السلك الكهربائي الذي امر غردون بمده لنسف الذخيرة لم يتم بعد

في حين استولى الرعب على قلب المهندس اليوناني فضاع صوابه واختبأ في منزله في ساعة كان يجب عليه فيها ان ينجو بنفسه وبمن معه

ولما كان الجيش لم يأت بعد لنجدتهم فقد التجأ غردون الى حيلة اخرى لتشجيع السكان ، فقال لهم ان كل يوم يمضي قبل وصول النجدات اليهم يعد بمثابة عام قضوه في الخدمة ينالون عليه أجرهم . على انهم كانوا في حالة سيئة من اليأس بالرغم من انهم كانوا يعلمون ان النجدات وصلت الى « ابوكليا » وانها انتصرت انتصاراً باهراً هناك

نعم كان الجميع يريدون القتال الى النهاية ويعلمون مصيرهم اذا سقطت المدينة في أيدي الدراويش ولكنهم كانوا يقاتلون عدوين آخرين شديدي البأس والمراس وهما : الجوع واليأس



الفصل الحادي عشر

— قتل غردون —

لم تغمض للدون زارو عين ليلة اليوم الخامس والعشرين من شهر يناير ،فقد ابلغته امرأته التى اشتغلت بالتجسس ، ان الامدادات على مسيرة يومين في النهر من الخرطوم ، وان احد الامراء الحّ على المهدي ان يهاجم المدينة قبل وصول النجدة مخالفاً رأي الامراء الاخرين

لم يستطع الدون زارو النوم تلك الليلة . نعم كانت الاصوات لا تختلف عن الاصوات التي كان يسمعها كل ليلة ، ولكن الجو كان مملوءاً بحوادث جسام ، فغادر الصقلي فراشه ثم ارتدى ثيابه وذهب الى النقطة الضعيفة في خط القتال فوجد الحراس هناك من الجنود والاهالي يقومون بمهمتهم خير قيام بالرغم مما اصابهم من الضعف والهزال بسبب الجوع بحيث رقد الكثيرون منهم في مخافرهم لعجزهم عن الوقوف

نظر الدون زارو الى الظلمة ومدّ بصره الى البقعة الصحراوية الواقعة بين النيل الابيض والنيل الازرق فلم يستطع رؤية شيء ولكنه سمع صوتاً ليناً على الرمال ، علم فيما بعد انه وقع الوف من الاقدام العارية التي جاءت تزحف على المدينة

صرخ الدون زارو في الحراس قائلا

— هيا تأهبوا . ان الدراويش قادمون

فكان جوابهم ان قالوا

— انهم دائماً قادمون

اطلق الحراس بضع رصاصات ثم عادوا الى فرقدوا ثانية ليريحوا اجسامهم الضعيفة ، ولكن الدون زارو صاح فيهم مرة اخرى قائلا

— ليسوا نفراً من الرماة . انهم الوف !

فقال أحد السكان

— سيقينا الله من السماء . لا تخف

فصرخ الدون زارو في وجههم غضباً ثم هرع الى حسن حسين، وكان على مسافة ميل ،لكي يستخدم نفوذه ويستحث الرجال على القتال ، ولكن الرجل اظهر جموداً غريباً وقال

— اذا كان العدو سيحمل علينا بجموعه فاننا لا نستطيع صدّه في الاماكن التي ليس فيها اسوار. واذا اراد الله اغرقهم في الطين الذي تركته مياه النيل بعد الفيضان ، فاذا لم يحدث ذلك فليس في وسعنا صدّهم الا في الحصون

ارغى الدون زارو وازبد ثم عاد مسرعاً الى القصر بقدر ما سمحت له رجلاه المقوستان . ولما وصل الى منتصف الطريق

تحققت مخاوفه اذ سمع صوت اطلاق البنادق وصراخا مرتفعـًا من حناجر الوف من المتوحشين

كان الدون زارو اعزل ، ومع ذلك عاد لـكي يشجع الرجال ويستحثهم على الدفاع والثبات . وقد اظهر المدافعون شجاعة تذكر ولـكن ماذا تنفعهم اذرعتهم الضعيفة في وجه هجوم وحوش كان كل منهم يحمل «عنجريبه» ليضعه جسرا يجتاز عليه حفرة الطين

رأى الدون زارو عندما اقترب من خطوط الدفاع ان العدو تغلب على الجنود ، وان نصف الدراويش قد التفوا الى الجهة اليمنى وداروا حول الخطوط الدفاعية في حين انتشرت القوات الأخرى على شكل مروحة . وقد قاتل الجنود الزنوج قتال الابطال وباعوا ارواحهم غالية ما استطاعوا ، ولم يكفوا عن الـكفاح والنضال حتى نفدت ذخيرتهم وداهمتهم الجنود من حملة الرماح

لم ينتظر الدون زارو حتى يرى النهاية ، ففر الى البستان الجميل القائم على شاطيء النيل الازرق وهو يسمع صياح الرجال وهم يقولون : « الى السراية » الى « الـكنيسة » فعلم انهم يريدون مهاجمة القصر وكنيسة الروم الـكاثوليك للبحث عن الذخيرة والمؤن وعلى أمل العثور على غردون

وكان الدون زارو حفر في البستان سردابًا خفيًا يؤدى الى النهر وحفر فيه كهفًا يسع ثلاثة أو اربعة اشخاص نائمين أو جالسين

القرفصاء . فلم يتردد لحظة والقى على ما حوله نظرة سريعة ، ادرك منها ان الدراويش لا يأتون بطريق النيل الازرق ، لان هناك باخرة مسلحة تجاه القصر ، وعلى ذلك ذهب وايقظ اسرته ودخل الجميع الـكهف من المدخل المتصل بالنهر ، مخافة ان يقتفي احد اثرهم ، وهناك اختفوا بعد ان اخذوا معهم مؤنة اسبوع من الماء والطعام

وكان الدراويش في خلال ذلك قد شرعوا في مهاجمة القصر والـكنيسة . وكان القصر مخفوراً بالحراس ، نعم كان من المحتمل ان يسقط الوف من الاعداء عند مهاجمته ولـكن كان هناك عشرات الالوف منهم لا يحجمون عن اهراق دمائهم معتقدين ان سلالم قصر غردون تصعد بهم الى الجنة مباشرة

صعد غردون عند الفجر الى سطح قصره واخذ يطلق مدفعه على الـكتائب الزاحفة على القصر ، ولـكنها كانت الآن قد اقتربت بحيث لم يعد في وسعه ان يصوب مدفعه الى هدفه باحكام

نزل غردون بعد ذلك الى غرفته وبدّل ثيابه برباطة جأش مثل عامل فرغ من عمله اليومي ، فارتدى بذلة بيضاء وحمل مسدسه في يمينه وسيفه المغمد في يساره ، ثم خرج الى الدهليز المؤدي الى مكتبه ووقف عند رأس السلم مباشرة

وكان العرب في خلال ذلك قد احتشدوا حول القصر ولكن لم يجرأ واحد منهم على الدخول مخافة الالغام

اخيراً دخل اربعة رجال وهم طه شاهين من دنقله ، وابراهيم ابو شنب خادم رجل يوناني ، ومحمد ود احمد جار النبي حساني ، وفتح الله جهامي من دنقله ، وكلهم من انصار المهدي

أبدى الحراس والخدم والقواصة بسالة عظيمة ودافعوا ما استطاعوا الى ان داهمهم حملة الرماح وقتلوهم على بكرة أبيهم . وكان بين الدراويش من يعرفون القصر جيداً لانهم صعدوا الى غرفة غردون مباشرة فقابلهم عند مدخل الباب وهو واقف هادىء رابط الجأش ، ويده اليسرى على مقبض سيفه

لم يستخدم غردون مسدسه ، ولو فعل لاستطاع ان يقتل طه شاهين الذي كان يسير في طليعة الهاجمين . والظاهر ان روح التعصب التي تملكت الرجل جملته لا يكترث بشيء فاندفع الى الامام وهو يصيح قائلا

« اليوم يومك يا ملعون »

ثم طعنه بحربة طويلة عريضة السنان . فبدت على ثغر غردون علامة الامتهان ولكنه لم يلبث ان اصيب بطعنة اخرى ألقته على الارض صريعاً

جاء الرجال الثلاثة بعد ذلك والتفوا حول القائد العظيم وهو في النزع الاخير الى ان فاضت روحه عند شروق الشمس تماماً

ولما شفوا منه غليلهم جروا رأسه ليرسلوه الى المهدي بأم درمان في حين جاء الباقون الذين لم يشتركوا في قتله ثم جروا جثته فوق السلم الى الحديقة حيث اخذ يطعنها كل اعرابي استطاع الوصول اليه



الفصل الثاني عشر

في الحديقة

نجا الدون زارو واسرته من الهلاك بفضل الكهف الذي حفره في حديقته . فقد تدفق العرب الى المدينة وهم ثملون بخمرة النصر ولم يشفقوا على احد من البيض . وكان الجواسيس يسيرون في طليعة الدراويش وهم يصيحون حاملين حرابهم المخضبة بالدماء ويرشدونهم الى منازل البيض، فقطعوا ذراعي نيقولا ليونتيدس القنصل اليوناني وشوهوا اعضاءه قبل قتله . وأطاروا رأس هنزل القنصل النمسوي بمجرد رؤيته ، وسقط آسر القنصل الاميركي ميتا عند ما رأى الدراويش يجزون رأس اخيه على مشهد منه

قتل الدراويش كثيرين آخرين من البيض وفتكوا بهم فتكا ذريعاً وعثر النجومي على امرأة يونانية حسناء فاتخذها زوجة له . وحاولت اسرة يونانية الفرار من المدينة ولكن التقت بهم فصيلة من العرب بقيادة احمد شرفي عم المهدي فقتلهم عدا رجلا منهم يدعى جورج كليمانثينو كان على اتصال بالمهدي . وقد عذّب الدراويش كثيراً من النساء والاطفال لكي يرشدوهم الى الاماكن التي اخفى فيها اقاربهم نقودهم

شدّ الدراويش وثاق ابراهيم فوزي باشا صديق غردون وربطوه بضعة ايام الى احدى اشجار النخيل وظلوا يجلدونه كل يوم حتى أعطاهم كل ما كان لديه من النقود . ثم جلدوا سيدة شركسية ،هي أرملة مصطفى تيرانس ، وكانت طاعنة في السن ، حتى اشرفت على الهلاك لأنها امدت غردون بالمال . كما عذبوا العبيد لكي يرشدوهم الى الاماكن التي أخفى اسيادهم فيها نقودهم ، وقتلوا كل من عثروا به من قبيلة «الشيجتة» لانهم بقوا على ولائهم للحكومة . وكذا لم ينج فرج الله باشا من شرهم ، فقد رموه بالخيانة ، و قتله داود سليمان امين بيت المال لدى المهدي

ساق الدراويش النساء العجائز اللاتي لا يصلحن للزواج الى معسكر النجومي حيث عانين ما عانين من آلام الجوع والعطش والحر والبرد ، وتركوا اطفالا في سن الرضاعة وشأنهم حتى قضي عليهم جوعاً. وأصيب نساء كثيرات بالاجهاض في الشوارع قبل انتهاء ايام حملهن من هول ما أصابهن من الخوف والهلع . اما الفتيات الشابات والنساء الصالحات للزواج ،خصوصاً المليحات منهن ،فقد تحملن اثقل عبء لأنهن أخذن للسبي . فساقهن الدراويش مكبلات بالحديد الى بيت المال لكي يختار المهدي والخلفاء الثلاثة والامراء والانصار منهن ما يريدون .فوضعن في بيت المال كقطيع من الغنم وقد خضبت ثياب

بعضهم بدماء اطفالهن ، ثم قسمن الى ثلاث طبقات : — الشابات الجميلات وقد حفظن لعظماء الدراويش والسودانيات المليحات، ثم غيرهن ممن يصلحن للزواج . وكانت المدينة ملأى بالجواسيس فذهبت المساعي التي بذلتها النساء لاخفاء شخصيتهن عبثا ، فقد قصصن شعرهن وخضبن وجوههن ، ولكن لم ينفعهن كل ذلك شيئا ، وسيقت كل امرأة حسناء في الخرطوم الى بيت المال

وكان الدون زارو وزوجته وابنته في خلال ذلك مختبئين في الكهف الذي حفره في الحديقة حتى كادت تزهق ارواحهم لقلة الهواء . وكان الدون زارو قد غطى كل فتحة في الممر السري عدا المدخل المؤدي الى النهر . على أنه كانت هناك شجرة تدلت اغصانها على هذه الفتحة ايضا حتى سدت جانبا منها فلم يتسرب اليها شيء من الهواء تقريباً .

تحمل الدون زارو واسرته آلاما قاسية من جراء حرارة الشمس واندفع الدم الى وجوههم حتى كادوا يختنقون . وكانوا اذا ما أرخى الليل سدوله يزحفون الى الفتحة وهناك يستنشقون الهواء من الخارج بدورهم ولكنهم كانوا لا يجرأون على القيام بهذا العمل اثناء النهار مخافة أن يراهم أحد ممن يبحثون وينقبون على الشاطيء . وكان لديهم الماء ولكن حرارة المكان والهواء الفاسد أفسدا طعامهم ، وهو من الخبز الجاف

مكث الدون زارو وزوجته وابنته على هذه الحال المريعة يومين كاملين بين احياء وأموات . الى أن زحف الصقلي من الممر وسار خفية بين الشجيرات النامية على شاطيء النهر وأخذ يترقب عله يرى احداً يعرفه . على انه لم ير أحداً حتى وصل الى حديقة « الموسلاين » لأن جميع الاعراب كانوا في جهة اخرى من المدينة يقتسمون الغنائم والاسلاب . وكان المهدي قد جاء الى المدينة ومنع المذابح التي كانت جارية فيها

رأى الدون زارو وهو في الحديقة رجلا ايطاليا يدعى دومنيكو بوليناري، فانتظر فرصة ملائمة لكي يستطيع الرجل رؤيته فزحف بخفة الى منزل خارجي حيث وجد بعض الحشائش الجافة فاختفى فيها الى ان استطاع الرجل أن يلحق به

وقف الدون زارو من بوليناري على الفظائع التي ارتكبها الدراويش ثم سأله عن خير الوسائل التي تضمن سلامة زوجته وابنته . على ان بوليناري لم يستطع أن يدلي اليه برأي ما فاضطر الدون زارو أن يعود الى مخبئه

غير انه حدث لسوء الحظ أن وقع عليه نظر ضابط يدعى فريد كان الدون زارو شكاه مرة الى غردون واتهمه بسرقة طعام الجنود فأراد هـذا الضابط أن ينتقم لنفسه من غريمه وينال حظوة لدى المهدي ، فنفخ في صفارته نفخة طويلة، فهرع اليه بضعة رجال من

« البجارة » من حملة الحراب ، فأشار الى غريمه وأمرهم ان يقبضوا عليه ولا يقتلوه . وعلى ذلك لم تمض مدة وجيزة حتي كان الدون زارو يسير مشدود الوثاق بين صفين من حملة الحراب ، الى يعقوب شقيق الخليفة عبد الله التعايشي ، فلما وصلوا اليه قال الضابط فريد

— هذا الرجل هو امين بيت المال الذي كان في خدمة غردون ففي وسعه ان يخبرك اين أخفى جميع الذخيرة والمال ، وله زوجة وأبنة مليحتان تصلحان لك

فابتهج قلب يعقوب عند سماع هذه الانباء وأمر بجر الاسير الى اخيه عبد الله ورافقه ممتطيًا صهوة جواده

وكان الخليفة عبد الله يعتقد ان غردون دفن في القصر والكنيسة كميات عظيمة من الريالات الفضية ومقداراً كبيراً من البارود ، ولكنه لم يجد أحداً الى الآن يعذبه حتى يرشده الى مكانها ، فلما رأي الدون زارو امامه أسيراً قال في نفسه ان هذه مكرمة من السماء

قال الخليفة عبد الله مخاطبا الدون زارو

— سلاما لك . كنت امين بيت المال لدى غردون باشا، فاذا اخبرتنا اين اخفى أمواله ومخزن البارود والرصاص أصابك الخير على ، ايدينا والا اضطررنا الى استعمال الوسائل اللازمة لاطلاق لسانك من عقاله

فأجابه الدون زارو قائلا

— لقد استولى جنودكم ياصاحب السعادة على جميع مخازن الأسلحة ، ولم يكن لدى غردون مال لأنه انفقه قبل سقوط المدينة بمدة طويلة ، وانما كانت لدينا أوراق مالية

فقال عبد الله

— اجلدوه مائة جلدة لنرى هل يساعده ذلك على التفكير

حل حراس الخليفة وثاق الدون زارو ثم مزقوا ثيابه وكشفوا عن ظهره وطرحوه ارضا ثم قبض رجل على ذراعيه وآخر على قدميه في حين تقدم ثالث وجلده بسوط مريع مصنوع من جلد فرس البحر سال الدم من جلد الدون زارو بعد أول جلدة ، ثم تحول ظهره الى كتلة من اللحم الدامي قبل ان يتم جَلدهُ خمسين جلدة ومع ذلك ظل يقول

— لا أستطيع الكلام بغير ماقلته لكم لأنني اخبرتكم بالحقيقة

ثم أغمى عليه ، فرفع الخليفة يده وقال

— انه لايعرف اين توجد الاموال والذخيرة . كفى ، لاتجلدوه لئلا يموت وقد نحتاج اليه فيما بعد

فتركه الرجال الذين كانوا يمسكونه ولكنه لم يتحرك ، فقال الخليفة عبد الله

— ضعوا جزءاً من الملح على جراحه واحملوه

وكان الضابط فريد واقفا ينظر بعين التشفي الى ما أصاب غريمه ، فلما انتهى الرجال من عمليتهم قال مخاطبا الخليفة عبد الله

— اذا كان هذا الرجل لم يستطع أن يخبرك اين اخفى غردون المال ففي وسعه على الأقل أن يخبرك اين اخفى زوجته وابنته المليحتين اللتين ستبتهج نفسك ياسيدي برؤيتهما في منزلك

فتحول الخليفة نحو الدون زارو وكان قد افاق من اغمائه وسأله قائلا

— أين هما ؟

لم يحر الدون زارو جوابا ، فكرر الخليفة سؤاله قائلا

— قل أين ابنتك وزوجتك ؟

فلزم الرجل الصمت ثانية ، فقال الخليفة

— اجلدوه بقية الماية جلدة

القاه الحراس على الارض ثانية وقبضوا على يديه وقدميه ولو انه لم تكن ثمة حاجة الى ذلك تقريبا لأن الرجل كان عاجزاً عن التحرك أو المقاومة ، ثم اخذ السوط يهوي على ظهره بسرعة مدهشة

بكى الدون زارو وتأوه ومع ذلك لم يفه بكلمة واحدة عن المكان الذي تختفي فيه امرأته وابنته

لما فرغ الجلادان من الماية جلدة تحولا الى الخليفة ليتلقيا أوامره الجديدة . وكان قد استقر رأيه على أن يأمر بجلده مائة جلدة

اخرى ، مصمما على أن لايحول شيء ، الا وفاة الرجل ، دون أن يحظى بالمرأتين الجميلتين . اللهم الا اذا أراد المهدي أن يتخذهما من نسائه

ولكن الضابط فريد طلب الى الخليفة بخضوع أن يسر اليه بضع كلمات ، فلما هز الخليفة رأسه علامة القبول قال الضابط

— اذا جلد الرجل مرة أخرى فلا تستطيعون الاهتداء الى المرأتين

ثم أشار الى كلب الدون زارو — وكان قد عرف صاحبه وهم يسيرون به وتبعه الى المكان الذي جروه اليه — وقال

— سيلعق الكلب جروح صاحبه اذا تركتموه، ثم يجده بعد ذلك في أي مكان في الخرطوم

بدت على وجه الخليفة صورة مروعة عند ما أدرك الحيلة وعرف أن في وسعهم أن يستخدموا الكلب في الاهتداء الى صاحبه وعلى ذلك همس في أذن الضابط قائلا

— نعم اربطوا الكلب

ثم تحول نحو الحراس وقال لهم اطلقوا سراح الرجل

قام المسكين يتعثر وهو لا يصدق ما سمعته أذناه عندما أمر الخليفة بأعلى صوته بأن لا يتبعه أحد

سار الدون زارو في طريقه فوصل بشق النفس الى دار المرسلين وهناك توسل الى بوليناري الايطالي ان يعطيه جرعة من الماء وشيئاً

من العقاقير الملطفة ليداوي بها جراحه ، وهـو يقول في نفسه ان قدومه الى هذا المكان لا يدل على المكان الذي اختبأت فيه زوجته وابنته ، ولكن استقر رأيه على ان يعود اليهما اذا لم يجد أحداً يقتفي أثره

جاء بوليناري بالعقاقير اللازمة فلما استراح الدون زارو قليلا وهمّ بالقيام استوقفه الرجل قائلا

— انتظر . انتظر أيها الدون زارو . لقد عثرت على هذا الثوب عند ما كنت ابحث عن العقاقير ، وقد وجدته ملقى على الارض بين الاشياء التي لم ترق في عين الدراويش وهم يسلبون المكان

وكان الثوب قذراً معفراً فلم يستطع الدون زارو ان يعرف كنهه فقال

— ما هذا ؟

— هـذا برنس راهبة . فاذا ارتدته زوجتك لا يجرأ الدراويش على قتلها

فأذرف الدون زارو دموع الامتنان والشكر ثم جثا على ركبتيه وقبل قدمي الرجل قائلا

— الف ، الف شكر ياسيدي . سيكون هـذا الثوب الوسيلة المأمونة لخلاصها . ولكن أليس لديك ثوب آخر لابنتي ؟

— ليس لدي غير هـذا . ولم يكن بالمخزن غيره قبل قدوم الدراويش كما اذكر ذلك جيداً

— أليس لديك حبل رفيع احزم به البرنس واجره خلفي ؟ لا استطيع أن احمل شيئاً اثناء زحفي ولو كانت لدي القدرة على ذلك

فقال بوليناري

— في البرنس نفسه حبل يلتف حول الوسط

ثم صنع له منه حزمة على قدر الامكان

نظر الدون زارو فيما حوله بحرص وحذر ، ولما لم ير أحداً شرع في الزحف خفية الى مخبئه

جاء رسل الخليفة عبد الله بعد ساعتين الى دار المرسلين فمكث أحدهم في الخارج ومعه الكلب الذي ارشدهم الى المكان من طريق طويل ، ودخل الباقون وطلبوا الى بوليناري بلهجة قاسية أن يدلهم على المكان الذي يختفي فيه الدون زارو ، فقال الرجل

— لا يختفي وايم الحق في أي مكان هنا

فقال قائد الحراس

— لقد شوهد في هذا المكان منذ ساعتين فدلنا في الحال اين هو والا جلدناك حتى نخمد انفاسك

اخذ بوليناري يبكي بكاء مراً . ولا عجب فقد ذاق عذاب الجلد على ايديهم من قبل . على انه احتج قائلا

— لم يمكث الرجل اكثر من نصف ساعة وقد سار نحو النهر وأخشى أن يكون قد اغرق نفسه لأنه كان في حالة يرثي لها من الألم

فقال الرجل

— سنرى

ثم أمر احد رجاله ان يأتي بالكلب الى الباب الذي دخلوا الحديقة منه فأخذ الحيوان الامين يجذب الحبل الذي ربط به ، وجرهم أولا الى المنزل الذي اعطى بوليناري الدواء منه للدون زارو ثم الى شاطئ النهر . ولما بلغ الكلب هذا المكان قادهم بين الحشائش والشجيرات بلا تردد الى ان وصل بهم الى مدخل الممر المؤدي الى الكهف

ابتسم الرجال اذ ذاك ابتسامة الفوز الخبيثة وادركوا ان هذا مخبأ الرجل الطريد وامرته . على انه لم يجرأ واحد منهم على ان يدخل عليه مخافة ان يحمله اليأس على قتل بعضهم ثم الانتحار ، ورأوا ان خير وسيلة هي ان يحفروا عليهم ، فارسلوا رجلين منهم الى دار المرسلين ليأتيا لهم بالفؤوس والمعاول فلما عادا بعد قليل شرع الجميع في الحفر لاستخراجهم كأنهم ثعالب

* * *

كان في بطن الارض التي وقف الدراويش عليها رجل يلهث طلبا لنسمة من الهواء في ذلك المكان الخانق ، والى جانبه امرأتان مخلصتان كادالبكاء يفقدهما حواسهما . وكانتا توا سيانه وتهتمان به على

قدر ما سمحت به الظلمة وضيق المكان . واذا اتيح لهاتين المرأتين الافلات من الموت ، فانهما لن تنسيامدى الحياة اللحظة المريعة التي دخل عليهما فيها الدون زارو وهو يزخف بين حي وميت ، ثم وهو يقص عليهما بعد ذلك قصته

أخيراً قالت المرأتان وهما تنتحبان

— اواه ، والان ما العمل ؟

فأجابهما الرجل وهو يئن كذلك قائلا

— لا مندوحة من البقاء هنا الى ان يفرغ مالدينا من الخبز والماء وبعدها نلقي بانفسنا الى النيل اذا لم تكن النجدات قد وصلت الى الخرطوم . انها قادمة كما تعلمان وقد وصلت الى « ابوكليا » ولما كانت هذه القوة قد ارسلت لانقاذ الخرطوم فلا بد ان تصل اليها

مكثت المرأة وابنتها تشددان عزم رجلهما ، ولكن لم تمض ساعة حتى سمعوا صوتاً عند مدخل المخبأ ارسل الرعب في قلوبهم ولكن لم يلبث هذا الخوف ان ذهب عنهم اذ رأوا كلبهم قددخل عليهم ، فقالت الدونا انونزا

— هذا انت ايها الكلب الامين . كم انا مسرورة برؤيتك ولو اننا لا نستطيع ان نعطيك كسرة من الخبز أو نجزيك على تعلقك بنا في محنتنا هذه

وكانت المرأتان قد ساعدتا الدون زارو برفق على خلع الجلابية

التي اعطاها اياه بوليناري ليستر بها جسمه لان الجلادين كانوا قد مزقوا ثيابه وتركوه عاري الجسم تقريباً

تقدم الكلب الى الرجل وحاول ان يلعق جراحه، ثم اخذ يعوي ويحدث جلبة على غير عادته ولذا لم يلاحظ احد في البداية الاصوات الغير العادية فوقهم . ولكن سرعان ما حركت الاصوات اعصاب الدونا انوسنزا فسألت ابنتها قائلة

— هل تسمعين صوتا يافرنشسكا؟اسمع دبيباً لا ارتاح الى سماعه

— لا يمكن ان يكون هناك شيء يا اماه

— لست مرتاحة على كل حال

لم تمض مدة وجيزة حتى اخذت الاصوات تقترب بحالة جلية لا تدع مجالا للشك ، فأدركوا ان هناك رجالا يحفرون لاستخراجهم

اخذت الدونا انوسنزا تبحث في جميع انحاء الكهف عن المسدس ، لانها عولت على ان لا يقعوا احياء في ايدي الاعداء، ولما لم تجده قالت

— زارو . زارو . اين مسدسك ؟

فأجابها الرجل وهو يتأوه قائلا

— اواه . يا الهي . اواه . يا الهي :

— ماذا جرى ياعزيزي ؟ هل تشعر بألم ؟

— كلا . كان مسدسي في سترتي لما ذهبت الى الخارج ولكنهم مزقوا ثيابي عن جسمي عندما جلدوني

— اذن قد ضاع ؟

— نعم ضاع

— لقد قضي علينا لا محالة

ذكر الدون زارو في هذه اللحظة ، الثوب الذي اعطاه بوليناري اياه فقال

— كلا يا انوسنزا . يوجد شيء لانقاذك . ان الحزمة التي جئت بها معي هي « برنس » راهبة فأسرعي وارتديه لانهم لا يجرأون على قتلك أو انتهاك حرمتك مادمت راهبة

لم تكن الدونا انوسنزا ممن يحتملون العذاب أو الاستشهاد فكانت تخشى الألام وتتصور ما سيصيبها من الاهوال والمتاعب الجسيمة اذا وقعوا في الاسر احياء

كانت الدونا انوسنزا تخشى الموت ، ومع ذلك كانت في هذه اللحظة لاتحجم عن ان تلهب رأس ابنتها ثم رأسها بالرصاص وتؤثر ذلك على أن تقع اسيرة . ولكن قد ضاع مسدسهم ولم تعد لديهم الآن وسيلة للانتحار

تحركت عوامل طيبة اخرى في نفس الدونا انوسنزا . نعم كانت ممن لا يحتملون التعذيب والاستشهاد ولكنها كانت اماً .

فقالت اذا كان لابد من انقاذ احداهما فلتكن ابنتها فرنشسكا ، وعلى ذلك فكت الحزمة ونشرت الثوب وقالت

— اسرعي يافرنشسكا وادخلي في هذا الثوب

وكانت الفتاة لاتجهل ضعف امها وتعلم انها تستطيع احتمال الآلام اكثر منها فاجابتها قائلة

— كلا . كلا . يا أماه

فألحت الدونا انوسنزا وهي تعلم كذبها قائلة

— كلا . انني اصر على ذلك . انني اكبر منك سنا . وسأتخذ من عمري وقاية لي

فتوسلت فرنشسكا اليها قائلة

— ان عمرك سيقيك من ان يعتدي على شرفك أحد ، ولكنه لاينجيك من الموت

زادت الحركة شدة في الخارج فقال الدون زارو بصوت خافت

— اسرعا . اسرعا . لتلبسه احداكما . سيداهموننا عما قريب

فقالت انوسنزا بلهجة اليأس والقنوط

— لا يفيدني هذا الثوب شيئًا ، فان الضابط فريد يعرفني جيداً ويبغضني لأنني وشيت به ، وسيخبرهم انني لست راهبة

فقال الدون زارو

— صدقت . هـذه هي الحقيقة واأسفاه . البسيه انت يافرنشسكا لانه لا ينفع احداً غيرك . اسرعي يا ابنتي

اخذت الفتاة ترتدي الثوب بمشقة لانخفاض سقف القبو . ولما فرغت من ارتدائه عثرت فيه على سبحة وصليب وضعهما بوليناري داخل الثوب

اخذت الاصوات تقترب شيئًا فشيئًا الى ان جلست فرنشسكا القرفصاء وخرجت من المكان بعد أن نجت بأعجوبة من ضربة فأس كادت تهوي على رأسها . ومع ذلك لم ينج الجميع من سقوط الاتربة على رؤوسهم وانهيارها بشدة سببت لهم رضوضاً مؤلمة

هرع الثلاثة الى مدخل الممر للافلات من اصابات جديدة وعلى أمل ضائع بالنجاة ، ولكن الدراويش كانوا قد توقعوا ذلك فاصطفوا عند الطرف الآخر للممر وسط الحديقة ،لا عند شاطئ النهر الذي دخل منه الكلب ، ولكنهم أقاموا مع ذلك حراساً منهم على مقربة من الشاطئ ليمنعوا من يحاول الانتحار من الاسرى غرقًا في النهر

كانت الدونا انوسنزا آخر من خرج من المكان ، فاطبق الرجال عليهم واحدقوا بهم وإذ ذاك حمل الكلب الامين عليهم ولكن طعنه احد « البجارة » بحربته العريضة طعنة ألقته مدرجاً بدمه ، ثم شرع الرجال بعد ذلك في تنفيذ مهمتهم

امرت انوسنزا وابنتها ان تضعا ايديهما خلفهما . وكانتا تفهمان اللغة العربية جيداً فاطاعتا صاغرتين عالمتين ان لا فائدة من المقاومة ، فتقدم الرجال منهما وشدوا وثاقهما حسب طريقتهم المعروفة بحبال جاؤا بها لهذا الغرض ثم ساقوهما الى الخليفة عبد الله التعايشي

بكت المرأتان خوفًا ورعبًا ، لا لما سيصيبهما من المصائب والويلات فقط بل واشفاقًا على الدون زارو الذي سار الدراويش به في طريق آخر وهم يجرونه بحبل معلق حول عنقه ليقتلوه بلا مراء

كان الخليفة عبد الله في بيت المال عندما جاءه الدراويش بالمرأتين فاستقبلها بصيحة من الابتهاج والفرح ، وإذ ذاك شاهدت فرنشسكا وأمها اجمل نساء الخرطوم من الاوروبيات والشرقيات والمصريات وقد ربطت يدا كل امرأة منهن خلفها لكي لاتستطيع المقاومة عند فحص جسمها، أو الهرب من أيدي جلاديها

تقدم الضابط فريد بجرأة الى الخليفة عبد الله ثم اشار الى فرنشسكا وامها وقال

— الا ترى ياسيدي انهما فتاتان ؟

— نعم مثل القمر في الليلة الرابعة عشرة

ولما كان قد تم الآن سبي جميع النساء الجميلات في المدينة، فقد جاء المهدي بعد ذلك مع جميع الخلفاء والامراء ليختار منهن

ما يريد ، فأمر ان ترسل فرنشسكا وأمها الى « حريمه » فحلت قيودهما مع النساء الاخريات اللائى وقع عليهن اختيار المهدي ثم وضع الجميع معًا في سلاسل حديدية وساقهن الحراس الى الزوارق لنقلهن الى قصر المهدي في أم درمان

وهكذا كانت فرنشسكا وأمها احسن حظًا من غيرهن لانهما على الاقل لم يفترقا وتحملا محنتهما وو يلاتهما معًا

الفصل الثالث عشر

تدهور المهدية

لم يقتل الدون زارو وانما سيق الى السجن في أم درمان . وكان الدراويش يجذبونه من الحبل المعلق برقبته بين حي وميت . وقد تكدس الذباب على جروحه الدامية لانه لم يجد متسعاً من الوقت لارتداء «الجلابية» التي اعطاها له بوليناري عند خروجه من مخبئه

وقعت عينا الدون زارو اثناء الطريق على رأس معلق على طرف شجرة واذا هو رأس صديقه غردون . وقد عرفه الصقلي بالرغم من ضعفه وانحطاط قواه لانه رأى الناس يرجمونه بالحجارة ويسخرون منه ويقذفونه بأنواع الشتائم والسباب ، وعندئذ قال الرجل في نفسه انهم يجرونه الى هذه الشجرة للغاية نفسها لانها ليست في الطريق الى السجن

يكاد يستحيل على الانسان ان يصف الفظائع المريعة التي وقعت عليها عينا الدون زارو وهم يجرونه من الخرطوم الى أم درمان . فقد كان بالمدينة عند سقوطها اربعون الفاً من السكان ، ذبح منهم نحو عشرة آلاف واستطاع بضعة ألوف من انصار المهدي ان ينجوا بأمتعتهم بفضل اصدقائهم في أم درمان . ولكن كان هنالك

ألوف آخرون سيقوا من الخرطوم الى أم درمان لا لسبب الا لكي يظهر الدراويش بمظهر الفوز والعظمة بكثرة الاسرى والسبايا

لم يكفل أحد الطعام لهؤلاء المساكين بل تركوا يتضورون جوعاً . وقد زاد في متاعبهم وآلامهم ان القائمين بأمرهم والذين يستطيعون تخفيف متاعبهم من الخلفاء والامراء والانصار ، قد التجأوا كلهم الى الخرطوم وعاشوا في منازلها لتوفر اسباب الراحة فيها . وقد قام الاشراف — وهم اقرباء المهدي — بتدابير خاصة للاقامة في الخرطوم بصفة دائمة ، وهي سياسة ترمي الى نتائج خطيرة في المستقبل ، لانه لو بقيت للاشراف بعد وفاة المهدي الزعامة اللازمة للدفاع عن حقوقهم لنشبت حرب أهلية بين مدينتهم الخرطوم وأم درمان عاصمة الخليفة

ساءت حالة المهدي الادبية وشعبه بعد سقوط الخرطوم التي كانت ذات ثروة طائلة ، فاستولى الامراء على كميات كبيرة من الذهب والفضة والحلي والمتاجر التي أنفقوها في ملذاتهم وشهواتهم بالرغم من تهديدات المهدي ووعيده ، فلم تنفعه جميع التدابير التي اتخذها لمنعهم من اقامة الحفلات والمآدب وشرب « المريسا » والتدخين والانهماك في الملذات . وكان المهدي نفسه والخليفة عبد الله اسوأ مثال يقتدى به في حين اقتفى الانصار على اختلاف درجاتهم أثر الامراء نعم كان لدى الخليفة عبد الله ، بعد وفاة المهدي ، جواسيس

يخبرونه بما يرتكبه الامراء مناقضاً لتعاليم المهدي ، فكان يعاملهم كمجرمين ويجردهم من أملاكهم ويعدمهم في الحال أو يرسلهم الى حيث يقضى عليهم جوعاً أو تعذيباً ، على ان الخليفة كان لا يقدم على شيء من ذلك الا اذا أراد التخلص من منافس له ، لا لاصلاح الشعب ، وكان الجميع يعرفون عنه هذه الحقيقة

حوّل الخليفة عبد الله التعايشي همه بعد وفاة المهدي الى حصر الملك في اسرته . وكان يجهل ما يدور في العالم الخارجي ، الى حد انه لم يفكر في احتمال القضاء على امرائه من الخارج ، وزعم انه لا يقدم أحد على غزو السودان الا ملك الحبشة . وعلى ذلك قصر همه على اضعاف الخليفتين اللذين سيأتيان من بعده . وكان كلاهما ينتمي الى « أولاد بلاد » وهم من عرب وادي النيل ، أما هو فكان من أطراف كردوفان الغربية

أخذ عبد الله يعمل لاضعاف سلطة هؤلاء العرب ويتذرع لذلك بكل وسيلة، فكان يستخدم زهرة جنودهم في حروبه المستمرة ويقتل زعماءهم أو ينفيهم أو يعطيهم عبيداً لرجال قبيلته التعايشة مع أملاكهم، وبهذه الوسيلة استمال كثيراً من قبائل بلاده وغيرهم ممن جاءوا الى أم درمان للالتحاق بخدمته

وكان الخليفة « علي ود حلو » والخليفة الشريف قليلي الخبرة فلم يقاوما الخليفة عبد الله عندما حوّل جميع حملة البنادق الزنوج

من رجالهما ورجاله الى حرس خاص له في أم درمان . ثم لما كشف لهما عن حقيقة نواياه ، عجزا عن الوقوف في وجه القوات التي جمعها من حملة البنادق والحراب . واخيراً لما أقام بهذه الوسيلة سدا بينه وبين الحروب الداخلية شرع يضعف أنصارهما بكل وسيلة ممكنة ، منها السماح لهم بالتدهور والانغماس في اللذات والشهوات

وهكذا قضى الخليفة عبد الله قبل سقوطه على كل أثر لذلك المذهب الذي حاز أنصار المهدي به سلطتهم ، كما انه كاد يمحو اعتقاد الناس ببعثة المهدي المقدسة

الفصل الرابع عشر

زواج المهدي وموته

ظل محمد احمد المهدي رجلا صالحاً الى ان صيرته « الفرصة » ملكا . وليس بين السودانيين رجل يستطيع ان يقاوم تجارب حياة البذخ والنعيم والتمتع بالنساء الحسان . وكان أعلم الناس بهذه الحقيقة المهدي نفسه لذا قضى الشطر الاكبر من حياته يعظ مواطنيه ويحملهم على هجر الخمر والمآدب والتدخين والتزين بالحرير والتحلي بالاشياء النفيسة ، ولا غرض له من ذلك كله الا انقاذهم من الوقوع فريسة في يد أعدائهم

وقد ظل أنصاره محافظين على هذه الاخلاق والعادات السامية التي استطاعوا بفضلها ان يفتحوا دار فور وكردفان والمديريات الواقعة على النيل من وادي حلفا الى بلاد الحبشة ولادو. أما المذابح التي وقعت بعد سقوط الخرطوم فلم تكن من عمله وانما كانت من أعمال الخليفة عبد الله ، بدليل انها انقطعت على أثر ظهور المهدي في المدينة

نعم لا ريب في انه لو تولى المهدي قيادة انصاره بنفسه لما وقعت مذابح الخرطوم ، ولاستطاع انقاذ حياة غردون ولكن لو لم تخضب الخرطوم بدماء أهلها لنقضت النبوات التي غذى بها شعبه

أثناء فتوحاته . وكان المهدي فوق ذلك يعد نفسه بموجب تعاليم دينه حامياً لرجال الدين المسيحي والدين الاسرائيلي ،وهذا هو السبب الذي حمى فرنشسكا وأنقذها من اعتداء المهدي ومن الذين خافوه وهم يعتقدون أنها راهبة حقيقة

كاد هذا السر الرهيب يفشى . فقد وشى الضابط فريد بها الى الخليفة عبد الله ، ولكن الرجل كان منهمكا بجمال المرأتين فلم يكترث لقول الضابط . ولحسن الحظ نظرت فرنشسكا الى فريد نظرة تنطوي على التوسل والاستعطاف قبل ان يعيد قوله على الخليفة فوقع الشاب في شرك غرامها في تلك اللحظة وأثرت فيه تلك النظرة التي لم يشعر بمثلها في حياته ، وفوق ذلك وجد انه لم ينله شر على يد الفتاة ولم تكن لها مثل أمها علاقة ببيت المال

صمم الضابط في الحال ، مدفوعاً بعوامل غرامه ، على ان يعقد لسانه عن الكلام . وقال في نفسه ، اذا كان الخليفة عبد الله قد سمع شيئاً من كلماته التي فاه بها فسيقول انه يعني انوسنزا وقد اعتقد الضابط ان هذا الجميل قد يستميل اليه قلب الفتاة ويحملها على حبه ، وانه اذا كان المهدي يخشى ان يتخذ الفتاة زوجة له ، فانه سيكرهها بلا ريب على الزواج بغيره ، كما حدث فيما يتعلق بالراهبات الاخريات اللائي اكرهن على الزواج بتجار من اليونانيين . ولما كان فريد هو الذي أوقع المرأتين في الاسر فلماذا لا يعطيها المهدي له زوجة

أو لماذا لا يساعدها الضابط على الافلات والهرب وبعد ذلك يتخذها زوجة له ؟

كانت هذه هي الغاية التي رمى اليها الضابط فريد، وعلى ذلك نظر الى فرنشسكا نظرة فهمت منها انه سيكتم سرها

ولما كانت انوسنزا وفرنشسكا بين النساء اللائي اختارهن المهدى لنفسه فقد كانتا وطيدتي الامل بالبقاء معاً . على ان آمالهما هذه لم تلبث ان ضاعت ، اذ وردت الانباء بأن النجدة التى انتصرت على الدراويش في ابوكليا استأنفت الزحف جنوباً

ارسل المهدى في طلب ود النجومى – وهو القائد الذى سحق جيش هكس باشا واستولى على مدينة الخرطوم — وطلب اليه ان يزحف بقواته لمقاتلة النجدات القادمة في الحال . فاظهر النجومي تبرماً واستياءاً لانه أراد ان يتمتع بثمار انتصاراته الاخيرة ، ولكن المهدى رضاه بهدية كانت تطمح اليها نفسه ، فوهبه الدونا انوسنزا

أما فيما يتعلق بفرنشسكا فقد حار المهدى في أمرها ، لأن تعاليمه الدينية تحرم عليه ان يمس « امرأة قديسة » من النصارى . ولكنه رأى ان الوسيلة الوحيدة للافلات من هذه القيود هي ان تهبه الفتاة نفسها مختارة وبذا يصبح في حل من كل قيد ، وعلى ذلك أمر المهدى ان توضع الفتاة في سجن الحريم مقيدة ، على أمل ان تحملها متاعب السجن والسلاسل على الاذعان له أثناء زياراته لها

اخذ المهدي يزور الفتاة كل يوم . ولما لم تكن تستخدم شيئاً من الاصباغ فقد زاد وجهها ملاحة وجمالا . وقد لاحظ المهدى ذلك بارتياح ، اما الفتاة نفسها فلم تشعر بالتغيير الذى طرأ عليها لأن الخصي الذى عهد اليه بحراستها لم يسمح لها بالنظر الى المرآة

سمح المهدي ذات يوم لها بالتريض في عربة مقفلة بحراسة الخصي، ولكن السلاسل التى وضعت في رجليها كانت تمنعها المشي على الرغم من أنها لم تكن ثقيلة ، ولذا كانت تقضي معظم وقتها جالسة تستنشق الهواء

طلبت فرنشسكا ان يؤذن لها بالقراءة فلم يجب طلبها . على أنها وجدت تسلية أخرى في الاشتغال بالتطريز ، فقد جاءتها زوجة المهدي العجوز بوشاح وخيوط من الحرير الأبيض والبرتقالي لتطريزه . ثم شرعت المرأة تغري الفتاة على الخضوع لرغائب المهدي، وهذه مهمة عادية كانت تقوم بها زوجة المهدي كلما جاء الى القصر نساء من السبايا . على انه لما سمع المهدي بذلك في اليوم التالي أمر ان يؤخذ الوشاح منها لأنه أراد ان لا تجد الفتاة تسلية في غير زياراته لها

كان المهدي رجلا طويل القامة ، جميل الوجه ، عرف دائماً بكرم اخلاقه ورقة ابتسامته التي كانت تشف عن ثنيتين مفترقتين في الوسط يعدها السودانيون دليلا على السعادة والحظ

مرّ الشهر الأول والثاني الى الخامس دون ان تجد فرنشسكا ما يشغلها اثناء النهار اللهم الا استقبال المهدي اثناء زياراتهِ اليومية ليرى هل اثرت فيها عوامل العزلة والانفراد ، فتملكها اليأس وتحولت افكارها الى السم الزعاف الذي أعطته اياها أمها وأخفته بين طيات ثيابها لتستخدمه وقت الحاجة . وهو سم لاطعم له ولا لون ، كانت له شهرة عظيمة في ايطاليا اثناء القرون الوسطى ، يحدث اعراضا تشبه اعراض الحمى الرقطاء التي كانت متفشية في ذاك الوقت بين سكان أم درمان

أرادت فرنشسكا في البداية أن تستخدم هـذا السم في قتل ذاتها لتكفي نفسها مشقة هذا العذاب المؤلم ، ولـكنها لم تكن من اولئك الذين يقدمون على الانتحار مادام هناك أمل في الحياة . وعلى ذلك لم تلبث أن خطرت ببالها فكرة اخرى وهي أن تستخدم السم في قتل الرجل الذي يسمم ايامها والذي اطلق الوفاً من الارواح الى خالقها في خلال الفترة الوجيزة التي قضتها في السودان

وكان المهدي فيما مضى نحيف الجسم — كما اخـبرها بعضهم بذلك — ولـكنه صار أخيراً غليظ الجسم ، ليس فيه من الملاحة شيء غير عينيه وابتسامته ، فكانت الفتاة تشعر اثناء زياراته لها بنفور منه ، أي بعكس ما كان يريد

حارت فرنشسكا في أمرها عندما خطرت ببالها تلك الفكرة ،

ولم تدر كيف تخرجها الي حيز العمل . ولا عجب فقد كانت تجهل أطوار المهدي وعاداته لانها لم تغادر سجنها والرحبة القريبة منه منذ سيقت الى أم درمان ، ولم تكن تدري اين يستقبل المهدي زوجاته ولا تعلم كيف تريه لينها وخضوعها

نعم كانت فرنشسكا تجهل كل ذلك ، ولـكنها كانت متشبعة من جهة اخرى بروح الانتقام للدماء التي أهرقت وغمرت الاراضي مثل فيضان النيل ، وللآلام التي تحملتها وهي في عزلتها لا كراهها على الخضوع له وتحقيق أغراضه السافلة ، ولجميع النساء اللائي قد يصيبهن ما أصاب غيرهن ، فصممت على تنفيذ غايتها ولو تطلب الأمر تضحية حياتها

تحولت فرنشسكا الى لبوة بشرية عند ما اختمرت هذه الفكرة في عقلها وارشدتها غريزتها الى غرضها ودلتها كيف تعمل . وعلى ذلك رأت أن عليها قبل كل شيء ان تحول الخصي الذي يتولى حراستها الى أداة في يدها تحـركه كيف تشاء . وقلما كان الرجل يخاطبها ولـكنه كان يتردد عليها كثيراً ليرى هل أصابها أذى أو هل أضرت نفسها بشيء

وكانت الفتاة تترفع عن اظهار الضعف امام الخصي . ولـكن حدث ذات يوم في أوائل يونيو — وكان قد مضى عليها في سجنها خمسة شهور — أن رآها تغسل قدميها حيث اثرت فيهما القيود الحديدية

فابتسم الخصي عندما شاهد عملها هذا الذي عده أول دليل على ضعفها ، فابتسمت له الفتاة ايضا وقالت وهي تنظر الى قيودها

— انها تؤلم قدمي

فانتهز الخصي الفرصة وقال

— انك تعرفين كيف تتخلصين منها

— كلا . وأسفاه

— ليس عليك الا أن ترسلي رسولا الى « النبي » بانك مستعدة للخضوع الى رغائبه .

— كلا . لن أفعل هذا

ثم مكثت يومين كاملين لاتدع عينيها تلتقيان بعينيه . على انه وجدها في اليوم الثالث تبكي قائلة

— ان قدمي تؤلماني كثيراً . أليست هناك وسيلة لانقاذي من هذه القيود الممقوتة ؟ انني بيضاء اللون ، فلا استطيع الهرب وعيناك تراقبانني ليلا ونهارا والأبواب موصدة وعليها الحراس

— قلت لك انه ليست هناك غير وسيلة واحدة لانقاذ قدميك من هذه الاغلال ، ولا أخالك تجهلين تلك الوسيلة

لم تفه فرنشسكا بكلمة أخرى ، ولكنها حولت وجهها الى الحائط . ولم تكن السلاسل الحديدية تؤلمها حقيقة لانها كانت قد تعودت عليها ولكنها رأت انه يجب ، تنفيذاً لغرضها ، أن ترفع

القيود التي كانت تمنع رجليها من حرّية المشي لكي تستطيع مقاومة المهدي بسهولة

وهكذا صممت الفتاة على مقاومته بل وعلى قتله اذا استطاعت دون ان تمكنه من الوصول الى غرضه . وكانت الفتاة لا تجهل أن عملها هذا قد يفضي الى قتلها أو موتها تعذيباً ولكنها لم تحفل بذلك ولم تستكثر أي ثمن تدفعه للوصول الى غرضها

رأت فرنشسكا أن باب الانتقام سيظل مغلقا في وجهها الى ان تستطيع التخلص من قيودها ، وعلى ذلك جعلت هذا الغرض نصب عينيها أولا ، فكانت تجلس كل يوم وتمد قدميها بحالة مؤثرة ، ثم تذرف دموعاً كاذبة على أمل ان يبلغ الخصي أمرها لسيده ، لأن المهدي انقطع عن زيارتها منذ شرعت في تدبير دسيستها

وفعلا ابلغ الخصي الأمر لسيده ، ولكن المهدي أراد ، مراعاة لأحكام دينه ، أن تفاتحه الفتاة من تلقاء نفسها وعلى ذلك أمر الخصي أن يدع الأمور تجري في مجراها الى ان يصيبها الضعف والوهن

اخيراً لما رأت الفتاة ان المهدي اهمل امرها تمارضت وأخبرت الخصي انها ستموت . فلما سمع المهدي بهذا النبأ قلق وزعم ان الفريسة ستفلت من يده فأمر الخصي ان يناقشها ، وفعلا سألها الرجل وهي تمثل أمامه دورها قائلا

— ولكن لماذا تتكبدين كل هذه المتاعب والآلام ؟ ليس عليك

الا ان تخبريني انك تريدين التمتع بشرف الذهاب الى سيدي كاحدى زوجاته الآخريات فتنزع عنك هذه القيود ولا تريها ثانية . انه لا يريد ان يتخذك حظية له بل سيجعلك احدى زوجاته

ثارت فرنشسكا في وجه الخصي وفاهت بكلمات قاسية ملؤها التحدي والغطرسة . على انه وجدها في اليوم التالي أشد ضعفاً وحزناً منها في أي يوم مضى فلم يتردد عن اغرائها مرة اخرى . فحولت الفتاة اليه وجهها وتأوهت قائلة :

— أشعر بضعف شديد ومرض ...

فقال الخصي

— اذن يجب ان تخضعي

— لا أستطيع

— خير لك ان تفكري في الامر . هل اخبر سيدى انك قبلت؟

— يجب ان افعل شيئاً وإلا ادركني الموت . سأخبرك بعد ساعتين

عاد الخصي بعد ساعتين وعلى ثغره ابتسامة تنم على الخبث لم يخف على فرنشسكا معناها . على أنها كتمت غيظها وقالت

— سأذهب الى المهدي كاحدى زوجاته اذا نزعت عني هذه السلاسل والقيود

لم تفقه فرنشسكا الخطر الجسيم الذي ربما استهدفت له باقرارها

هذا قبل ان تنزع القيود من قدميها . فقد كان في وسع رجل كالخليفة عبد الله ان يتردد في تنفيذ ما وعد به بعد ان صار في حل من قيود دينه بحصوله على موافقتها ، ولكن المهدي لم يقدم على عمل كهذا

لم تدرك فرنشسكا هذا الخطر ، على انها لم تدرك من جهة اخرى قوة مركزها ، فقد كانوا يعتقدون انها راهبة حقيقة ، وان أوامرهم الدينية تحظر عليهم انتهاك حرمة احد من خدام الدين المسيحي

انسحب الخصي، ولم تمض لحظة وجيزة حتى جاءت زوجة المهدي — أم المؤمنين — تحمل ثياباً جميلة ووشاحاً . على ان الفتاة رفضت ان تستبدل ثياب الرهبنة بغيرها مخافة ان يظهر السم الذي اخفته ، فقالت زوجة المهدي

— ولكنك لا تستطيعين الذهاب الى « النبي » بهذه الثياب « يا ست »

— عودي الى نبيك وسليه هل يتنازل ويقبل مثولي بين يديه في ثيابي هذه الدينية ؟

وكانت « أم المؤمنين » تعرف طباع سيدها بحيث لم يكن لديها أقل ريب . وكذا لم تكن لديها رغبة في ان تظهر الفتاة بمظهر الجمال والملاحة فتؤثر في قلب سيدها وتملك مشاعره بعنادها وصلفها. وعلى ذلك قالت

— ولكن يجب ان تكوني مقنعة قبل ذهابك الى حضرة « النبي » وقبل ان يأتي الحارس وينزع القيود من قدميك

أذعنت فرنشسكا فدخل الحارس يحمل مطرقة وأدوات اخرى فكسر قيودها حلقة بعد اخرى ، واذ ذاك ابتهجت وكاد قلبها يطير فرحًا عند ما شعرت بأنها صارت فتاة طليقة مرة اخرى وساعدها قناعها على اخفاء علامات ابتهاجها

سارت « أم المؤمنين » أمام فرنشسكا ، يتبعهما الخصي الى الجناح الخاص بالمهدي في قصره ، الى ان دخلت معها الحمام ، ولكن لما كانت الفتاة قد لطخت عنقها وخديها بالسم من تحت قناعها فقد رأت ان هذا يفسد عليها خطتها لانها أرادت ان تجعل قبلات المهدي لها سامة قتالة له . وعلى ذلك صاحت قائلة

— كلا . لا انزع عني ثيابي هذه حتى أقف بين يدي سيدي

زعمت « أم المؤمنين » ان فرنشسكا تعرف تعاليم الدين وانها أرادت ان تستفيد من هذه التعاليم ، فأذعنت لها مرة اخرى ودخلت معها الى « رجل الله »

وكان المهدي في غرفة حوت جميع مظاهر البذخ والترف المعروفة في أم درمان ، متكئًا على فراش نفيس ، مسندًا رأسه على وسادة موشاة بخيوط ذهبية ، يرتدي ثوبًا من الكتان الجميل المعطر باحسن أنواع الطيب المعروفة لدى العرب

شهدت فرنشسكا بعد انسحاب « أم المؤمنين » اسوأ ساعات قضتها في حياتها . فقد كان عليها وهي لم تتجاوز بعد العشرين من عمرها ، ان تناضل وتتغلب على ملك يحكم سلطنة شاسعة من الشعوب المتوحشة ، مطلق السلطة ، يفعل ما يشاء دون ان يحسب حسابًا لرأي عام يمنعه أو يكسر شكيمته

وكانت امها قد اخبرتها عند ما اعطتها السم ، ما تنتظره كاسيرة في يد وحش ، وعلمتها كيف تقاوم مطامعه ثم اخذت عليها عهدًا أن تنتحر اذا عجزت عن الدفاع عن نفسها . غير أن فرنشسكا ، ابنة الصقلي الداهية ، عولت على الكفاح الى النهاية ، واستقر رأيها على انه اذا كان لا مندوحة من الموت فليمت المهدي أولا ، فلا تذهب ضحية دون انتقام

ذهبت فرنشسكا الى المهدي ووقفت أمامه بكل ما اوتيت من جمال وملاحة . وكانت أول ورقة القتها من اوراق لعبها ، ورقة الجهل والسذاجة، فتظاهرت بانها لا تفقه ما يريد أو يعني . على انها استسلمت بدلال ورقة ، تولدت من يأسها، الى ضمات خفيفة وعناق بسيط ، والى إزالة الخوف من قلبها بقبلات رقيقة . ثم توسلت اليه أن لايقبلها في ثغرها لئلا يطيل ايام حياته الفانية . فقــد كانت لديها جرعة اخرى من هذا السم القتال ادخرتها لتضعها في فمها —

اذا اصر على تقبيلها في ثغرها — وتنقلها الى فمه ، قبل أن تبدأ قبلته الصغيرة المسممة تؤثر فيها تأثيرها .

شعرت فرنشسكا انها اجبن من انجيلو وأنذل منه عندما رأت معاملة المهدي الرقيقة وعدم الحاحه في تنفيذ غرضه قبل أن تخضع له من تلقاء نفسها مكرهة أو مختارة . على انها كانت تسعى للانتقام ، لا يثنيها عن عزمها عامل من عوامل الشرف أو الانسانية ، ولا أي ثمن تدفعه في هذا العالم أو في العالم التالي

لما اخذ السم يؤثر تأثيره فقد المهدي شيئًا من ضبط النفس . وكانت الحمى قد بدأت تسري في عروقه واستولى عليه شيء من الهذيان فحاول أن يتغلب على فرنشسكا ، ولكنها كانت قوية هادئة فوضعت اصبع يدها اليسرى في قارورة السم فتعلق به شيء منه وعندئذ تظاهرت بالدفاع عن نفسها ووضعت اصبعها في فمه

والظاهر أن السم أثر تأثيره في الحال اذ لم يلبث أن ترنح الرجل وسقط على الارض فرفعته الفتاة بلطف ثم وضعته على «العنجريب» ومسحت آثار السم عن شفتيه ثم وضعت يدها الصغيرة البيضاء على جبينه لتخفف حرارة الحمى ففتح المهدي عينيه وقال

— هذا حسن . في يدك الشفاء

حارت فرنشسكا وقالت ما العمل بعد ذلك ياترى ؟ لا يستطيع

أحد الدخول عليهما الا اذا استدعاه المهدي ، وقد لاتمضي مدة وجيزة حتى يغمى عليه ويفقد كل شعور

نظر المهدي اليها نظرة رقيقة ضعيفة تنم على التألم فقالت

— اننا في حاجة الى ماء ، فكيف استدعي الخدم لاحضاره ؟

فاشار المهدي بعينيه الى ناقوس فضي صغير كان يستخدم في حفلات الصلاة بدار المرسلين ، فقرعته فرنشسكا ولما دخلت عليهما « ام المؤمنين» قالت لها

— انه مصاب بحمى شديدة . انني خائفة

فسألتها العجوز بعنف قائلة

— ماذا فعلت به ؟

فقال المهدي وهو يلهث

— لا شيء . لا شيء . حمى . حمى

رأت زوجة المهدي حالة الرجل السيئة فنادت الخصي الذي كان يتولى حراسة فرنشسكا وقالت له

— عد بها الى السجن وضع القيود في قدميها الى أن تقتص منها على ما جنته يداها

ولكن المهدي رفع يده ونهاها عن هذا العمل ، ثم قال بصوت خافت مخاطبا فرنشسكا

— اليّ . اليّ

فذهبت الفتاة اليه فقال

— هاتي يديك ثانية

فوضعتهما على جبينه مرة اخرى فشعر براحة قليلة خففت عنه وطاة الحرارة الشديدة التى كانت تتقد جذوتها في رأسه ولذا قال

— لا تذهبي . لا تذهبي

فتجاهلت الفتاة غرضه وهي تمثل دورها وقالت لزوجته بسذاجه

— انه يريد أن تبقى معه . اواه ، اتوسل اليك أن تبقى . لا ادري مثلك ما يجب عمله . انني عاجزة بدونك . لك أن تفعلي بي ما شئت فيما بعد ولكن لا تدعيني منفردة فقد يموت وانت بعيدة عنه . لاشك عندي في أن هـذه حمى ولـكني وا اسفاه اجهل كل شيء عنها

فقالت « ام المؤمنين »

— نعم هذه حمى رقطاء

وكانت المرأة تعرف اعراضها جيداً لانها شاهدت قرى بأ كملها ذهب اهلوها ضحية هذا الوباء القتال .

قالت فرنشسكا

— اذهبي يا اماه وائتى بالدواء الصالح وسابقى هنا معه اخفف آلامه ما استطعت الى ان تعودي الينا

حزنت فرنشسكا عطفا على المرأة العجوز المخلصة التى سلبتها

اعز شيء لديها على الارض. والظاهر أن الفتاة كانت لاتخشى شيئاً من المرض المخيف ولم تكن تدري ماذا تفعل ، ولكنها كانت تعرف كيف تخفف ضغط الدم على شرايين الدماغ بوضع يديها على جبينه والضغط عليه

شعرت فرنشسكا في قلبها بابتهاج شديد. ولا عجب فقد رأت انها — فرنشسكا لنتيني الفتاة التي لم تتجاوز بعد العشرين من عمرها — قد اختارها الله لتكون أداة للقضاء على حاكم هذه السلطنة العظيمة التي يكتنفها شعب من المقاتلين

لم يخطر ببال الفتاة شيء عن اعدامها اذا اكتشفت جريمتها فقد هان عليها أن تتحمل الآن الموت باقسى حالاته بعد أن أنقذت شرفها وانتقمت للألوف الذين ذبحوا في الخرطوم ، و بعد أن صار الذي كان في الصباح حاكما بامره على شطر كبير من افريقيا ، جثة لا ينقذه من مخالب الموت منقذ

عادت زوجة المهدي بعد قليل تحمل مستحضراً من الزبدة ، وهو الدواء الوحيد المعروف لدى هذه الشعوب البربرية، فتناوله المهدي بارتياح ولـكنه لم ينفعه شيئاً

رأت فرنشسكا الرعب الذي تملك المرأة العجوز ، فصاحت قائلة

— دعيني أقم بخدمته . ليس لدي ما أفقـده اذا مت . لست خائفة

فاهت فرنشسكا بهذه الكلمات وهي تعلم انه ليس ثمت مايدعو

الى الخوف لأن المهدي لم يكن مصاباً بحمى . أما « أم المؤمنين » فكانت تخاف من المرض وتخشى ان تصاب به ولذا كانت تبتهج كلما رأت المهدي يقوم باشارة أو ينظر الى فرنشسكا بتوسل لكي تفعل هذا أو ذاك لتخفيف آلامه

انقضت ستة أيام على هذه الحال

وفي اليوم السابع علمت « أم المؤمنين » ان المهدي لا يعمر طويلا فارسلت الى الخليفة عبد الله التعايشى — وكان قد مضى معظم اليوم السابق في غرفة المهدي — وأخبرته انها قلقة على حالته

لم يذع خبر مرض المهدي بين السكان إلا في اليوم السادس لانه تعود أن يكتم حركاته وحركات خلفائه وامرائه عن الناس لكي لا يعرفوا شيئاً عن الاوقات التي يقضونها مع نسائهم ولكي ينتحلوا لانفسهم اعذاراً للتغيب عن الاشتراك في الصلوات التى تقام في المساجد

لذلك ظل السكان يجهلون خبر مرض المهدي ، ولكن تلقى الخليفة عبد الله في اليوم السادس كلمة عن حالته الخطيرة فقضى ذلك اليوم بجانب فراشه ، وفي المساء اعلن خبر مرضه وأمر الناس ان يجتمعوا في المسجد الاكبر ويدعوا الله ان يشفي «النبي» حتى يفتح مكة والمدينة والقدس كما قضى بذلك

ولكن لم تطلع شمس اليوم السابع حتى علم الناس ان الأمل بشفاء نبيهم قد ضاع . وقد احس المهدي نفسه ان منيته قد حانت

عند ما أفاق من غيبوبته فتحول الى فرنشسكا — وكانت لا تزال تقوم بتمريضه برقة وعطف ، بعد ان نجحت في مهمتها — وأمرها ان تدعو عبد الله والخلفاء الآخرين مع بعض اقربائه وناظر الخزانة ورئيس حاشيته وشيخ جليل يدعى السيد المكي ، فأجابته فرنشسكا قائلة

— ان الخليفة عبد الله هنا ياسيدي وسيتلقى بنفسه تعليماتك

كانت فرنشسكا في حاجة الى قوة فكرية خارقة لكي تستمر على تمريض الرجل الذي دست له السم وهي تحت مراقبة عيني الخليفة عبد الله الذى كان يقضي معظم اوقاته بجانب فراش المريض ، ولكنها رأت ان سلامتها تقضي عليها بأن تتحمل هذا العبء وان تبقى قائمة بمهمتها وتمثيل دورها الى النهاية

وفي الواقع اتقنت فرنشسكا الدور الذى لعبته الى حد انها لم تنس ان التعب الذي تظهر دلائله على وجهها ، وان ظهورها بمظهر رث قذر ، كان انفع لها لاخفاء ملامحها عن أعين الطامعين

اخيراً فتح المهدى عينيه وافاق من غيبوبته بالرغم من ضعفه الذى أخذ يزداد بسرعة فأشار الى الذين في الغرفة لكي يقتربوا منه ثم قال بصوت ضعيف مسموع

— لقد عين النبي الخليفة عبد الله ، الخليفة الصادق ، خلفا لي

وهو مني وأنا منه ، فكما اطعتموني اطيعوه . وكما نفذتم أوامري نفذوا أوامره . ليتغمدني الله برحمته

ثم استجمع قواه ونطق بالشهادتين قائلا

— لا إله إلا الله ، محمد رسول الله

وضع المهدي ذراعيه على صدره بعد ذلك ومد رجليه ثم أسلم الروح

اقسم الامراء والاعيان الذين كانوا حول الجثة يمين الاخلاص والطاعة للخليفة عبد الله ، وكان السيدا المكي أول من تناول يد الخليفة واعطاه يمين الاخلاص و بارك اسمه ، ثم تبعه الخليفة علي ود حلو والخليفة محمد الشريف وغيرهما من الامراء والشيوخ ، ثم أبلغ الخبر للجموع التى كانت محتشدة في الخارج ، ولكنهم أمروا ان لا يبكوا أو يعولوا ، وان يتأهبوا ليقسموا يمين الطاعة للخليفة عبد الله

وكانت « أم المؤمنين » زوجة المهدي الكبرى ، منزوية في خلال هذه المدة كلها في ركن من الغرفة وقد أسدلت على وجهها قناعاً ثقيلا ، فقامت الآن وأمرت فرنشسكا ان تتبعها ثم سارت الى « الحريم » تحمل النبأ السيء بوفاته الى زوجاته وأخذت تواسيهن وتمنعهن من الصراخ والعويل . على أنها فشلت في مهمتها هذه لأن معظم النسوة كنّ من السبايا ولذا خشين ان يصيبهن أذى ، فتظاهرن بالعويل والبكاء ليخفين ابتهاجهن . وكذا ارتفع الصراخ من

جميع المنازل الاخرى حزناً على وفاة المهدي المنتظر الذي ترك العالم مختاراً وذهب الى ربه

شرع بعض الحاضرين من عظماء البلاد ، يغسلون الجثة ثم لفوها بضع لفّات في كفن من الكتان ، في حين حفر الآخرون القبر في الغرفة الارضية التى مات بها المهدى ، و بعد ذلك حمل الخلفاء الثلاثة ورئيس الحاشية واحمد ود سليمان ناظر الخزينة ، الجثة ووضعوها في القبر ثم بنوا فوقها بالطوب وردموا عليها بالتراب و بعد ذلك رفعوا وجوههم الى السماء وصلوا عليه صلاة الموتى

خرج الجميع بعد ذلك — عدا الخليفة عبد الله — وأمروا « الملازمين » أولا ان يدخلوا على الخليفة و يقسموا يمين الاخلاص والطاعة له ، فلما اقسموا أمرهم الخليفة ان ينقلوا منبر المهدى الى باب المسجد وان يعلنوا بين الناس انه سيظهر بينهم

لم يغادر الخليفة عبد الله قبر سيده حتى تمت كل هذه الاستعدادات. فخرج ولما اعتلى المنبر لم يقو على كبح عواطفه فانحدرت دموعه على خديه وتهدج صوته وهو يخاطب الناس قائلا

— يا أصدقاء المهدي وأنصاره . ان ارادة الله لا ترد . فقد غادرنا المهدي ودخل الجنة حيث تنتظره الافراح الأبدية . فعلينا ان نطيع تعاليمه وان نتعاون كالبنيان يشد بعضه بعضاً . ان الاشياء

الحسنة في هذا العالم لاتدوم فحافظوا بكلتا يديكم على الكنز الذي صار لكم بعد ان صرتم اصدقاء المهدي وانصاره ، ولا تحيدوا قيد شعرة عن الطريق التي رسمها لكم . انكم اصدقاء المهدى وأنا خليفته ، فاقسموا ان تكونوا مخلصين لي

اخذت الجموع المحتشدة تمر به وتقسم له يمين الاخلاص والطاعة . وقد اشتد الزحام حتى كاد بعضهم يموت تحت أقدام الآخرين . وقد جنّ الليل وخيمت الظلمة على البلاد ولكن الخليفة لم يترك المنبر قبل نصف الليل

اجتازت فرنشسكا لنتيني ، أو الاخت تريزا ، أو الست زينب — كما سميت بأسماء مختلفة — كثيراً من العقبات والعراقيل قبل الدخول الى الغرف الخاصة بزوجات المهدى ، فانتهزت الفتاة هذه الفرصة وطلبت الى الخليفة عبد الله ان يأذن لها بالعودة الى دار المرسلين مدعية انها كانت تنتمي اليها قبل اسرها والمجيء بها الى « الحريم » في منزل المهدى

وكان الخليفة عبد الله داهية في سياسته فأجابها الى طلبها ظناً منه ان في وسعه قيادة زوجات المهدي الاخريات بدونها . وكان يعلم ماتكبده المهدى من المتاعب في حملها على الاذعان لارادته وعلم انها ستعمل دائماً للهرب ، على عكس النساء الشرقيات ، ولذا فضل اجابة

طلبها والظهور بمظهر المحافظة على تعاليم دينه فيما يتعلق بخدام الاديان الاخرى

وهكذا وجدت الاخت تيريزا (فرنشسكا) نفسها حرة طليقة مع فتاتين أخريين من الراهبات حيث عشن معاً في كوخ صغير واشتغلن بالتطريز وانتشلن انفسهن من مخالب الموت جوعاً



الفصل الخامس عشر

قصر النجومي بأم درمان

لما أرسل المهدى الدونا انوسنزا كجارية بيضاء الى عبد الرحمن ود النجومي، خيل الى المرأة ان السماء ستنطبق على الارض . فقد انتزع منها زوجها الذى لا بد ان يكون الآن قد هلك أو اشرف على الهلاك بدون عنايتها ورعايتها له ، والآن فارقت ابنتها المحبوبة بعد ان اعطتها ثوب الرهبنة لكي تتخذه درعاً يقيها شر النوائب والمطامع . وكان الشعاع الوحيد الذى يضيء كل هذه المحنة المظلمة ، أملها بانهما سيكونان معاً في الأسر والعار ، فلما وجدت انوسنزا الآن نفسها راقدة على « عنجريب » في بيت النجومي والسلاسل في قدميها ، أيقنت ان لا أمل لها على الارض وانها بعد ان فارقت جميع احبائها لا تلبث ان تخضع لاحكام القدر

* * *

احسن النجومي معاملة انوسنزا فاطلقها من قيودها بعد ان وعدته بان لاتحاول الهرب . والواقع، ما الفائدة من الهرب ؟ لاشيء غير الموت أو الوقوع في يد رجل متوحش آخر من الزنوج

وكان النجومي ، مثل المهدى ، شديد التمسك بتعاليم دينه .

فقالت انوسنزا في نفسها : اذا لم تستطع الالتحاق بابنتها فخير لها ان تبقى حيث هى الى ان تأتى النجدات وتفتح الخرطوم . وهكذا استقر رأيها على البقاء الى ان يقضي الله أمراً كان مفعولا

وقد خفف من متاعبها ان النجومي عاملها بالحسنى ، فخصص لها كوخاً داخل الحريم مع خدمها حيث عاشت في معزل لا يقلقها أحد الا بعض زيارات النجومي لانه كان يقضي معظم اوقاته في في ساحة القتال في الخارج

وكانت انوسنزا تجد تسلية في مراقبة اطفال النجومي وهم يدبون ويلعبون حولها ، وفي الاشتغال بزراعة البطيخ والخضراوات في الحديقة . ولم يكن لمنزلها نوافذ ولا به أثاث غير العنجريب والسجاجيد والمتكآت و بعض الأواني والاباريق النحاسية والأوعية .

ولما كان المنزل واقعاً تحت مستوى النهر فقد كان ماء النيل يتسرب الى البئر التى كانت خارج المنزل مباشرة ، فيستقون منها

لم تمض مدة وجيزة حتى صارت انوسنزا زوجة النجومي المحبوبة ، بعد ان رأت ان لا مناص من ان تصير احدى زوجاته .

ولما كانت تريد ان تكون صاحبة الكلمة في كل شيء وكانت في حاجة شديدة الى العطف ، فقد صممت على ان تقنع بما اصابها وتفوز بحب النجومي لأنها لم تكن تتمتع بتلك الشجاعة التى استطاعت ابنتها

فرنشسكا بفضلها ان تمنع المهدي من ان يصيرها زوجة له الا بالاسم، لان الفتاة ورثت هذه المزايا عن أبيها واجدادها

ارتاحت انوسنزا للخطة التى سلكتها لانها لم تضمر للنجومي شيئًا غير الاحترام الفائق . ولما كانت قد قضت اعوامًا طويلة زوجة لرجل صقلي جاف، وعاشت بين اوانى الطبخ وفي الاسواق، فانها لم تشعر بالصدمة التى اصابتها بصيرورتها زوجة لهذا الأمير العظيم الذي كان اكبر قائد معروف في معسكر المهدي، والذي اشتهر بالتقوى والورع بعد المهدي نفسه

أخذ النجومي بعد خضوعها له يغدق عليها نعمه وهباته ويشاطرها مسراته وافراحه . وقد اراد ان ينقلها الى الجناح الخاص بحريمه ولكنها فضلت البقاء في منزلها الصغير الذي نزلت به أولاً

وبينما كانت الدونا انوسنزا تعيش على هذه الحال، اذ وصلتها أنباء وفاة المهدي بالحمى الرقطاء . وكان النجومي رأى جثة المهدي بعد وفاته وشهد حفلة دفنه فاخبرها بقصة موته وقصة الراهبة التى اتخذها المهدي زوجة له والتى قامت بتمريضه وهو مصاب بالحمى بعد ان تخلت عنه زوجاته الاخريات، ثم اخبرها كيف ان الخليفة عبد الله يعتقد ان المهدي انما اصيب بهذا الداء القتال لانه نقض احكام الدين وحمل راهبة على ان تنقض عهودها ليتخذها زوجة له، وقال لها ان هذا رأيه ايضًا

اضطرب قلب انوسنزا عند ماسمعت قصة الراهبة التي كانت ترتدي ثياب الراهبات عند ما وقعت في الاسر وأخذت الى قصر المهدي، وخيراً لما سمعت من النجومي ان الخليفة عبد الله أمر باطلاق سراح هذه الراهبة وانها الآن تعيش في دار المرسلين قالت له

— أريد منك مكرمة ياسيدي

— سلي ما شئت يجب طلبك

— كلا . بل اصغ اليّ أولا لأني أريد منك مكرمة صغيرة

— تكلمي ياحبيبتي

— لا اخالك تجهل أنني لم اكتم عنك أمراً وانني لست زوجة مغتصبة اعطيك ما لا استطيع حبسه عنك وانما قدمت اليك كل سعادة تستطيع خادمتك ان تعطيها

فاكبر النجومي ما اظهرته له من الصداقة وصمم على ان يمنحها ما تطلبه، فسألها مرة اخرى قائلا

— تكلمي، ماذا تريدين ياحبيبتي ؟

— انك تعلم انني لست على دينك

— نعم لا اجهل ذلك

— اذن اعلم ياسيدي ان نفسي تتوق منذ زمن بعيد الى التغذي بلبان روحي، وأنني أريد ان اتغذى بهذه الالبان من تلك الراهبة

— هل تعدينى ان لا تحاولي الهرب بهذه الحيلة ؟

— كلا وأيم الحق ياسيدي

— اذن سأرسل في طلب تلك الراهبة لمقابلتك

— اخبرها ان التي تريد بركاتها هي التي كانت فيما مضى زوجة الدون زارو لنتيني

فقال النجومي

— سيكون ذلك

ثم نادى أحد خصيانه وارسله في قضاء المهمة فقالت انوسنزا

— ثم أريد منك مكرمة اخرى ياسيدي وهى ان تسمح بأن اكون معها على انفراد، لأن المؤمنين لا يقبلون ديننا واخشى ان يصيبنا أذى أو سخرية اذا رآنا احدهم اثناء القيام بفروض ديننا

— لقد وعدت ان لا تتركيني؟

— لن أتركك حتى أقع اسيرة مرة اخرى واعطى لزوج غيرك

— اذن لك ما تريدين

لم تمض ساعة حتى وصلت الراهبة فأدخلها الخصي الى المنزل. ولما كانت لأنوسنزا سلطة عظيمة في منزلها فقد أمرت الخصي بالانصراف، وعلى اثر ذلك ألقت كل من الأم والابنة نفسها بين احضان الاخرى. ولا عجب فقد انقضت ستة شهور على فراقهما في احوال كانت مفعمة بضروب الاهوال والمظالم

قصت فرنشسكا على أمها كيف اطلق سراحها، وحقيقة وفاة

المهدي وهى تصغى اليهـا برعب تجلت اماراته على ثغرها وعينيها ثم قالت وهي تلهث

— لو كنت مكانك ما استطعت القيام بهذا العمل، ولكنك لو لم تفعلي ذلك لما وقعت عليك عيناي هنا. فاخبريني هل استخدمت السم الذي اشتهر امره بين اسرة ابيك؟

— نعم استخدمته يا أماه. والا فأي طريقة اخرى كانت توصلني الى هذه الغاية؟

— لا أدري يا ابنتي، ولكن يا لها من جرأة مروعة!

— لا تبوحي بهذا السر لأحد يا أماه والا فان حياتي على الارض لا تطول يوما واحداً

— لك ان تثقي بذلك يا ابنتي

ألقت انوسنزا نفسها على «الديوان» ودفنت وجهها بين الوسائد ثم بكت حتى خيل اليها ان قلبها سينفطر

مالت فرنشسكا على أمها ثم همست في أذنها قائلة

— هل يؤلمك انني طلبت اليك ان لا تبوحي بسري؟

— كلا يا ابنتي، ولكن الا تستطيعين ان تدركي ما أعنيه؟

— كلا يا أماه. أرى من الامور العادية ان تعديني بكتمان سري

— ليس هذا ما اعني ياعزيزتي، ولكن دعينا منه الآن

كفت الدونا انوسنزا عن البكاء والعويل ثم جلست وكفكفت دموعها ، فجلست فرنشسكا الى جانبها وقالت

— الآن اخبريني يا أماه عن حياتك منذ افترقنا

اصيبت انوسنزا بنوبة جديدة فقالت وهي تتأوه

— انني امرأة ضعيفة فلم استطع المقاومة

همت فرنشسكا بسؤال أمها قائلة

— وهل استطعت ان تحبيه ؟

على انها لم تفه بكلمة وحبست سؤالها هذا ، وعولت على ان لا تخبرها قولا أو اشارة انها تحتقر الطريق الذي سلكته، ثم أرادت أن تغير هذا الموضوع المؤلم فقالت

— هل لك يا أماه ان تريني منزلك ؟

لم تستغرق فرنشسكا مدة تذكر في التفرج على المنزل وما فيه من الغرف الصغيرة المصنوعة من الطين وما احتوت عليه من السجاجيد الغالية والمقاعد . على ان الفتاة اعجبت إعجاباً صادقاً بالحلى السودانية وبأسلاب الحرب التى غنمها النجومي واغدقها على امها . ولكن يظهر أن انوسنزا نسيت وهي تعرض هذه الاشياء الفرق الشاسع بين سلوكها وسلوك ابنتها

أخذت الفتاة وامها تتحدثان بعد ذلك عن الدون زارو . وكانت انوسنزا لا ترتاب في وفاة زوجها وتعتقد انها اصبحت ارملة

ولولا اعتقادها هذا ما سلكت السبيل الذي سلكته . ولو انها لم تظهر في البداية شيئاً من الجلد والمقاومة واستسلمت لحب الراحة والرفاهية

أما فرنشسكا فكانت لا تعتقد اعتقاداً وطيداً بوفاة ابيها قبل ان يقوم دليل قاطع على ذلك وعولت على ان تقف حياتها على البحث عنه اذا كان لا يزال على قيد الحياة في أم درمان . على انها حزنت لما اظهرته امها من اللين والاذعان وتركتها في غرورها الى ان تواجهها بالخبر اليقين

احسنت فرنشسكا في الخطة التى سلكتها مع امها لأن النجومي زار انوسنزا بعد انصراف ابنتها فوجدها احسن حالاً بعكس ما كان يخشى ، ولذا وعد بأن لا يضع العراقيل في سبيل لقائها بالراهبة

الفصل السادس عشر

فرنشسكا تجد أباها

لم يكد الحراس الذين رافقوا فرنشسكا الى دار المرسلين ، لحمايتها من ان يتعرض اليها احد ، يعودون ادراجهم حتى شعرت الفتاة في نفسها بالصدمة التي اصابتها والحزن الذي افعم قلبها من جراء مقابلتها لأمها وحديثها معها . وفي الواقع اين لها ان تصفح عن امها لارتكابها مثل هذا الجرم الهائل ؟

فكرت فرنشسكا بأبيها : الوالد الشفيق المحب أيام كان بالقاهرة ، الوالد البائس الصبور في أيام الحصار الطويلة ، الوالد الجريح الضعيف الذي غادر مكمنه لمساعدتهما وتحمل الجلد بالسوط وآثر التعذيب والهوان على ان يبوح بمكانهما لولا الكلب المسكين الذي افشى سرهم وقاد الدراويش الى المكان فاخرجوهم من بطن الارض بتلك الحال المؤثرة — فكرت فرنشسكا بكل ذلك فكادت لا تصدق ان امها الدونا انوسنزا هي التي ارتكبت هذا العمل الشائن

ومع ذلك رأت الفتاة ان لا فائدة من تعنيفها ، قائلة اذا جعلتها شقية تعسة الى الحد الذي تستحقه فانها ستظل زوجة للنجومي وستعيش معه على كل حال . وعلى ذلك استقر رأيها على ان تبذل

أقصى جهدها في سبيل اسعاد امها مهما كان ضميرها غير مرتاح لعملها هذا . بيد انها رأت انه يجب عليها قبل كل شيء ان تقف على ما اصاب أباها ، وهي لاتدري ان من السهل ان تقتفي اثر أي رجل من البيض في أم درمان

وكان في دار المرسلين كاهن نمسوي اصيب بالحمى منذ وصول فرنشسكا الى الدار ولكنه لم يلبث ان ابلّ من مرضه ، فابلغها في الحال ان أباها في «الساير» وهو السجن العام في أم درمان ، وانه لا يعذب الآن بالضرب كما كان الحال منذ اربعة شهور . فقالت فرنشسكا

— ولكن اخبرني يا أبت كيف استطيع رؤيته ؟

— ان الامر بسيط . خذي معك طعاماً لانه في حاجة شديدة اليه . وسأرافقك الى هناك لأنني احمل ما نستطيع الاستغناء عنه من الطعام الى الاسرى كل يوم

وكان هذا السجن عبارة عن فناء واسع يحيط به سور قوي من الطين ، به بئر وغرفة تسمى « أم حجر» وغرف اخرى صغيرة مختلفة من الطين ، ارتفاعها اقل من قامة الانسان . وكانوا يضعون بهذه الغرف الاسرى الذين يستطيعون دفع نفقاتها . اما الغرفة المعروفة «بأم حجر» فكانت بناء صخريًا سقفها من القش ، ليس بها الا كوة

ضيقه مربعة وباب صخري قوي، وهذه الغرفة أعدت لمبيت الاسرى الذين لا يتمتعون بامتياز خاص

كان الحارس ادريس كلما اراد نقوداً يزج بالاسري في هذه الغرفة المربعة الى ان يشرفوا على الموت اختناقاً . وكان الاسرى من الرجال والنساء مكبلين بالحديد والاغلال الثقيلة لايستطيعون المقاومة ولذا كانوا يرشون الحارس ادريس ليسمح لهم بالنوم خارج هذه الغرفة الجهنمية

وكانت الشمس تسلط حرارتها على الغرفة الصخرية نهاراً فتتركها مثل الاتون ليلا . وقد زادت حرارتها شدة لأن النافذة الصغيرة لا تستطيع ان تنقل الحرارة المتجمعة الى الخارج ، في حين كانت انفاس الاسرى واجسامهم المكدسة تزيد الطين بلة . وقد زادت الروائح الكريهة والامراض التى اصابت الاسرى الزنوج ، الاخطار التي كان يستهدف لها الاصحاء منهم . وكان الاسرى مكدسين تماماً بحيث كان يتعذر سقوطهم على الارض واذا سقط احدهم مات تحت الاقدام

وكانت الحشرات والعقارب تملأ المكان فيتعذر النوم على الاسرى المساكين الذين كانوا يئنون دائماً ويتوجعون وهم يناضلون لاجل الحياة . وكانت اصواتهم ترتفع في بعض الاحيان

بصورة مروعة فيضطر الحراس الى القدوم اليهم وضرب الذين يكونون منهم على مقربة من الباب

اما الاسرى الآخرون السعداء الذين وضعوا في الغرف الاخرى المصنوعة من الطين فكانوا يرقدون على المصاطب اثناء النهار، ثم يبيتون في الرحبة الخارجية وهم مكبلون بالحديد ، وقد شد كل عشرين في سلسلة واحدة . وكان يسمح لبعض الاسرى الذين يمتازون بشيء من المعاملة الحسنة ، بالخروج الى الفناء اثناء النهار اما الاخرون فلا يصرح لهم بمغادرة الغرفة الصخرية سواء ليلا أو نهاراً . وكان كلما جاء اسير جديد انتظر حتى تفك القيود من اسير ميت فيكبل بها ويلقى مع الآخرين

على أنه كان يسمح لاصدقاء الاسرى بزيارتهم ، وهذا هو العامل الوحيد المخفف لويلاتهم ، ولكن هذه الزيارة لم تكن إلا لاطعامهم لأن الحراس كانوا لا يقدمون اليهم طعاماً ويدعون الاسرى الذين لا اصدقاء لهم ويتركونهم وشأنهم الى ان يموتوا جوعاً

وصل القس النمسوي الى السجن حسب عادته كل يوم . وكان الحارس ادريس يعرفه حق المعرفة ، فأوصاه الكاهن ان ينصح رجاله بعدم التعرض الى فرنشسكا . وكان يعرف ان الرجل من الذين يؤمنون بالخرافات الدينية فقال له ان المهدي نفسه اصيب بالحمى

الرقطاء لانه حاول ان يكره الفتاة على ان تكون زوجة له وهو يعلم انها راهبة مسيحية

تجاوز القس بقوله هذا واجب الصدق والامانة لانه كان يعرف جيداً ان فرنشسكا ليست راهبة ، وانها ليست إلا ابنة الدون زارو ومع ذلك ارتاحت نفسه لعمله هذا لانه لم يقصد من وراء كذبه هذا إلا الخير

كان ادريس الساير ، سجان أم درمان ، مثل الخليفة عبدالله من عرب كردفان ، من قبيلة «جوامه» وكان ابن زنا فلما سئلت أمه عن ذلك دافعت عن نفسها بقولها ان هـذا هو « الساير » أو العادة المتبعة في القبيلة ، ولذا لقب الطفل باسم ادريس الساير

وكان ادريس هذا زنجياً هائل الخلقة مثل المردة ، اشتغل باللصوصية وقطع الطرق قبل ان يعينه الخليفة حارساً على السجن الذي سمي باسمه . وكان يعيش من القتل والسرقة ، ولم يكتم هذه الحقيقة عن الاسرى بل كان يعترف بها كلما أراد رشوة منهم فيقول :

« لقد ولدتني أمي لصاً سفاحاً فارتكبت ما لم يرتكبه احد من الجرائم ضد القانون والدين ، ثم جاء المهدي فعلمني الصلاة ونصحني ان ادع الناس وشأنهم . فكروا فيما كنت وانظروا ما أنا عليه الآن . لقد كنت شراً منكم جميعاً ولكن الله صفح عني وسيصفح عنكم ايضاً اذا ندمتم واعطيتم « بيت المال » ما اخذتموه من الفقراء لان

في المدينة كثيرين يتضورون جوعاً وليس في « بيت المال » نقود لشراء طعام لهم . ان اطفالي وزوجاتي يصرخون لأجل الطعام وليست لدي تجارة ولا ارض ازرعها ذرة ولست الا اسيراً مثلكم. اما مرتبي فلا يكفيني شيئاً . لم يكن بمنزلي امس خبز ولكن اشكر الله الذي ساعدني في هذه المحنه التي سأنال عليها الجزاء في الاخرة . سأذهب الآن لرؤية اطفالي وسأتوسل الى الله ان يفك اسركم اذا ندمتم ، وان يعفو الخليفة عبد الله عنكم لانه يرى اعمالكم ويسمع اقوالكم مثل النبي الخضر »

وكان ادريس شديد الاعتقاد بالخرافات الدينية فكان ينفق نقوده على التمائم والتعويذات والدجالين ويعتقد بالحسد اعتقاداً مدهشاً . وكان قد سمع قصة فرنشسكا كلها مع المهدي فاستنتج منها انها حسودة واعتقد كغيره ان من يمسها بسوء لاينجو من الاذى . وعلى ذلك استقبل الفتاة بمظاهر الترحيب والاكرام كما لو كانت من أولياء المسلمين

ولما كان الكاهن قد لاحظ ان ادريس لا يغادر الفناء الى الخارج حتى يطمئن على راحة فرنشسكا ، فقد انتهز هذه الفرصة وذهب الى الغرف الداخلية ثم مر بالدون زارو وهو يتظاهر بالاهتمام باسير اوروبي آخر وقال له بلهجة كأنه يحييه تحية الصباح قائلا

— لا تظهر اقل دليل على الدهشة لان ابنتك هنا في ثياب راهبة

ثم مر به وعاد اليه ثانية وقال له

— لك ان تظهر بمظهر الشاكر المعترف بالجميل لشخص غريب لأن ادريس سمح لها بالدخول وهو يخشى عينها الحسودة، ولكن حذار ان يعرف انها صديقة لك أو قريبة

أخذ الحراس الطعام الذي كان يحمله القس عند الباب ليروا هل به شيء فاخر من المأكولات. اما فرنشسكا فلم يؤخذ منها شيء لان ادريس خاف شرها، وعلى ذلك لما عاد الكاهن اليها وهي واقفة مع ادريس خاطبها قائلا

— لم يبق غير رجل ايطالي من مواطنيك يدعى الدون زارو، وكان امينا لبيت المال في عهد غردون، ففي وسعك ان تعطيه مالديك من الطعام، وهو في حاجة قاسية اليه لانه مضت مدة طويلة لم يحصل فيها على شيء اذ ليس له اصدقاء يأتون له بما يحتاج من الطعام

كان فرح الدون زارو بلقاء ابنته بعد ان قطع كل رجاء برؤيتها أو برؤية امها عظيما، دونه فرح رجل انقذ من الهلاك المحقق. وكان الكاهن قد اوصاها بالدور الذي عليها ان تلعبه قبل دخولها السجن فقال لها

— اطلبي أن لا يأخذ احد من الحراس طعام الدون زارو. واذا أردت ان لا يسترق أحد عليكما السمع فليس عليك الا ان تزيحي قناعك وتلقي نظرة من عينيك على المكان فأن الجميع يفرون اذ ذاك

من وجهك ظنا منهم انك تريدين ان ترميهم بعين الحسد

وفعلا لما ارادت فرنشسكا ان تخوض مع ابيها في حديث لا تريد ان يسمعه سواه، رفعت قناعها كما أوصاها الكاهن واخذت تلقي نظرة على ما حولها فاختفى الجميع في الحال من امام عينيها حتى الكاهن نفسه لانه اراد ان يتظاهر بالخوف منها أمام الدراويش لكي يرسخ في اذهانهم هذا الاعتقاد

نجحت خطتها نجاحاً تاماً، فلما خلت الفتاة بابيها قالت

— لقد رأيت امي وهي بخير

— وأين هي ؟

ارادت فرنشسكا ان تحمي امها فقالت

— انها اسيرة في قصر النجومي

— اذن سيتخذها زوجة له لانها جميلة

لم يفه الدون زارو بشيء من السباب والشتائم التي تعودت فرنشسكا سماعها منه في المطعم، ولا عجب فقد بهت الرجل واصابه ذهول ولو انه كان لا يستطيع ان يتوقع غير ذلك متى وقعت امرأة حسناء في اسر فاتح سوداني، واخيراً نظر متأثراً الى قدميه وهي مكبلة بالاغلال والسلاسل والقيود الثقيلة التي تكاد تمنعه التحرك

على هذه الحال إذن سيقضي زوجها وحاميها الطبيعي بقية حياته وهو عاجز لا يستطيع ان يرفع اصبعا واحدا دفاعا عنها. انه ميت

بالنسبة الى هذا العالم . وعليها ان تتوقع الزواج بغيره في بلاد كهذه ، فلا هي بقادرة ولا هو بقادرعلى ان يعمل شيئا اللهم الا ان يخضع كل منهما ويحني الهام اذعانا لما ليس منه بد

جالت هذه الافكار برأس الدون زارو الى ان رفع وجهه في النهاية وسأل ابنته قائلا

— هل يحسن معاملتها ؟

— نعم ، انها زوجته المحبوبة

— اذن لا تزال انوسنزا سعيدة . انها تود ان تكون في المركز الأول دائما

فقالت فرنشسكا دفاعًا عن امها ولو انها كانت تمقت ما فعلت

— انها تلعب دورها فى هذه البلاد مثل كل واحد منا يا ابت . انها تحبك وسأحمل اليك اخبارها كل يوم لان الرجل قد رخص لي ان آتيك بالطعام كل يوم كما سمح لي بمقابلتها كلما شاءت

ثم غادرته ، فقال الدون زارو على اثر خروجها

— رحماك يا الله . مسكينة يا انوسنزا

ذهبت فرنشسكا في اليوم التالي الى امها فاخبرتها وهي تبكي ان أباها لا يزال على قيد الحياة ، وانه شفى من جراحه ولكنه مهدد بخطر الموت جوعا ، فبكت انوسنزا ، على انها لم توجه همها الى حل المشكلة التي نجمت عن وجود زوجها الأول على قيد الحياة

وانما حصرت مجهوداتها في اطعامه وانقاذه من مخالب الجوع ، وفعلا فكرت في الأمر من وقت ان غادرتها ابنتها الى ان عاد اليها النجومي في المساء بجبته يحمل حزمة من الحراب بعد استعراض جنود قبيلة جديدة الحقها الخليفة بجيشه ، فقابلته انوسنزا بمظاهر الابتهاج والفرح التي يحبها ، ولو انه لم يكن بقلبها ابتهاج حقيقي ، فسألها قائلا

— مما تضحكين يا نور عيوني ؟

— انني اضحك من الطريقة التي يعاملني بها القديسون

وكان النجومي يعلم ان زوجته تصلي دائمًا الى القديسين فسألها قائلا

— هل يعاملونك معاملة سيئة ؟ هل اشهر عليهم حربًا عوانًا ؟

— ماذا تظن ؟ انك لا تدري . هل لي ان اخبرك ؟

— نعم بالله

— ولكن هل تعدني ان لا تمس الشخص الذي سأخبرك عنه ؟

— اذن هل قديسك رجل ؟

— كلا . ولكن القديسين يعذبونني لاجل رجل

وكان النجومي يعلم انه لا يستطيع أحد ان يجرأ على التعرض لزوجته المحبوبة التي يستطيع ان يحميها بجيش جرار ، ولذا قال غاضبًا

— ومن هو الرجل ؟

— هو زوجي الأول . امين بيت المال في عهد غردون

فسألها بلهجة تنم عن القلق قائلا

— هل تريدين العودة اليه ؟

نظرت انوسنزا اليه قبل ان تجيبه، ثم ذكرت انها لا تستطيع رؤية الدون زارو اذا ارادت لانه اسير في السجن ، وان كل ما في وسعها عمله يتوقف على حب النجومي لها ، وعلى ذلك اجابته قائلة

— اواه ياسيدي . كيف يخطر هذا ببال خادمتك ؟ ان الفرصة الوحيدة لسعادتها على الارض هي ان تكون زوجة لك . انني زوجتك وهو الآن مدفون في سجنه

فاظهر الجندي العظيم ارتياحه لقولها هذا فاستطردت في حديثها قائلة

— انظر الي ياسيدي . الا تراني كيف ارتجف ؟

وكانت انوسنزا ترتعد فعلا ، فقال

— نعم

— ليس اضطرابي هذا خوفا منك لانك لم تعاملني بالقسوة مرة

— اذن لماذا ترتعدين ؟

— لانني اخشى ان أطلب اليك شيئًا ارغب فيه رغبة شديدة

— لماذا لا تطلبين ما تريدين ؟

— لانني خائفة

— لقد منحتك ما تريدين

— لا يكون ذلك قبل ان تسمع طلبي . انني قلقة لان زوجي الأول كاد يشرف على الموت غير مرة في سجنه ، لانه ليس هناك من يطعمه

— سآمر بأرسال الطعام اليه كل يوم وسأطلب الى الخليفة عبد الله ان يصدر أوامره بان لا ياخذ طعامه احد

— لاداعي لذلك ، فقد يظن الخليفة عبد الله انك تتآمر مع امين بيت المال في عهد غردون ، فتعرض نفسك للخطر لاجلي

— ماذا تريدين مني عمله اذن ؟

— اذا شئت ارسلت اليه جزءاً من طعامي الخاص مع الراهبة التي تأتي لزيارتي فتحمله اليه كل يوم . وسيسمح ادريس لها بتقديم الطعام للاسير بنفسها لانه يخشى عينها الحسودة

فارتجف الرجل بالرغم من شجاعته المعروفة وقال :

— هل لها عين حسودة اذن ؟

كادت انوسنزا تضحك سخرية من قوله هذا، على انها ذكرت في الحال ان ليس من مصلحة ابنتها ان يذاع عنها هذا الأمر ، فقالت

— ان عينها لا تؤذي غير الاعداء . أما الاصدقاء فتجلب لهم كل خير وسعادة

فقال النجومي بارتياب

— اذن هي ساحرة ؟

فقالت انوسنزا بجرأة

— كلا . انها قديسة تفعل المعجزات . والآن هل تسمح لي بما عرضته عليك ؟

— افعلي ما شئت ياحبيبتي

اخذت فرنشسكا بعد ذلك تأتي كل يوم لأخذ الطعام وتمكث مدة طويلة مع امها . وقد قلق النجومي في البداية لكثرة زياراتها ولكنه غض النظر لما رأى ان ذلك من دواعي سرور زوجته المحبوبة ، وقد راعت انوسنزا من جهة اخرى ان لا تتفق زيارات فرنشسكا مع وجود النجومي لانها خشيت ما قد يصيب الفتاة من الحزن بسبب رؤيتها لزوج امها السوداني

وكانت فرنشسكا تخشى ان تقع في السجن مشاكل بسبب ما تعوده الحراس من أخذ الطعام الجيد ولكنهم كانوا يخافون ادريس . وفوق ذلك تلقى الحارس أوامر خاصة بمعاملة الدون زارو معاملة حسنة لأن الخليفة انما ارسله الى السجن وكبله بالحديد لكي يحول دون هربه ولأنه كان يريد أن يستخدمه يوما ما اميناً لبيت المال

لم يعدم النجومي جزاء على حسن صنيعه ورقة شعوره ، فقد كان الخليفة عبد الله لا يثق باحد من رجاله اللهم الا برجلين وهما شقيقه يعقوب والحارس ادريس . ولما كان السودانيون معروفين بالميل الشديد الى الجمال فقد أخذ ادريس يغذي عينيه ويمتعهما بجمال الراهبة .

وكانت عبادته لها لاتتعدى مجرد النظر فلم ينشأ عن اعجابه بها مايمسها أو يؤذيها . وكانت نيته الحسنة ظاهرة جلية بحيث كانت فرنشسكا تقضي معظم أوقاتها في تخفيف الالام التي يعانيها الاسرى المنكوبون

لم يظهر ادريس شيئا من الحذق والتبصر ، فكان يفشي جميع اسرار الخليفة للاسرى والحراس لكي يظهر لهم سلطته ويزيد في تعذيبهم، وكان يفخر قائلا انه لاتمضي مدة وجيزة حتى يؤتى بالنجومي الى السجن مكبلا بالحديد مثلهم ، ولولا انه أحسن قائد ولا يزال الخليفة في حاجة اليه لمقاتلة اعدائه لقضى عليه منذ زمن بعيد

وكان ادريس يكثر من الكلام مع الدون زارو ويكرر له مايسمعه من الخليفة عن النجومي ، فكان هذا ينقل مايسمعه الى إبنته وهذه تبلغ امها ماسمعته من ابيها، فتحذر انوسنزا النجومي من الاخطار التي تتهدده وتكشف له عن حقيقة موقفه مع الخليفة ولو ان النجومي لم يكن يعرف الخوف ، وكان الخليفة لا يزال في حاجة اليه

غير انه كان هناك سبب آخر لا يدري ادريس عنه شيئاً مع انه السبب الاكبر الذي اغرى الخليفة عبد الله على ان يفكر في إهلاك النجومي والقضاء عليه ، وهو ان الخليفة أراد ان يحظى بأنوسنزا

وكانت انوسنزا مثل عدد كبير من السودانيات تسير وتنتقل وهي سافرة ترتدي ثيابًا جميلة بصفتها زوجة النجومي . واتفق ان وقعت عينا الخليفة عليها مرة وهي راكبة في أم درمان فرأى انها غير تلك المرأة التي شاهدها عندما قدمت اليه في ثيابها الرثة ، مكبلة بالحديد وفي حالة ذعر شديد ، وعندئذ قال في نفسه انه اذا قتل النجومي في ساحة القتال ، أو قتل في مؤامرة يدبرها له فان انوسنزا ، بوجهها المستدير وقوامها الجميل ولونها الابيض ، تصير ملكا له . وهكذا اخذت عوامل الحقد والبغضاء تشتد في قلب الخليفة من نحو قائد جيوشه

وكذا لم تعدم الراهبة جزاء حسنا على ما كانت تتحمله من المتاعب والمشاق ، فقد سمع النجومي انها تعاني ، مثل الدون زارو ، آلام الجوع في دار المرسلين فأمر ان تعطى جزءاً معينًا من الطعام كل يوم

الفصل السابع عشر

— فرنشسكا ويعقوب —

مضت بقية عام ١٨٨٥ دون حادث يذكر ومرت بهذه الاسرة الغريبة كما نظمتها الابنة المتنكرة في ثوب الراهبة التي كانت تنقل الطعام والرسائل بين الأم في «حريم» النجومي والأب في سجن الخليفة . وقد خيل الى انوسنزا التي تهيأت نفسها لقبول الظروف بسهولة ، ان الاسرة ستسير على هذا النظام الى اجل غير مسمى . أما فرنشسكا فكانت ترى من جهة اخرى ان هنالك سيفًا معلقًا على رؤوسهم ، في حين كان الدون زارو يسائل نفسه مراراً قائلا هل هذا كل ماخبأه له القدر

وقعت الهزات الأولى من الزلزلة قبل ان ينصرم نصف عام عند ما تلقى الخليفة نبأ بأن الجيش المصري الانكليزي هاجم محمد عبد الخالق في «جنيس» وطرده منها بعد ان فقد الف رجل من جنوده فأرسل الخليفة في طلب النجومي على عجل لأنه كان القائد الوحيد الذي يستطيع الاعتماد عليه في الوقوف في وجه جيش منظم من البيض . ولما سافر النجومي شمالا الى بربر على ظهر اسرع الابل ، لم تمض مدة وجيزة حتى قامت المتاعب في سبيل توزيع الطعام من منزله ارتد الجيش المصري مرة اخرى بعد الانتصار الذي اصابه ، ولم

يأت شهر مايو حتى كانت القوات المصرية قد ارتدت الى حلفا . وارتد الانكليز الى معسكرهم في اصوان

أمر الخليفة عبد الله بالقيام بزحف عام على مصر عند ما عاد النجومي الى أم درمان يحمل نبأ ارتداد الجيش المصري . وقد رقى النجومي الى قائد السرية المصرية فزحف بجيشه بابهة الفاتح بعد ان احرق منزله في أم درمان وأخذ على نفسه عهداً بأن لا يعود حتى يفتح مصر . أما زوجاته فارسلهن الى معسكر خارج المدينة في الجهة البحرية الى ان يتأهب للقائهن في بربر

جمع الخليفة عبد الله جميع الخلفاء والأمراء عند سفر الجيش ثم مد الجميع ايديهم صوب القاهرة وصاحوا ثلاثا قائلين « الله اكبر ». وبعد ذلك وقف الخليفة عبد الله ومد ذراعه اليمنى مع سبابته وصاح بصوت عال قائلا

— ايها الانصار ، لا تخافوا القتال لأجل مصر . ستتحملون اعباء ثقيلة في معركة اسوان و بعدها ستقع جميع البلاد المصرية في ايديكم . ايها الانصار ، ستتحملون متاعب عظيمة أيضاً في فتح مكة و بعد ذلك ستكون البلاد كلها لكم

ارسل الخليفة عبد الله بعد ذلك رسله الى مصر ، يحملون منشورات الى جميع السكان في الجنوب والشمال ، يدعوهم فيها الى

الثورة بروح واحدة في وجه الترك وكل من حذا حذوهم في عدم الايمان بالله وحضهم على اهلاك غير المؤمنين

افعم الحزن قلوب الأم والأب والأبنة . وكانت الأبنة اشدهم حزناً لأن قلبها كان اعظم ارتياباً من نحو الحياة . ولم يكن يخطر ببالها ولا ببال الدون زارو شيئاً عن خطر الجوع الذي سيتهددهم ثانية لان افكارهما كانت مشتغلة بفراق انوسنزا و كانت هذه اكثر اشتغالا منهما لفراقهما، ومع ذلك كانت مبتهجة من جهة اخرى لمغادرة أم درمان والسفر الى بربر ثم الى مصر بعد ان يفتحها النجومي

سافر النجومي بعد ذلك تاركا زوجاته لكي يتبعنه فى الزوارق بعد اسبوعين أو ثلاثة

كانت فرنشسكا تذهب الى امها كل يوم ، لأنه كان لا يزال في وسع انوسنزا ان تعطيها شيئاً من الطعام للدون زارو الذي كان اشد حاجة منها اليه . الى أن حدث ذات يوم ان وصلت فرنشسكا الى المعسكر كعادتها فعلمت ان النجومي ارسل يطلب زوجاته وانهن سيسافرن في صباح اليوم التالي، فوقع عليها هذا الخبر كالصاعقة وعز عليها فراق امها بعد الشهور الستة التي قضتها الفتاة في توقع الشر، بعد الشهور الستة التي انقضت في تحمل آلام الفراق والويلات في « حريم » المهدي

استقر رأي الفتاة على ان تقضي الليلة الاخيرة مع امها في

المعسكر، ولكن لم يكد ينتصف الليل حتى جاء يعقوب شقيق الخليفة عبد الله الى المعسكر على رأس كوكبة من الفرسان (الملازمين في الحرس) يتقدمهم رجال يحملون المشاعل لانارة الطريق ، ثم سأل عن الخيمة التي تنام فيها انوسنزا فلما دله الخدم عليها ارسل أحدى الجواري لكي تأمر انوسنزا بالخروج الى مقابلته

زعمت انوسنزا انه يحمل اليها رسالة من الخليفة لأجل النجومي فارتدت ثيابها ثم خرجت لترى ما الخبر، فابلغها يعقوب في الحال ان لا تسافر الى بربر لانه تبين انها جاسوسة وان لديه أوامر باحضارها أمام الخليفة

كان هذا هو السبب اذن في ان الخليفة عبد الله اقترح على النجومي ان يرسل زوجاته واولاده الى بربر، ولو بقوا في أم درمان لاقدم، على الارجح، على اختطاف زوجة القائد الذي سافر ليقود جيشه لفتح مصر، ولكن لما كانت بربر على مقربة من ساحة القتال فقد رأى الخليفة أن من السهل ان يقول انه اكتشف انها جاسوسة وانه ليس من الحكمة ان تكون قريبة من الاعداء

اشار يعقوب الى جواد معه وامرها ان تركبه ، فصرخت انوسنزا اذ ذاك قائلة

— فرنشسكا ، فرنشسكا ! المساعدة ، المساعدة !

وكانت الفتاة نائمة داخل الخيمة بثوب الرهبنة فهرعت الى الخارج في حين صاحت انوسنزا مرة اخرى قائلة

— النجدة ، النجدة ! انهم يريدون اختطافي

تقدمت فرنشسكا الى يعقوب ، وعيناها تتقدان غضبا بصورة مريعة في ضوء المشاعل. وقد مكثت الفتاة لحظة لا تستطيع الكلام، ولكن ماذا تفيدها الكلمات ويعقوب لا يعرف الرحمة ولا الشفقة ؟ على انه كان مثل اخيه عبد الله ممن يعتقدون بالخرافات فحول وجهه عنها وغطى عينيه بأحدي يديه واشار بالاخرى الى رجاله قائلا

— خذوها بعيداً . الا ترون انها تنظر الي بعين الحسد ؟

سمعت فرنشسكا أوامر يعقوب ورأت تردد الرجال فصاحت في وجه يعقوب قائلة

— انك لا تستطيع الافلات من عيني بتغطية وجهك . وانتم ايها الملازمون ، كونوا على حذر واعلموا ان كل من يضع منكم اصبعا على هذه المرأة يصاب هو ونساؤه بالحمى الرقطاء التي أماتت سيدكم المهدي . لقد ارسلت السماء تلك الحمى الى المهدي جزاء ما صنعه معي فاذا اغضبتموني أصابتكم بها كذلك واولكم الأمير يعقوب . فتقدموا الآن وضعوا أيديكم على هذه المرأة أيها الملازمون . تقدم أنت أولا أيها الأمير يعقوب لكي تقع عليك اللعنة قبلهم

فتقهقر الملازمون الى الخلف بدلا من ان يتقدموا اليها، وانسحب

الأمير يعقوب كذلك . ولكن لما كان قد قضى حياته كلها مخلصاً لشقيقه الخليفة ، فقد أمر رئيس الملازمين ان يعود الى الخليفة مسرعاً ويخبره بما جرى و يطلب اليه القدوم بنفسه لينفذ ارادته المقدسة لأنه خليفة المهدي

على انه لم تكن للخليفة عبد الله رغبة في الذهاب ، معتقداً انه يكون في مأمن من الشر ما دامت عين فرنشسكا بعيدة عنه ، ولم يرد ان يلحق سيده المهدي قبل ان يتمتع بالحكم والحياة وما ينتظره من ملذات العالم ومسراته العميمة التي ليس لها حد ولا نهاية

وقد دهش الخليفة عبد الله عندما سمع بوجود فرنشسكا في المعسكر ، زاعماً انها كانت تجهل كل شيء عن مكان انوسنزا . ثم عدل ، حرصاً على حياته، عن البحث عن علاقة المرأتين وهز كتفيه في حين شعر بشيء من القلق من نحو النجومي وما عساه ان يقول اذا سمع بهذا العمل وهو الآن في ساحة القتال على رأس جيش يحسب له الف حساب وعلى ذلك ارسل الخليفة الى يعقوب يأمره ان يتمهل و يخطف الدونا انوسنزا سراً اذا آنس من الفتاة فتوراً في مراقبتها ، ثم اذا لم يجد حيلة لاختطافها ، يدعها تسافر مع زوجات النجومي الآخريات الى ميدان القتال حتى اذا قتل النجومي الذي اشتهر بالاستخفاف بالاخطار ، لا يعدم الخليفة وسيلة لاعادة هذه المرأة البيضاء ثانية الى أم درمان

غير ان فرنشسكا لم تظهر أقل دليل على الفتور أو عدم اليقظة فجاءت بصندوق وضعته على باب خيمة أمها ثم جلست عليه وأخذت تنظر باستخفاف الى كل من يجرأ على الاقتراب منها ، الى ان طلع النهار فشيعت أمها الى ظهر « الذهبية » التي أرسلها النجومي الى ميناء الخرطوم لنقل زوجاته . ولما اقلعت السفينة عادت فرنشسكا الى أم درمان وهي تسير منفردة تحت حرارة الشمس المحرقة ولكنها كانت تشعر بالفوز على الأمير يعقوب وشرذمة من احسن الفرسان في جيش الخليفة

على ان شبح الجوع كان يرقص أمام عينيها وهي لا تكاد تصدق انه سيزول يوماً ما . وفوق ذلك صدمتها فكرة مؤلمة قبل ان تصل بها قدماها الكليلتان الى دار المرسلين، فقالت انها هي التى اوقعت نفسها في هذا المأزق الحرج ، وهي التى حرمت نفسها عشرة أمها ، فقد كان في وسعها اذا ذهبت أمها الى قصر الخليفة — كما كان يريد — ان تدخل القصر وتسعى في خلاص أبيها، وقالت في نفسها اذا كان لا بد ان تقضي أمها حياتها بين حريم الفاتحين فلماذا لا تقضيها في حريم خليفة المهدي بدلا من حريم أحد قواده ؟

جالت هذه الافكار في عقل الفتاة ولكنها رأت من جهة

أخرى ان من العار والشقاء ان تتنقل أمها من منزل أمير الى آخر وان تستهدف لمثل هذه المهانة الشائنة

وعلى ذلك أصابت الفتـــاة في ما صنعت ، وقد شعرت بذلك ولـكنها أخذت تعدد الثمن الذي يجب عليها ان تدفعه

الفصل الثامن عشر

معركة توشكي

ضرب الدراويش خيامهم حول الهضبة التي تحيط رمالها الذهبية بمعبد أبي سمبل العظيم حيث كان على سبعة آلاف أو ثمانية آلاف نفس منهم ان يبيتوا تلك الليلة في هذه الخيام . ولم يكن بين هؤلاء الرجال غير ثلاثة آلاف أو اربعـــة آلاف مقاتل ، والباقين من النساء والاطفال الذين يتبعون دائماً جيوش الدراويش اثناء زحفها

كان ود النجومي نفسه ، قائد هذا الجيش ، يتحدث مع زوجته البيضاء المحبوبة في خيمته . وكانت اواصر الالفة قد توطدت بينهما تماماً ، فكان يعجب بجمالها وبياض جلدها ، في حين أدركت هي ان من حسن حظها ان يتخذها زوجة له ، عالمة ان من عادة السودانيين سبي النساء واخذهن الى حريم الفاتح

قضت انوسنزا عاماً في أم درمان واكثر من ثلاثة أعوام في ساحات القتال حول مدينة بربر وهي في عشرة النجومي دون ان تجد منه شيئاً غير ضروب الحنان والعطف والشهامة ، وهي الصفات التي لا تستطيع المرأة ان تطمع بأكثر منها

لم يكن النجومي في طباعه واخلاقه مثل الخليفة عبد الله واخيه

يعقوب . نعم كان قاسياً على اعدائه في الحرب ، ولكن القسوة لم تكن من شيمته . وكان داهية غداراً في القتال ولكنه كان حريصاً على البر بوعوده لا يحيد عن كلمته . فكان الجميع يثقون به عدا الخليفة عبد الله فانه كان يرمي كل من يبلغه هذه الحقيقة بالخيانة ، عدا ابنه وشقيقه يعقوب

يقول اناس ان النجومي كان يريد الانضمام بجيشه الى المصريين قبل المعركة لولا وجود امراء « بجاره » والحرس الذي عينه الخليفة لمراقبته ، وكان الخليفة يعتقد ذلك . ويقولون ان هذا هو السبب الذي حمل الخليفة على ان يكره النجومي على اخذ زوجاته واطفاله معه حتى لا يستطيع الافلات الى الاعداء دون ان يراه احد ، وقد استدعاه عبد الله الى أم درمان لكي يتحقق من اخلاصه وولائه ثم ارسل رجاله حكاماً على بربر ودنقله ليعرقلوا مساعيه ويراقبوه

ولكن الذين يرمون النجومي بهذه التهمة يخطئون . نعم كان النجومي لا يشعر نحو الخليفة بما كان يشعر به نحو المهدي من قبل لانه كان يعتقد ان هذا نبياً . على انه كان يعد فتح مصر تنفيذاً لوصية نبيه المهدي ، وعلى ذلك لم يمنعه شيء من القيام بمهمته غير دهائه الحربي الذي دله على انه لم يتلق بعد الامدادات الكافية للزحف على ضفاف النيل وهو يقاتل اعدائه ويتغلب عليهم

قال النجومي في تلك الليلة مخاطباً انوسنزا

— سأغادرك في فجر الغد يانور عيوني وربما غبت عنك شهراً كاملاً

ولم يكن معهما في الخيمة احد فمالت انوسنزا برأسها واسندته الى منكبه وقالت بدلال

— ولماذا ياسيدي ؟

— لأن الاعداء يفكرون في الاحداق بي بقواتهم وهذه البقعة ليست صالحة لقتال العرب

— ولكن ماذا تستطيع عمله ؟ يجب ان تعود الى دنقله طلباً للسلامة، واذا عدت اليها مسرعاً اضطررت الى تركنا في يد الاعداء

— لا أريد العودة الى دنقله لكي ارسل مكبلا بالحديد الى أم درمان ثم تؤخذ القيادة مني ويتولاها أمير غيري ، وانما أريد ان افعل كما فعلت مع غردون باشا

— كيف يا سيدي ؟

— اصغي اليّ . لقد اخبرني جواسيسي ان الانكليز في اسوان شرعوا يغادرونها ولا تمضي ثلاثة أيام حتى لا يبقى لهم جندي فيها

— لا يمكن ان يكون جواسيسك سمعوا صواباً ، لان الانكليز لا يغادرون حصناً دون ان يتركوا به حامية

- سيتركون عدداً قليلا منهم لأن جيشهم كله تقريباً سيزحف لمساعدة هؤلاء المصريين

— ولكن ماذا يكون بعد ذلك ؟

— ماذا يكون بعد ذلك ؟ ألا ترين أنهم سيجدون اثناء زحفهم الى هنا للقائي انني استوليت على مدينة اسوان ؟ واذا ما بلغنا المدينة حصلنا على ما نريد من الذخيرة والمؤن واستطعنا الوقوف في وجههم الى ان ترسل الينا النجدات الكبيرة من دنقله وبربر فأقضى عليهم كما قضيت على جيش هكس باشا

— ان هذا مستحيل ياسيدي فسيكون بالمدينة قوة تكفي لصد هجماتك . وفوق ذلك سيعلمون انك زحفت على اسوان وقبل وصولك اليها يعود جيشهم ثانية لأن البواخر اسرع من الجيش . نعم في وسعك ان تحرق القرى وتقتل اهلها ولكنك لا تستطيع ان تستولى على مدينة حصينة بها حامية من الجنود النظامية المدربة

— لقد استوليت على الخرطوم التي كان بها من المدافع والبنادق والسكان ضعف ما بمدينة اسوان الآن

— ولكن لم يكن بها جيش مدرب ، ولو وصلت اليها قبل سقوطها باخرة واحدة تقل جنوداً مدربة لما استطعت الاستيلاء عليها

— انهم كانوا يقتلون عدداً اكبر من رجالي ، ولكن كان لا بد من الاستيلاء عليها في النهاية

— انك شجاع ياسيدي بحيث كنت تؤثر الموت مع رجالك على ان تتنحى عن الهجوم

— هكذا الحال يا حبيبتي

فقالت انوسنزا

— ربما كان سيدي على حق ولكن الاستيلاء على اسوان شيء آخر لأن الاعداء سيبعدونك عن النهر بزوارق المدفعية الجديدة اثناء زحفك على المدينة فيموت رجالك ظمأ قبل وصولهم اليها . واذا فرض ووصلت الى هناك فان عليك ان تجتاز النهر في وجه مدافعهم وبنادقهم القوية

— لا تخافي يا حبيبتي فان الله سيرسل ملائكته لمساعدة شعبه

هبت اذ ذاك عاصفة من الحب على قلب انوسنزا فتعلقت بعنق النجومي وتوسلت اليه وهي تبكي ان يعدل عن خطته هذه وينثني راجعا الى دنقله لانها رأت انها تكون اقرب الى السلامة منها في أي وقت مضى خلال السنوات الخمس الماضية . وفي الواقع كانت انوسنزا واثقة من ان جيشه سيقهر، وان نساءه قد لا يصيبهن اذى لأن « البجارة » الذين كانت تخشاهم اكثر من الاعداء سيهلكون كذلك اذا ظلوا على ولائهم للخليفة .على انها كانت تشفق على هذا القائد الشجاع ولا تريد ان يلقى بنفسه الى التهلكة عبثا .ولا عجب فقد عاملها بالحسنى ولم يضربها أو يذلها، واحبها حبا عميقا نبيلا واظهر

لها خير العواطف التي يستطيع ان يظهرها رجل بدوي . ولذا كانت قانعة ان تعيش تحت حمايته في هــذه البلاد المتوحشة واظهرت له من العواطف ما كانت تظهره لزوج من جنسها

على ان النجومي خرج يتفقد المعسكر ويدور حوله قبل الفجر بساعتين ، في ليلة أول أغسطس سنة ١٨٨٩ لـكي يرى هل أعد رجاله كل شيء للزحف

انتظر النجومي حتى ان طلع النهار . وكان رجاله لا يعباون بحرارة الشمس ، ورأى ان الغبار الذي سيثيره رجال كشافته سيحجبه عن أعين المصريين الذين سيرون معسكره كما هو فوق المرتفعات التي تلي ابو سمبل . وكان لديه الوف من اتبـاعه في المعسكر ولذا كان في وسعه ان يخلف فريقا منهم لـكي يظن المصريون انه لا يزاله معسكراً في مكانه

اصدر النجومي أوامره هذه ثم زحف مجتازا النجد الى الاطراف الغربية لبعض التلال الواقعة على مسافة اربعـة أميال في جنوب توشكي وعلى بعد نحو ثلاثة أميال من النهر . وكان معه ثلاثة آلاف وثلاثمائة مقاتل واكثر من اربعة آلاف رجل آخر من اتباع الجيش وكثيرون من الأطفال والنساء الذين حاول ان يحمل الجنود على تركهم فى ابي سمبل كما ترك نساءه هناك

وكان الجيش المصري في هذا اليوم عينه — أول شهر أغسطس

سنة ١٨٨٩ — قد زحف الى توشكي . ولـكن معسكرهم كان على النهر ، وكان لديهم الماء متوفراً في حين كانت الزوارق المسلحة بالمدافع تحميهم وتمدهم بالمؤن والذخيرة

وكان القائد البريطاني الذي تولى قيادة الجيش المصري اذ ذاك يعرف جيداً المأزق الحرج الذي وصل اليه الدراويش لان رئيس كتبة الأمير عبد الحليم — أحد أمراء النجومي — كان قد فر منذ اسبوع وابلغ الـكولونيل ودهوس ان النجومي لديه قوة صغيرة من الجنود، وان ستمائة جندي منهم فقط يحملون البنادق، وان ليس لديهم غير مئتي جمل و ١٣٢ جواداً ثم لما رحل النجومي عن معسكره في بلتجا — وهي على مسيرة يومين من أبي سمبل — حيث استراح ثمانية عشر يوماً حملت قوة من جنود الاستكشاف المصرية على المعسكر المذكور فوجدت به كثيراً من المرضى والجرحى الدراويش وكثيراً من المهمات التي خلفها النجومي وراءه لأن الدواب التي كانت معدة لحملها نحرت وأكلت . وقد نقل الجنود المصريون الاحياء من المرضى والجرحى الى مستشفى المعسكر المصري وهم في حالة يرثى لها وفوق ذلك عثر « العبابدة » بعد مسيرة يوم على كثير من الدروع التي كان يلبسها الصليبيون من جنود سانت لويس ، والتي احتفظ السودانيون بها كارث ثمين نحو ستة قرون ، ملقاة على الارض . وكان

النجومي يفخر بهذه الدروع التي كان يرتديهـا فرسانه المشهورون وقد وجد مع هذه الدروع مدفعان تركا لأن الدواب التي كانت تجرهما قتلت لاطعام الجنود

لم يكن ثمة ريب في ان النجومي كان في موقف حرج، ومع ذلك كان القائد الانكليزي قلقاً جداً في تلك الأيام . لأن المصريين لم يلتقوا بجيش من الدراويش منذ هزم النجومي هذا نفسه جنودهم التي كانت بقيادة هكس باشا وغردون وقواتهم الاخرى في سنار، هذا اذا استثنينا المناوشة التي وقعت في « ارجين » حيث أظهر المصريون مهارة في صد الدراويش ومنعهم من الاشتباك معهم بقواتهم الرئيسية الكبرى

وكانت الجنود المصرية التي يتولى قيادتها السردار قد تدربت على الحركات العسكرية مدة ست سنوات ، فاظهرت في المناوشات الأخيرة مقدرة حربية عظيمة . وكان القائد يود احتياطيا ان تكون لديه ولو ارطة واحدة من الجنود الانكليزية المعسكرة في اسوان لكي تعزز جيشه على انه رأى بعين خبرته العسكرية ان الارض التي عسكر فيها النجومي ليست صالحة لقتال الجنود البيض، وانه اذا استطاع الدراويش أن يزحفوا الى الأمام بضعة أميال دون قتال الى الاراضي الصخرية الوعرة التي تنتهي عند « قصر ابريم » نقصت قيمة جيشه

من الوجهة الحربية فكان عليه والحالة هـذه ان يمنع النجومي من الزحف ويبقيه في مكانه وان يحمله على البقاء حيث هو الى ان تأتيه النجدات من اسوان . وكانت لديه قوة من الفرسان الانكليز ولكنها لم تكن كافية . أما الجنود السودانية فلم تكن قد برهنت بعد على قيمتها الحربية في المعارك الكبرى ولو انها اظهرت صفات غير منتظرة في مناوشتين وقعتا اثناء زحف الجيش الى توشكي

خندق القائد بقواته في القرية الى مسافة تمتد ثلاثة أميال على شاطىء النهر، في بقعة مزروعة عرضها ثلاثة ارباع الميل . فوضع في كل من طرفيها فصيلة من المشاة، ووضع الفرسان المصريين وفرقة الهجانة في الوسط، ونزل الفرسان الانكليز في منزل العمدة وحديقته . ولم يدع القائد وسيلة من وسائل الاحتياط الا اتخذها، مع انه كان يظن أن النجومي، وهو القائد الماهر، لايقدم على مهاجمته وهو مخندق في موقع منيع تحميه نيران المدافع من الزوارق النهرية

وهكذا ربض الجيشان كأسدين، أحدهما على ضفة النهر والآخر فوق المرتفعات على مسافة بضعة أميال

ركب السردار جواده في اليوم التالي من شهر أغسطس واقترب مواقع العدو في حين تفقدها الضباط من فوق المرتفعات بالمنظار فتبين لهم بصورة جلية أن المعسكر المضروب فوق تلال ابي سمبل هو

معسكر النجومي بلا مراء اذ شاهدوا عدداً كافياً من الرجال محتشدين هناك وقت الصلاة

وكان السردار قد جاء الى توشكي بدلا من أبي سمبل لأنه وجد بها سهلا فسيحاً يمتد الى النهر ومكاناً صالحاً لضرب معسكره في القرية على ضفة النهر وفوق ذلك كانت التلال الرملية والصخور تصل الى النهر في أبي سمبل . فلا عبرة بما يفعله النجومي في أبي سمبل أو في جنوبها لأن عليه ان يجتاز توشكي أولا اذا كان يريد الوصول الى غرضه شمالا

كانت تبدو على النجومي مظاهر الثبات ، ولكن كان للمنشور الذي اصدره السردار الى الدراويش ووعد فيه كل من يسلم اليه منهم بالعفو والامان، تأثير عظيم فقد رأى الدراويش أن الجيش المصري — دون الجنود الانكليزية — قوة لا يستهان بها . وعلى ذلك أخذ الفارون ينسلون ليلا وقد قالوا أن النجومي أراد بأظهار جموده هذا اخفاء خطة ترمي الى الزحف شمالا عند الفجر قاصداً اسوان

أراد السردار ان يتحقق صحة ماسمع فخرج في فجر اليوم التالي مع الفرسان المصريين والانكليز وفرقة الجهانة ، تاركا بقية قواته في خطوطها ، مستعدة لنجدته اذا تطلب الأمر ، فأجتاز السهل نحو معسكر النجومي ليرى هل هناك حركة من جانب قواته . ولما وصل الي نقطة تبعد ميلا عن المعسكر وقع في اسره بعض الجمّالة فعلم منهم

ان النجومي على وشك التحرك . وفعلا تقدم القائد بجنوده نحو ثلث ميل آخر فرأى الدراويش يتأهبون للزحف ويحملون اثقالهم على ظهور الأبل القليلة التي كانت لديهم

وقعت اعين العرب الحادة عليهم في الحال، فأرسلوا حملة البنادق اليهم بسرعة ولكن السردار كان متأهباً للقائهم بهجانته الذين ترجلوا عن ابلهم وكمنوا فوق الآكام واصلوا الجنود الزاحفة عليهم ناراً حامية .في حين استطاع الفرسان المصريون في خلال هذه الفترة ان يرتدوا الى مركز حصين آخر

حمل العرب بقواتهم المتزايدة ، فأرسل السردار في طلب مدفعية الخيالة وأمر رجاله بالانسحاب الى مسافة نصف ميل ، الى تل منعزل ليس أمامه ستريقيه ،فمكث الدراويش مدة طويلة قبل أن يزحزحوا منه الفرسان وفرقة الهجانة من مراكزهم بنيران بنادقهم

كان السردار قد دعا اليه قبل ذلك المشاة وعددهم ١٤٥٠، جندياً من الأورطات التاسعة والعاشرة والثالثة عشرة السودانية لشد ازرهم ، فرابطت هذه القوات عند سفح تل على مسافة ميلين خارج توشكى مع مدفعية الخيالة التي أرسل في طلبها

اكتسح الدراويش التل بعد انسحاب الهجانة والفرسان منه ثم احتلوه .وقد رأى الذين شهدوا هذه المعركة مشهداً غريباً لاينسى

فقد تحول الخط الطويل من المناوشين الذين كانوا يتبادلون النيران مع الفرسان المترجلين ، الى جيش كبير فجأة كأنما حدث ذلك بقوة سحرية ، وخرج من بين التلال والصخور نحو ثلاثة آلاف من حملة الحراب الدراويش وتدفقوا الى الأمام يتبعهم جيش آخر من رجال المعسكر والنساء والأطفال للاستيلاء على مواقع المصريين . وكانت الساعة التاسعة صباحاً ، فسادت السكينة عدا طلقات البنادق التي كان يطلقها المناوشون بسرعة من وقت الى آخر

اطلقت فرقة المدفعية الخيالة النيران فجأة من مسافة الفي ياردة ولكن سرعان ما ادرك السردار انه أخطأ لأن النجومي الداهية كان قد حول هجومه الى الجهة الشمالية الغربية قبل ان تصاب جنوده بخسارة تذكر ، وترك رجاله من غير المقاتلين الى الغرب قاصداً التلال الواقعة ناحية قصر ابريم ، وهي الحركة التي أراد السردار أن يتجنبها واشتبك مع الدراويش لمنعهم منها . ولا ريب في انه كان على القائد ان يدعهم في طريقهم الى ان يشتبكوا مع المشاة دون ان يتعرض لهم بمدفعيته ، ولكن هذا ما حدث

اطلقت مدفعية الفرسان نيرانها على الدراويش وهم يجتازون ميدان القتال على مسافة الفي ياردة ، ولكنها لم تستطع صدهم ولم تحل دون تنفيذ الحركة التي قام بها النجومي بمهارة ، فتدفق جيشه الى الجهة الشمالية الغربية واقام المناوشون من رجاله ستاراً في وجه المصريين

وهكذا أصاب النجومي فوزاً ادبياً بالرغم من الخسارة التي أصابته ، وبالرغم من سوء طالعه وقلة معاونة الخليفة له . وعلى كل حال أراد ان يستدرج الجيش المصري بعيداً عن النهر

أظهر السر فرنسيس جرنفيل ، سردار الجيش المصري ، خبرة عسكرية باستهدافه الى هذه الأخطار ومحاولة صد النجومي مهما كلفه ذلك . وقد كان لديه الرجل الذي يمكن الاعتماد عليه في تأدية هذه المهمة ونعني به الكولونيل هربرت هوراتيو كتشنر ، فأمر اللواء الثاني المؤلف من الأورطة الأولى المصرية والأورطة الثانية المصرية والأورطة الحادية عشرة السودانية بمهاجمة الدراويش واطلاق مدافعه على مؤخرتهم وأمر فرسانه بمهاجمتهم . وكان نصفهم من الانكليز فانتشروا على شكل دائرة تزداد اتساعاً وطوقوا الدراويش ومنعوهم من التقدم

لم يكن بين قواد المهدي من يفوق عبد الرحمن النجومي شجاعة أو تعصباً . فقد كان يعتقد أن تضحية روحه وارواح الألوف الذين تحت إمرته مفتاح الجنة . على انه لم ينس ان هلاك غير المؤمنين وتضحية النفس لهما مزاياهما ، فكان يفخر بصفته قائداً عظيماً بما يصيبه من النصر في الحروب

أراد النجومي أن يستدرج أعداءه الى ارض صخرية وعرة ويفتك بهم كما فتك بهكس باشا ، لانه كان يعلم ان امضى سلاح

يحارب به أعداءه هو حرمانهم من معدات النقل والمؤن كما انه لم يجهل ان النهر أقوى سلاح في يد اعدائه

تلقى النجومي معلومات ذات قيمة من جواسيسه . فوقف على جميع حركات الجيش المصري وسكناته علم أن الانكليز على مسيرة بضعة أيام خلفهم وان اسوان خالية من حاميتها

كانت أوامر الخليفة تقضي على النجومي بالزحف شمالا وتجنب لقاء هذه الجيوش وتركها في مؤخرته ثم اجتياح المدن والقرى في مصر وقد قال له الخليفة ان لا يخشى هذه الحركة لانه متى استقر في مصر بجيشه ثار المصريون في وجه الترك والانجليز . على أن الخليفة لم يرسل اليه الامدادات الكافية أو دواب الحمل غيرة منه وحقداً عليه ، وعلى ذلك لم يستطع النجومي التحرك بسرعة لقلة الابل والمهمات . ولكن عيب النجومي الاكبر كان جهله أخلاق الرجال الذين وقفوا في وجهه فزعم انهم سيواصلون الزحف على شاطىء النهر ويدعونه ينقض بقواته على مصر كالنسر

كانت هذه الفكرة السبب الذي دعاه الى قضاء اليوم الثاني من شهر اغسطس عبثاً في توشكي ، مع انه كان في وسعه الوصول الى الاراضي الصخرية التي يريدها بعد مسيرة يوم واحد . وقد ابلغه جواسيسه أن الجيش المصري لم يتلق بعد الدواب اللازمة لاقتفاء اثره داخل الصحراء فزعم انه سيقع تأخير كالعادة. ثم أراد من جهة

أخرى ان يعطي الانكليز وقتاً كافياً للابتعاد عن اسوان الى مسافة يتعذر استدعاؤهم اليها . وهكذا برهن النجومي على انه يجهل المعدات الحربية الحديثة ، فلم يحسب حساب البواخر النيلية التي تستطيع ان تعود بالجيش الى اسوان وقت الحاجة . على انه لم يكن بالغر الابله لانه لما القى نظرة على الجيش المصري ورأى الفرسان المصريين والبريطانيين ، صاح قائلا

— يجب ان نتاهب للقاء خالقنا اليوم

لم يدرك النجومي بالرغم من مهارته الحربية المناورات العسكرية الحديثة فزعم أن الانسحاب من أحد المراكز اعتراف بالخذلان وعلى ذلك لما ركب الفرسان والهجانة دوابهم وشرعوا يرتدون من المراكز المتتالية ، كلما استعد رجاله للاستيلاء عليها ، اعتقد ان جيش السردار لا يقوى على هجمات قواته كلها ، وان في وسعه التخلص من هؤلاء المناوشين ومواصلة الزحف شمالا الى اسوان

على أن وصول مدفعية الخيالة الى ساحة القتال غير الموقف فقد كان في وسع نيرانها أن تنزل بجموع الدراويش المتراصة خسارة كبيرة مالم يزحف النجومي غرباً أو شمالا بغرب بعيداً عن منطقة الخطر . وقد نفذت أوامره هذه بسرعة ومهارة عظيمة ولكن سرعان ما ركضت جياد المدفعية الى مركز جديد وصبت نيرانها على رأس جيشه كما فعلت أولا

اظهر النجومي عناداً ومجازفة، فتجاهل وجود المدفعية وواصل الزحف في طريقه ولـكنه لقى أمامه كتشنر وفرسانه الذين ترجلوا وأخذوا يصبون من قمم التلال ناراً حامية في اتجاه زحفه . وقد علم النجومي بغريزته الحربية ان الفرسان لا يقفون في طريقه مالم تؤيدهم قوة من المشاة وعلى ذلك تأهب للقتال ومنازلة خصومة المراكز

استولى النجومي فجأه على اربعة تلال واقعة في غرب الارض التي ثبت فيها الفرسان المصريون ، وفي طرفة عين شوهـدت قمم التلال ملاي بحملة البنادق.اما حملة الحراب فلم ير لهم احد اثراً، ولما اتم النجومي توزيع قواته على هذه الحال ،ركب الى تل على مسافة ميل في المؤخرة ونصب علمه فوق صخرة مرتفعة يحيط به رجاله لآخرون الذين اعتادوا مرافقة جيشه وكانوا لايقلون شجاعة في مطاردة الاعداء عن حملة الحراب

رابط قوات النجومي في مراكزها الجديدة وتأهبت للقتال منتظرة هجوم الجنود المصرية عليها ،في حين اخـذ حملة البنادق من الدرويش يتبادلون النيران مع الفرسان الذين ترجلوا عن جيادهم وكمنوا بين الآكام

لما ارسل السردار، الكولونيل كتشنر مع الفرسان لصد النجومى ومنعه من التقدم كانت مشاة اللواء الاول من جنود الارطة التاسعة والعاشرة والثالثة عشرة السودانية تتأهب لتناول طعـام الصباح ،

ولـكن وصل اذ ذاك جندى من ساحة القتال يحمل الامر بزحف المشاة فترك الجنود طعامهم وتأهبوا للزحف في الحال ،يحمل كل منهم « زمزميته » ومئة رصاصة، ولم تمض عشر دقائق علي تلقى الامر حتى كانوا في طريقهم سائرين وقد افعمت قلوبهم بشرا وابتهاجا

وكانت هذه القوة بقيادة الماجور ارشيبلد هنتر ، فوصل برجاله تحمية التلال الى مؤخرة الفرسان المصريين الذين كانوا يقاتلون الاعداء مترجلين

شاهد النجومى وهو جالس فوق المرتفع ان خط المرتفعات الصخرية الممتدة على مسافة نصف ميل امام جنوده من حمـلة البنادق ، قد غص بجنود المشاه فأدرك انه اخطأ فيما ذهب اليه وان عليه ان يقاتل اعداءه في معركة عامة قبل ان يتمـكن من مواصلة الزحف شمالا

رأى النجومي بعينه الحادة اللواء الثانى من الجيش الذي خرج على اثر اللواء الاول ، يتحرك عند مؤخرته لنجدة أعدائه . وكان جنود اللواء الاول يطلقون الآن نيرانهم فتأهب النجومى للهجوم ولم يكن قد مضى نصف ساعة على ابتداء المعركة حتى لاتفوته الفرصة .
اماجنوده من حملة الحراب فقـد اخفاهم عن الانظار الى ان تحين الفرصة لمباغتة المصريين

على ان الكولونيل ودهوس الذي تولى الآن قيادة اللوائين

كان يعرف اساليب النجومي الحربية — بعد معركة ارجين — فنشر جنود الاورطة التاسعة السودانية نحو نصف ميل الى اليمين وأمرهم بالزحف حول ميسرة الدراويش، وكان غرضه من ذلك ان يحمل النجومي على اظهار قواته التي اخفاها بين الصخور

وجد الضابط الذي قام بهذه الحركة عند زحفهم ان هناك فصيلة من حملة الحراب تتأهب لمهاجمة أورطته من التل الذي أراد تطويقه فأمرها بالوقوف ثم عززها بفصيلة من الاحتياطي وتلقى الحملة بنيران حامية لم يستطع الدراويش احتمالها ففروا الى مكامنهم تاركين ١٥٠ قتيلا على جانب التل . بعد أن هرعت فصيلة من الاورطة الثانية المصرية لشد أزر السودانيين الذين حملوا على الدراويش واستولوا على التل الاول

تجلت بسالة الجنود المصرية والسودانية في هذه المعركة ،فقد حمل الدراويش عليهم المرة بعد الاخرى لكي يجلوهم عن التل وصب رجالهم من حملة البنادق عليهم نارا حامية . ولما رأى السردار ان المعركة حمي وطيسها امر الجيش كله بالزحف في حين استمرت المدفعية تطلق نيرانها على التلال حتى اقتربت الجنود منها

اراد النجومي ان يقوم بحملته قبل ان تؤثر نيران المصريين تأثيرها في قواته، فدفع بفصيلة جديدة من حملة الحراب على الارطة العاشرة السودانيه التي كانت في القلب ولكن الجنود ثبتوا في هذه المعركة

ايضا وصدوا الدراويش ثم طاردوهم واستولوا على الاكمة الواقعة في وسط التلال التي يحتلها النجومي

أما الارطة الثالثة عشرة السودانية فلم يكن نصيبها مثل الآخرين لانها لقيت فرقة من حملة البنادق ، فقتل وجرح من رجالها نحو سبعين جنديا في بضع دقائق . ولكن لم يكن هناك بد من انتزاع التل الذي اختفى الدراويش بين صخوره فأمدهم السردار بالارطة الاولى المصرية وامرهم بالهجوم ومواصلة القتال الى ان استولت الارطات السودانية الثلاث والارطة المصرية الاولى على جميع التلال التي كانت في قبضة النجومى ، فاحتشد العرب خلف التلال وقاموا بجهود المستيئس لاستردادها فحملوا المرة بعد الاخرى بحرابهم واعلامهم حتى وصلوا الى قمم التلال ولكنهم كانوا يرتدون عنها في آخر لحظة امام نيران المصريين الحامية ، واخيرا خسر الدراويش ثلاثين علما وفقدوا جميع مواقعهم عدا تل واحد في المؤخرة

ركب الجنود حرابهم في بنادقهم ثم انحدروا من فوق التلال ، فحملت الاورطتان التاسعة والعاشرة على الميسرة والميمنة والتفت الارطة الثالثة عشرة حول التل لقطع مواصلات العرب. ثم شرعوا يشقون لانفسهم طريقا بحرابهم خطوة بعد اخرى فوق التل. فلما انقطعت مواصلات العرب اظهر النجومى صفات عالية كقائد

فاخفى رماته بين الصخور بعيـدا عن الحملة في الوسط فكبدوا الهاجمين اكبر خسارة بينما كان جنوده من حملة الحراب يقاتلون بعناد ويدافعون عن كل شبر من الارض. وقد توقع القائد ذلك فقابل الدراويش بنيران حامية من الارطة المصرية والارطة الحادية عشرة السودانية . وقد اشتهر جنود الارطة الحادية عشرة السودانية من بين الجنود الاخرى بالاقدام والبسالة المدهشة فلم يعبأوا بالنيران الشديدة ولا بسقوط احد ضباطهم جريحا لانهم ارادوا ان يلقوا بحرابهم اسنة الدراويش وان يحملوا على هذا التل الذي اشتد عليه النزاع والخصام . وكان بين ضباط هذه الارطة ، ضابط القى بنفسه الى التهلكة غير هياب ولا وجل ، هو لامبرت اليفانت الذي تاقت نفسه الى ان يضرب ضربة صادقة في سبيل خلاص المرأة البيضاء التي في معسكر النجومي ، والتي صورتها له مخيلته بانها فرنشسكا ضالته المنشودة

اخيراً استولى الجنود على التل الاخير الذي ثبت فيه الدراويش حول خمسة وسبعين علماً من اعلامهم . وقد شرع الاعداء يرتدون الى التلال الواقعة في المؤخرة حيث كانت امتعتهم تحت ظل راية النجومي الكبرى ولكن سرعان ما كف الجميع عن السير إذ شاهدو فارساً منفرداً يعدو بجواده نحوهم ليجمع شملهم للهجوم

رفع السردار منظاره وحوله نحو هذا الفارس ولكنه سمع

اسيراً عربياً بجواره يصيح قائلا : « النجومي . النجومي » فلما رأى السردار موقفه هذا أمر الفرسان بالهجوم على الدراويش وهم في حالة ترددهم هذه

كان هذا فوق طاقتهم . فقد كان في وسع النجومي ان يقف في وجه حملات المشاة اذا اتت من هذا الجانب فقط ، ولكن لما رأى رجاله ان الفرسان سيحملون من الطرف ، كذلك رفضوا البقاء وعلى ذلك ارتد النجومي الآخر وكان مصاباً بجرح بليغ ، الى معسكره حيث تأهب الدراويش للوقوف في وجه اعدائهم لآخر مرة

وكان المركز الذي التجأ اليه النجومي ورجاله حصيناً ، وفوق ذلك تلقى حملة الحراب امدادات لا تقل عن ثلاثة آلاف أو اربعة آلاف رجل من رجال المعسكر الذين اضطروا الى القتال لوقوعهم في هذا المأزق الحرج

أمر السردار جنوده بهجوم عام بعد ان اطلقت المدافع قنابلها على موقع الاعداء الاخير . وقد عكس النظام الآن فسار اللواء الثاني في الطليعة بموسيقاه مع الارطة الحادية عشرة السودانية . وقد خشي السردار ان تصاب هذه الارطة بخسارة جسيمة اذا ثبت الدراويش في موقفهم كما ثبتوا من قبل ولكن سار بها لامبرت اليفانت فاقتحمت المرتفعات وطردت العرب وساقتهم أمامها وقد اختلط الحابل بالنابل وكان لامبرت يسير في طليعة الجنود غير شاهر سيفاً ولا مسدساً

ولكنه كان يهتف لجنوده فيثير في صدورهم الحماسة . ولا عجب فقد اعماه شوقه للوصول الى معسكر النجومي عن كل خطر ، لانه كان يجهل ان زوجاته واطفاله لا يزالون في ابي سمبل فزعم انه سيحل السر الرهيب وتنجلي غموضه عند ما يطرد آخر جندي من جنود الدراويش عن قمة التل

ارتد المدافعون أمام هذه الحملة فانقض اللواء باجمعه على معسكر النجومي فوق الهضبة الخلفية ، ولم يبد الدراويش هنا أية مقاومة بل ألقوا اسلحتهم وفروا هاربين لا يلوون على شيء

وكان النساء يتوقعن الاسر مع اطفالهن حسب عادة السودانيين في الحروب . وقد استولى المصريون في هذه المعركة على شيء كثير من الخيام والطبول والسيوف والحراب والدروع القديمة والسجاجيد . ولكن لم ير أحد امرأة بيضاء بين الاسرى ولا ذكر عنها شيئاً وكذا لم يشر أحد بكلمة الى وجود المعسكر الآخر في ابي سمبل على مسافة عشرة أميال

ولكن سرعان ما اغفل ذكر هذه المسألة فجأة ، فقد شوهد بين الدراويش المرتدين جمل يخفره اربعون مقاتلا من الجنود المنتقاه . وكان الجمل يحمل جسما طويلا ممدوراً ، زعم السردار انه مدفع فأمر فصيلة من الفرسان الذين كانوا يطاردون الاعداء بالاستيلاء عليه فلما اقترب الفرسان من الحراس اطلقوا وابلا من رصاصهم عليهم فقتلوا الجمل

وعددا كبيراً منهم ثم حملوا على الباقين وأمروهم بالتسليم . ولكن قام معظم الرجال الذين سقطوا من قبل وهاجموهم بحرابهم فقتل معظمهم ولم يبق غير قليل ممن يخفرون الجمل ، فدعاهم الفرسان الى التسليم مرة أخرى ولكنهم اعادوا الكرة ثانية الى ان قتلوا على بكرة أبيهم عدا رجلا منهم لحق بجواد وفر

وجد الفرسان على ظهر الجمل جثة لا مدفعاً ، فواصلوا مطاردة الدراويش . على انه جاءت بعدهم قوة من المشاة فعلم ضابطها ان هذه الجثة، جثة أمير كبير فارسلها الى توشكي مع جثة صبي لا يتجاوز الخامسة من عمره وجد قتيلا بجانب الجمل

وهكذا انتهت حياة عبد الرحمن النجومي

عرف اسرى الدراويش جثة النجومي فقصوا ما شهدوه من ضروب البسالة التى أظهرها هذا القائد في قتاله الاخير . فقد جرح في بداية المعركة ولكنه ظل في موقفه . ثم جاء أحد امرائه مسرعاً بعد استيلاء الارطات السودانية الثلاث على الموقع الاول وحثه على الهرب ولكن النجومي ركب جواده وحض جنوده المنهزمة على الثبات . ثم جرح مرة أخرى وقتل جواده من تحته فحمله الفارون من جنوده الى المعسكر حيث اصر على ان يحملوه الى مركزه الاول تحت علمه المنصوب فوق الصخرة ، ولكن اتفق ان اصابته

القنبلة التي نسفت عامه فخر مغشى عليه ، فحملوه على ظهر الجمل ليعودوا به الى أبي حمد ليموت أو يعود الى الحياة بين زوجاته

كان النجومي جثة هامدة عندما حركه الفرسان وتركوه جاهلين غنيمتهم الثمينة

هذه هى معركه توشكي التى انتهت بقتل الف ومائتي جندي من خيرة جنود الخليفة ، ووقوع اربعة آلاف – معظمهم جرحى — في اسر المصريين ، وفرار الف وأربعمائة من رجال المعسكر الى دنقله مع من بقوا على قيد الحياة . وقد هام هؤلاء على وجوههم في الصحراء بعيداً عن المراكز المصرية فقطعوا الطريق في مدة وجيزة تدعو الى العجب ولسكن معظمهم هالك في الطريق جوعاً وظماً

كان يوم توشكي هذا يوماً تاريخياً مشهوداً ، لا لأن فيه اندحر النجومي وقواته فقط ، بل لانه أقام برهاناً قاطعاً على ان الجيش المصري اذا احسن تدريبه وقيادته يأتى العجائب . فقد كان الغرض صد النجومي ومنعه من التقدم حتى تصل الجنود الانكليزية ، ولكن الجيش المصري أصاب فوزاً باهراً في هـذه المعركة دون مساعدة الانكليز . ومن ثم قاتل المصريون والانكليز معا في صف واحد . فكان هذا أول مسمار دق فى نعش الخليفة عبد الله التمايشي

الفصل التاسع عشر

— الاسيرة البيضاء —

لعب الجيش المصري دور الدراويش ، فأرسل الفرسان لمطاردة فلول جيش النجومي الذين فروا بقيادة الامراء الخمسة الى التلال الواقعة في الجهة الجنوبية الغربية . ولكن كانت الفرسان لا تستطيع السير اسرع من الدراويش في مثل هذه الارض الوعرة ، ولو كانت الجياد تتمتع بالراحة التامة ، في حين كان من السهل التغلب عليها وسط الصخور . وقد رأى السردار ان الفرسان أعياهم التعب بعد قتال دام ثمان ساعات فاصدر أمره اليهم بالكف عن القتال بعـد مطاردة الدراويش مسافة ميلين وتشتيت شملهم بحيث لا يستطيعون لم شعثهم فتدفق الفارون ، وهم لا يزالون يحملون اعلامهم ، في ممر صخري ضيق بين التلال

أما المشاة فتولوا اسر الاسرى والاستيلاء على معسكر الاعداء وحمل الاسلاب الى معسكرهم ، في حين ارسل الفرسان الى مراكزهم للاستراحة والاستعداد للقيام بحركة استطلاع في اليوم التالي وقد كان على الكولونيل كتشنر ان يتولى قيادة الفرسان لانه كان من المحتمل ان يلتقى الدراويش بفصائل جديدة مرسلة من الجنوب ، لم تصل الى

النجومي فى الوقت الملائم للاشتراك في المعركة . وفعلا التقى الفرسان المصريون في اليوم التالي بكثيرين من الفارين الذين سلموا انفسهم اليهم عن طيب خاطر فسيقبوا الى توشكي . ولما وصل الفرسان الى النجد الواقع وراء ابو سمبل رأوا المعسكر الذي ترك به النجومي زوجاته واطفاله

ورابط الفرسان الانكليز هنا وارسلوا دورية الى توشكي لابلاغ القائد خبر هذا المعسكر، في حين سار الكولونيل كتشنر بالفرسان المصريين وزحف بهم عشرين ميلا نحو الجنوب الى « بلانجا » لاسر الفارين وانقاذ الجرحى والمرضى الذين تركهم الدراويش اثناء تقهقرهم على جناح السرعة ، دون أن يفكر بزوجة النجومي البيضاء ولا بنسائه واطفاله بل تركهم دون ان يتعرض لهم بعد ان أمر الفرسان الانكليز بالبقاء في المعسكر حتى تصل أوامر السردار اليهم

* * *

كان بين رجال الجيش المصري رجل واحد لا يفتأ يفكر بالزوجة البيضاء ، وهذا الرجل هو البكباشي لامبرت اليفانت الضابط بالأورطة الحادية عشرة السودانية ، فكان منظاره لا يتحول عن مراقبة ناحية الجنوب اثناء اشتغال رجاله بالتقاط الاسرى والغنائم ثم بعد عودتهم الى معسكرهم بجانب النهر

كان لامبرت يعتقد ان الكولونيل كتشنر سيرسل انباء هامة

فلما قدم رجال الدورية قابلهم في طريقهم الى السردار وسأل رئيسهم قائلا

— ما لديك من الانباء ؟

فحياه الجندي وقال

— لا ادري بالضبط ياسيدي غير اننا عثرنا على حريم النجومي فوق ابي سمبل ولم يسمح لاحد بدخول الخيم . وقد غادر القائد الفرسان البريطانيين لدى المعسكر وسار بالفرسان المصريين الى بلانجا بعد ان اعطاني تقريره الذي سأوصله الى السردار

حيي الجندي ضابطه مرة اخرى ثم قصد خيمة السردار يتبعه لامبرت وهو يسير بقدر ما سمحت به قدماه

وكان السردار قد فض التقرير وأخذ يتشاور مع الكولونيل ودهوس والماجور هنتر فوصل لامبرت إذ ذاك وحيي رؤساءه ثم وقف على مسمع منهم . وكان الضباط الثلاثة يبتسمون فكان ذلك دليلا على وصول انباء سارة

لفت الماجور هنتر نظر السردار الى لامبرت وهو واقف فضحك السردار وقال

— حسن يالامبرت . لقد اسرنا حريم النجومي فهل هذا ماتريد؟

— اعرف ذلك ياسيدي . فقد شاهدت رجال الدورية وسألتهم عما لديهم من الانباء وعلى ذلك اعتذر لخروجي عن حدود النظام

فقال السردار

— اظن ان في وسعي غض النظر عن ذلك ولو كنت مكانك لفعلت مافعلت ، ولكن اخبرني ماذا استطيع عمله لاجلك ؟

فقال لامبرت باقدام

— لقد ذكر الجواسيس ان في حريم النجومي سيدة بيضاء ، وقد اسرت صديقة لي في الخرطوم

— وهل تظن اذا صدق الجواسيس ان المرأة هي بعينها ؟

— نعم ياسيدي

— اني أعد ذلك من محاسن الصدف ، ولكن أرى انك لم تأت الى هنا لتقص عليّ هذا النبأ كحادث اتفاقي لذيذ

— كلا . ياسيدي

— اذن لديك اقتراح تريد عرضه عليّ ؟

لم يتمالك السردار الابتسام وقال

— هل تريد التطوع للمجيء بمعسكر النجومي ؟

— نعم يا سيدي

— انك ستحسن القيام بالمهمة لان قلبك هناك . اظن ان خير وسيلة للمجيء بهؤلاء الاسرى هي ارسال باخرة تقلهم الى هنا مع عدد من الابل لتقلهم الى المرساة . لم يذكر الكولونيل كتشنر عددهم ولم

يسمح لاحد بفتح الخيام ولكن ارى ان عددهم نحو خمسين او ستين منهم الاطفال والجواري

— قد يبلغ عددهم مائة يا سيدي

— حسن سنرسل من الابل ما يكفي خمسين شخصا .اظن ان ارطتك هي الحادية عشرة السودانية يالامبرت ؟

— نعم يا سيدي

— مر الطابور الاول ليتأهب للسفر كحرس للابل ، واذا ما وصلت الى ابي سمبل تفقد الشاطيء لكي تتحقق خلوه من الأعداء ثم ارس بالباخرة وارسل الابل الى البر مع نصف الطابور وقم بهذه المهمة بنفسك . وستقف الباخرة في وسط النهر اثناء غيابك الى ان تعود وتعطيها الاشارة بالدنو من الشاطيء . واذا نزلت الى البر فاذهب في الحال الى الهضبة ، وسأرسل الفرسان الذين وصلوا الآن الى الضابط الذي يتولى الامر هناك لكي يرسل بعض المرشدين لمقابلتك في طرف النجد عند المعبد ، وعليك ان تسير الى المعسكر بعد ذلك مباشرة فتأخذ الحريم وتعود بهن الى الباخرة

وكان الفرسان قد ساروا الى ابي سمبل عند الفجر ولم يكن النهار قد انتصف بعد ، وعلى ذلك كان هناك وقت كاف

نظر السردار الى لامبرت وهو يجد السير لتنفيذ اوامره بابتهاج ، ثم قال

— مسكين هذا الشاب . سيشعر بصدمة قوية لأن من الحماقة الاعتماد على ما يسمونه محاسن الصدف

فقال الماجور هنتر

— ان مثل هذا الشاب ينال اجره مقدما

سيقت الابل الى الباخرة النيلية « ابراهيم باشا » تتبعها الجنود السود ، واخيرا ركب لامبرت الباخرة ووقف بجسمه المعتدل الطويل ووجهه الجميل وعينيه اللتين كانتا تلمعان ببريق الامل المتقد في صدره

خرجت الباخرة نحو الجنوب فسارت بين شاطئين من الرمال الذهبية الجميلة . على ان لامبرت لم تكن له عين لتنظر جمال الصحراء على الضفة الشرقية وما فيها من الصخور المثلثة الطويلة التي اتخذها بناة الاهرام انموذجا لهم ، وطبقات الملح البيضاء التي يخيل الى الناظر اليها أنها مغطاة بطبقة جديدة من الثلج ولا عين لترى اشجار النخيل التي ارتفعت مثل اعمدة على حافة النهر ، وآثار الحروب التي دلت عليها القرى التي أكلتها النيران — لم ير لامبرت شيئا من ذلك ولكنه تمثل شيئا واحدا فقط ، هو وجه تلك الفتاة الصقلية ذات الجمال الرائع والقوام الفتان وهي تودعه بعينيها اللتين تحاكيان النجم لمعانا وثغرها البسام

ولا عجب فقد كانت لفرنشسكا في قلوب اصدقائها عاطفة اقوى من محبة عادية فكان فراقها لديهم مثل فراق حبيب

اخذ لامبرت يذهب ويجيء على ظهر الباخرة ، يرقب الشواطيء بمنظاره الى أن احس في النهاية باستحالة آماله كلها فهوى في اتون من الشك والقنوط

وفي الواقع كان من الجنون المطبق ان يبني قصراً من الآمال بلقاء فرنشسكا من الاقوال التى جمعها من الجلابة والجواسيس الذين قالوا غير مرة ان امرأة بيضاء شوهدت في معسكر النجومى ، فقد اسرت نساء كثيرات من اليونانيات والايطاليات في الخرطوم والابيض وسنار ، وعلى ذلك يحتمل ان تكون تلك المرأة واحدة من هؤلاء ، هذا اذا لم تكن ضرب من التصورات الكاذبة والاوهام . على انه مع ذلك كله لم يقطع الامل قبل ان يصل الى المعسكر

سارت الباخرة في وجه التيار الى ان انثت حول منعطف فرأى لامبرت على يمينه اشعة الشمس تتساقط على اربعة تماثيل بيضاء ضخمة في ابي سمبل ، تعادل تمثال ابي الهول ارتفاعا ، ذات جمال وجلال وهي قائمة في معبد واقع في احضان رمال صفراء كالتبر

مكث لامبرت هنيهة لايستطيع ان يحول عينيه عن هذا المشهد البديع الى ان اقترب من المعبد فذكر واجبه بصفته قائداً ، اذ كان عليه ان يتفقد الشاطيء الغربي بمنظاره باهتمام عظيم وحذر ، مخافة ان تكون هناك قوات من الاعداء ، كمنت بين الصخور فتستولى على الباخرة ومن فيها

خيل الى لامبرت ، وقد نفد صبره وتاقت نفسه الى استجلاء سر المعسكر فوق النجد ، ان الباخرة استغرقت ساعات لا عداد لها في وصولها الى المرساة في أبي سمبل ، ولكن لما وصلت اليها قنع بالرغم من قلقه وسآمته — بالنظر الى ما أمامه وهو دهش مبهوت . وكان النيل مرتفعاً فلم تظهر غير شقة ضيقة من الرمال الذهبية بين مياهه المشبعة بالطمي وبين هيكل بلاد النوبة العظيم الذي قدّ من الصخور وقامت تماثيله الضخمة ، التي تجلت على وجوهها الصامتة دلائل السكون الابدي والحكمة والجمال والجلال ، و بدت في ثوب مقدس كأنها لا تعبأ بالحروب الدائرة حولها بين البيض والسود

لم يكترث لامبرت في بداية الأمر بتلك التماثيل العظيمة ولا بما نقش على جدران الهيكل من الصور والنقوش البديعة . على ان عينيه تحولتا فيما بعد الى التماثيل الاربعة الكبيرة التي تمثل رعمسيس الثاني والتماثيل الاخرى الصغيرة المجاورة لها التي تمثل الملكة « نفرتاري » زوجته المحبوبة و « بنت أنات » ابنة فرعون التي أنقذت موسى من الهلاك . وكان يخيل الى من يرى هذه التماثيل انها تقول ان جميع الذين ينظرون الى العالم امامهم بعين الاستقامة يخلدون الى الابد

لم تكن ثمة حاجة الآن تدعو لامبرت الى تفقد الشاطىء بمنظاره لأن الكشافة الانكليز كانوا قد وصلوا الى المرساة وقالوا

ان الطريق خال من الاعداء . وكانوا قد جاؤا ليرشدوه الى حريم النجومي ، فلما وقع نظره عليهم عاد اليه ملله القديم اربعة اضعاف

لم يظهر الجنود السود الذين رافقوا لامبرت في هذه الرحلة شيئاً من التواني في النزول الى البر ، ولكن الابل اظهرت كعادتها جفولا واحجاماً فكاد قلب لامبرت يذوب لهفة وشوقاً حتى نزل آخر جمل من الباخرة فسار لامبرت في طليعة قوته وأمامه الفرسان الذين جاؤا لمرافقته الى المعسكر فاجتاز الجميع الرمال الشاقة التي كادت تغمر المعبد وتضمه الى احضانها

لم يكن المنحدر طويلا ، فلم تمض مدة طويلة حتى شرعت الابل والجنود تسير في ارض رملية تشرف على التلال الذهبية الناعمة القائمة على جانبي الطريق التي تكاد تضم المعبد بين احضانها لو لم تمنعها يد الطبيعة الساهرة

لم يحاول لامبرت دخول هذا المعبد الذي يعد احدى عجائب العالم ، والذي يمتد في قلب الصخر الى مسافة مئتي قدم . واخيراً لما وصل الى قمة المرتفع لم يرغير النيل وهو يجرى بين شاطئيه ، و بعض اشجار النخيل ، ثم رأى علماً ابيض فوق مرتفع صغير دفن به أمير من الدراويش ، هو الامير ماكن النور الذي جاء بالامدادات الاخيرة الى النجومي

وركب لامبرت جملا وأخذ يتفقد الارض حوله بمنظاره فلم

يرَ شيئاً جديداً ،واخبره الفرسان انه لا يستطيع رؤية المعسكر من مكانه هذا لأن النجومي اختار بقعة لاخفاء معسكره عن الانظار لا يمكن رؤيتها الا عن كثب

علم لامبرت فوق ذلك من الجنود ان الدراويش الذين بقوا في المعسكر لم يظهروا أي دليل على المقاومة وسلموا انفسهم عن طيب خاطر . أما الخيام فقد ضربت في بقعة منخفضة لتكون بعيدة عن الانظار وأنها لا تختلف عن خيام البدو التي يتعذر على الانسان رؤيتها قبل ان يدنو منها

اخيراً وقع نظر لامبرت على ثلاث خيام فاشتدت ضربات قلبه وقال في نفسه انه سيعلم عما قريب اذا كانت تلك المرأة البيضاء الغريبة ، في إحدى هذه الخيام وهل هي فرنشسكا ضالته المنشودة

ولكن كيف يستطيع ان يفعل ذلك دون ايقاع الرعب في قلوب من في الخيام وانتهاك كرامتهن ؟

استشار لامبرت جاويشاً سودانياً في الأمر ، فنظر الرجل فيما حوله هنيهة ثم أشار الى أحدى الخيام وقال : « هذه خيمة إحدى الجواري » ثم سار اليها ونادى من فيها بلغته فأطلت بعد هنية عجوز شمطاء برأسها من باب الخيمة وأخذت تتحدث معه

اخيراً خرجت المرأة العجوز وجثت أمام لامبرت فأمرها الضابط

بالوقوف والذهاب الى جميع الخيام لكي تأمر من فيها من النساء ان يتهيأن استعداداً للرحيل الى توشكي الى ان يستقر رأيهن على الجهة التي يردن الذهاب اليها ، ثم اخبرها ان النجومي قتل وان جيشه هزم وان الجميع وقعوا في الاسر ، ولكن لهم ان يذهبوا حيث يريدون متى تمت التدابير اللازمة

رأى لامبرت مشهداً مدهشاً غريباً وهو يراقب نساء النجومي وهن يخرجن جماعات من الخيام . وكان بعض زوجاته من قبيلة « الجمليين » بثياب رثة قذرة ، ولكن معظمهن كن من الشابات السودانيات والحبشيات السافرات ، وكانت كل واحدة منهن تتزيى حسب عادة قبيلتها

كاد قلب لامبرت ينسحق عند ما انتهى خروج النساء من الخيام ولم ير بينهن امرأة بيضاء

الفصل العشرون

بعد معركة توشكي

سأل لامبرت امرأة منهن قائلا

— أين زوجة النجومي البيضاء ؟

فأشارت الى احسن خيمة في المعسكر ، وكانت لا تزال مغلقة فصرخ لامبرت وقد خامره الشك قائلا

— لماذا لم تغادر خيمتها ؟ هل قتلها أحد اثناء غياب زوجها ؟

فصاح النسوة قائلات

— كلا ياسيدى ، لم يمسها أحد بسوء ولم تدخل عليها واحدة منا ، لأن النجومي قد حظر ذلك علينا

— اذن هي اسيرة

— كلا . ليست اسيرة . انها زوجته المحبوبة

وقعت هذه الكلمات كالصاعقة على قلب لامبرت ، وخيل اليه ان الدقائق التى انقضت في تمثيل هذه الرواية ، ساعات طويلة

حاول الجاويش السوداني ان يحمل المرأة العجوز أو أية امرأة أخرى على ان تدخل الخيمة لتبلغ من فيها ما جرى ، ولكن الجميع صرخن قائلات

— كلا . كلا ان النجومي حظر علينا الدخول عليها

فقال الجاويش

— هل لي ان اذهب اليها وأناديها ؟

فقال لامبرت بلهجة القنوط

— سأذهب اليها وادعوها بنفسي

سار لامبرت الى الخيمة دون ان يشعر أحد بما كان في قلبه من الوساوس لانه كان يرتاب في رؤيتها على قيد الحياة . وقد اشتهر الضابط بالمجازفة والشجاعة ، ومع ذلك شهر مسدسه وهو يدرك الخطر الذي يستهدف اليه كل من يدخل خيمة الدراويش بدون سلاح

وقف لامبرت أمام الخيمة وصاح بالانكليزية التى لا يفهمها أحد من السودانيين قائلا

— فرنشسكا . فرنشسكا . هل أنت هناك ؟

لم يجبه أحد ، فقال ثانية

— فرنشسكا . فرنشسكا . لقد جئت لانقاذك

ثم وضع اذنه على باب الخيمة وانصت الى ان سمع شخصاً حافي القدمين يتحرك في الداخل ثم سمع صوتاً اجنبياً ، ليس صوت فرنشسكا ، يقول

— هل أنت من الانكليز ؟

— نعم انا ضابط انكليزي اتولى قيادة الفرقة التي جاءت لانقاذك

وكانت المرأة تتكلم بلغة انكليزية صحيحة ولكن بلهجة اجنبية فقالت

— اذن سأفتح الخيمة

خيل الى لامبرت ان جيلا طويلا انقضى في فتح باب الخيمة ، ولكنه فتح في النهاية وبرزت منه امرأة مقنعة ترتدي ثياب أميرة سودانية

رأى لامبرت ان المرأة ليست فرنشسكا لانها كانت تختلف عنها طولا وجسما ، فتأوه قبل ان ترفع المرأة القناع الذي حجبت به كل وجهها عدا عينيها

وكانت الصدمة التي اصابته قوية فلم يستطع ان يلقي على المرأة نظرة أخرى وحجب عينيه بيده . وإذ ذاك علم جنوده ان المرأة ليست هي التي يريدها ضابطهم فذابت قلوبهم أسفاً عليه

نظرت المرأة فيما حولها وهي مبهوتة ، أولا الى الجنود السود بملابسهم العسكرية المصرية ثم الى الضابط الابيض وهو واقف على هذه الحال ومسدسه في يده

اخيراً القت نظرة أخرى على الضابط ولم تلبث ان نزعت قناعها عن وجهها وصرخت قائلة

— دون لامبرتو . هذا انت يادون لامبرتو ؟

ثم ألقت نفسها على الضابط الذي استولت عليه الدهشة والذهول

وكانت المرأة هي انوسنزا

وفق لامبرت ما استطاع بين واجباته بصفته ضابطاً وبين واجباته بصفته صهرها المنتظر

قالت انوسنزا

— هل لك ان تحميني ؟

— احميك ؟ بلا ريب . ولكن مما احميك ؟

لم تستطع انوسنزا ان تعبر عن الاخطار التي كانت تخشاها بكلمات مفهومة وارتجفت بالرغم من حرارة شمس اغسطس المحرقة . وكان الذهول قد استولى عليها الى حد أنها لم تلق عليه السؤال الاول الذي يجب ان تلقيه زوجة قائد استولى الاعداء على معسكره

اخيراً استطاعت التكلم ولكن بمشقة عظيمة فسألته قائلة

— أين النجومي ؟ لقد هُزم جيشه ولا بد ان يكون قد فرّ الى الصحراء ، وإلا لما استطعتم الوصول الى هنا

فأجابها لامبرت قائلا

— لقد قتل النجومي

— قل انه مات على « فروته » وانه مات دون ان يقهر روحيًا ، ولو انه قهر أمام قوات لا يدري عنها شيئاً

— لا يعلم أحد كيف مات النجومي . ولكنه مات ميتة أشرف من ذلك لأنه اصيب بثلاثة جروح وهو يحاول ان يجمع شتات قواته . وقد وجد قتيلا على ظهر جمل وضعه رجاله عليه ليحملوه الى معسكره للاهتمام به

فقالت انوسنزا

— مسكين النجومي . كم كان رحيما بي . لقد كان رجلا عظيما مثل غردون باشا بالرغم من عقيدته الدينية

ثم أصابتها نوبة من البكاء والنحيب

انتظر لامبرت ما استطاع لاجلها ، ثم قادها بلطف الى الجمل الذي كان يعلل نفسه ان يضع فرنشسكا عليه فأركبها وعاد الجميع الى شاطىء النهر ليركبوا الباخرة ويعودوا الى توشكي

أخذ الجنود يشتغلون بشحن النساء والاطفال وما كان معهم في الباخرة « ابراهيم باشا » فانتهز لامبرت هذه الفرصة وجاء بمقعد جلست عليه انوسنزا تحت مظلة كبيرة واخذت تنظر بشيء من الذهول الى تماثيل الملك رعمسيس الثاني الضخمة والى تمثالي زوجته وابنته الصغيرين

شعرت انوسنزا وهي تحدق النظر الى هذه التماثيل ان النجومي صار الآن بعد موته بعيداً عن حياتها بعد هذه التماثيل العتيقة، ولو انه

لم تمض مدة وجيزة منذ ودعته وهو ممتلىء صحة وعافية — قائد على رأس جيش ، وبطل ست معارك من المعارك الكبرى

لقد مات النجومي وقضى نحبه ، فشعرت انوسنزا بوقع ذلك في قلبها بالرغم من رغبتها في التمتع بالحرية ، على انها ارتاحت ارتياحاً كبيراً لانها بذلت اقصى جهدها لاثنائه عن تلك الحملة القتالة ولو انها كانت تعلم ان فيها املا بحريتها واطلاق سراحها . وفي الواقع لم تطاوعها نفسها على ان تكون لها يد في ارسال هذا الرجل الشجاع الذي اخلص لها في حبه ، الى موته

لم يكن عدد الابل كبيراً وكذا لم تكن امتعة حريم النجومي كثيرة ومع ذلك وجد لامبرت في الفترة القصيرة التي انقضت في شحن الابل والامتعة والنساء والاطفال، وقتا كافيا لفحص التماثيل الصخرية المنحوتة فجلس تحت حماية مدافع الباخرة يطيل النظر اليها وهي على هذه الحال تراقب بسكون قيام الممالك وسقوطها منذ ايام موسى الى الان

أخيراً أُعد كل شيء وابحرت الباخرة فلم يكد يصدق لامبرت ان احلامه لم تتحقق وان انوسنزا لا فرنشسكا هي التي انقذها من ايدي الدراويش ، وانها هي، لا فرنشسكا ، التي تجلس الى جانبه في طريقها الى مصر ، الى بر السلام والامان

على انه اذا كان قد اصيب بخيبة الامل ، فقد نجا من مأساة

عظيمة لانه لايجهل ما كان يصيبه من المصائب والآلام لو وجد ان المرأة البيضاء التى اتخذها النجومى زوجة له هى فرنشسكا

أرسلت زوجات النجومى الوطنيات للالتحاق بالنساء الاخريات اللائى اسرن اثناء الدور الاخير من المعركة . اما انوسنزا فقد أُعدت لها خيمة خاصة على مقربة من مركز الجيش وخصص لها جاريتان لخدمتها

زار القائد انوسنزا فى خيمتها ليرى هل اعد كل شيء وليخبرها انه سيرسلها الى اسوان على أول باخرة . وفعلا أبلغ زوجة القائد الذى يتولى قيادة الجنود الانكليزية في اسوان بنبأ قدومها فاجابته انها ستتلقاها عند وصولها

ضربت خيمة انوسنزا في جوار شجرة جميز كبيرة حيث اقامت زوجة الزعيم العربي وزوجة الصقلى بين الفرسان والهجانه والجنود السود والجنود المصريين وضباطهم الذين ارسلوا عبد الرحمن ود النجومى وجيشه ليلتحقوا بالجيوش التى كانت تحت امرة غردون باشا وهكس باشا وأصابها الهلاك

شعرت انوسنزا بحزن على موت النجومى الشفيق الشجاع وبلوعة قاسية لاجل الزوج والابنة اللذين تركتهما في يد ذلك الطاغية بام درمان . على انها مع ذلك شعرت بابتهاج عند ماوجدت نفسها مطلقة السراح بين ضباط معظمهم من الذين كانت تتولى خدمتهم

في المطعم بالقاهرة وتحييهم بابتساماتها الجميلة . وكان بين هؤلاء الضباط الذين احتفوا بها ، اناس ممن عرف العالم اسماءهم فيما بعد فلم ينسوا المشهد الذى راوه تحت شجرة الجميز في توشكى ، وهم جالسون مع صديقتهم انوسنزا التى جلست في ثياب اميرة سودانية تحت اغصان الشجرة الكبيرة

على أنه لم تطل حفاوتهم بانوسنزا كثيرا ، فقد كان الجميع يعلمون انها ام تلك الصديقة التى شرع لامبرت اليفانت يعمل لانقاذها منذ ولى وجهه شطر الصحراء ويعلمون انه لابد ان تكون هنالك اسئلة عديدة سيوجهها اليها ، ولذا انسحبوا تدريجًا الواحد بعد الاخر اخيرا قالت انوسنزا عند ما خلا لهما الجو

— لستم معشر الانكليز مثل شعبنا رقة ودماثة اخلاق فى حياتكم العادية : فى الشوارع أوفى الحقول أو في المنازل ، ولكنكم ارق شعوب العالم في الحروب

فقال لامبرت

— لانرضى ان يخجل منا احد ، ولكن دعينا ايتها الدونا انوسنزا من الانكليز وذكرهم الان واخبريني بما تعلمينه عن فرنشسكا

— ان فرنشسكا في سلام ايها الدون لامبرت وكرامتها محفوظة ، واذا كنت قد سمعت شيئًا يمس شرفها عندما كانت فى حريم المهدي فلا تصدقه

— ولكني لم اسمع شيئاً . هل نسيت انه لم تصلني كلمة واحدة عن فرنشسكا من يوم سقوط الخرطوم الى هذه اللحظة ؟

— وهل نسيت كيف كنا في معزل عن العالم ؟

— اذن اخبريني ماذا حدث

— هذا ما لا استطيع ان اخبرك به حتى تصل فرنشسكا الى مصر سالمة مرة اخرى . لان الشكوك والوساوس مثل البذور فاذا اطلقتها حملتها الرياح ولا يدري أحد أين تنبت ، وهذه البذور تروى في ام درمان بالدم

نظر لامبرت اليها وقد دهش لسماع هذه الاقوال منها ثم سألها قائلا

— أليس لديك من انباء فرنشسكا ؟

— في وسعي ان اقص عليك انباء هامة فقد كاد المهدي يتخذها زوجة له فاصيب بحمى خبيثة أودت بحياته

— نعم ! نعم !

— وبعد ذلك اطلق الخليفة عبد الله سراحها

— اطلق سراحها من أي شيء ؟

— من حريم المهدي

— ولكني اذكر انك قلت انه مات قبل ان يتخذها زوجة له

— لقد مكثت في حريمة مدة طويلة قبل ان تخطر بباله اية فكرة عنها تقريباً

فقبض لامبرت بعنف على ذراعها وقال

— هل انت على ثقة من ذلك ؟

— نعم ، كل الثقة

— حسن . لماذا اكترث بهذا ، ان فرنشسكا هي فرنشسكا وإذا ردها الله الي فانني ساقبل عمله بالشكر والامتنان . ولكن اخبريني ماذا تفعل الآن ؟

— انها في سلام مع راهبات دار المرسلين ، تتولى خدمة ابيها وغيره من الاسرى وتحمل اليهم الطعام

فامتقع وجه لامبرت بالرغم من سمرته . وقد لاحظت انوسنزا ما اصابه فقالت

— لاتخف ايها الدون لامبرتو . ان الاخطار التي جالت بخاطرك لا اثر لها ، لم يجرأ احد على ان يمس فرنشسكا حتى ولا «الخطافون» لان اهل أم درمان كلهم يعتقدون ان لها عين الحسود

— تقولين ان عين فرنشسكا حسودة ؟ ما هذا الهذيان ؟

— انه هذيان سعيد، لان الدراويش يخشون التعرض لعين الحسود . نعم لا تستطيع الهرب ولكنها في مأمن من كل اذى وشر ، الا من الجوع والمرض

لم يقنع لامبرت بقولها هذا ايضا و قال

— اخبريني بالله اى شر يمكن ان يكون في تينك العينين الساحرتين ؟

— الم تلاحظ ان لفرنشسكا عينين تختلفان عن اعين غيرها من الناس ؟

— نعم لاحظت ذلك بلا مراء . انهما مملوءتان ضياء ولمعانا

— هذا ما يخشونه

— وانت ، هل كنت زوجة النجومى ؟ هل كنت زوجته حقا ؟

فاطرقت انوسنزا برأسها هنيهة ولكنها تغلبت على عواطفها فى النهاية و قالت

— لم نتزوج في مكتب البلدية

— لا اعني هذا ولكن الم تفلتي من يده بطريقة غريبة مثل فرنشسكا

فابتسمت انوسنزا ابتسامة مقرونة بالحزن اثرت في نفس لامبرت و قالت

— كلا . وا أسفاه

على انها شعرت بالراحة تدريجا لان الكابوس الذى كان يؤلمها قد رفع عن فكرها وزالت الآم اسرها كاوجاع شعرت بها اثناء الليل ثم زالت ، ولانها وجدت نفسها الآن في طريقها الى القاهرة

وان الحياة امامها اسعد منها خلفها . وفي الواقع كان قلبها يترنم بنشيد الحرية على رغم الدمعة التي اذرفتها حزنا على زوجها وابنتها

عجبت انوسنزا في نفسها وقالت هل يذكر جينو دافابزاتي ، قنصل ايطاليا الجنرال ، انوسنزا صاحبة المطعم ياترى ؟ وهل لا يزال بعض الضباط الانكليز الذين كانوا يترددون على المطعم فى القاهرة ؟ وهل لا يزال انجيلو ترادينور مخلصا لفرنشسكا ؟ وكيف يستقبلها جيرانها اذا ما سمعوا بالاخطار التي تكبدتها ؟

اخيراً خلعت انوسنزا عنها ثوب الكآبة وصاحت قائلة

— عزيني يالامبرت ، عزيني . لم اجد تسلية من اليوم الذى وطأت فيه قدماي ارض الخرطوم . اضحكني ، دعني انتهك — بالله افعل شيئًا يذكرنى بانني لا زلت انوسنزا التي عرفتها في مصر !



الفصل الحادي والعشرون

احلام الهرب

لم تكن فرنشسكا لنتيني قد تجاوزت بعد التاسعة عشرة من عمرها يوم قتلت المهدي . وكان جمالها رائعاً فتاناً ولكنها لم تتعلم ماذا تفعل . وقد اخلص الراهبان والراهبات فى دار المرسلين لها ولم يشك أحد في حقيقة رهبنتها

كان من السهل انتهاك حرمتها بعد خروجها من قصر المهدي بسبب جمالها وشبابها لولا الاعتقادات الخرافية التي رسخت في ذهن الخليفة عبد الله . فقد كان واثقاً من ان محاولة المهدي اخضاعها له هي التي انزلت عليه غضب السماء وسببت له الهلاك والموت

كان الخليفة يخشي أن تقع عليه أو على مملكته ضربة اذا هو اثار غضب السماء عليه في هذا الصدد مرة أخرى . وعلى ذلك اصدر أوامره المشددة الى شعبه بان لا يتعرض لها أحد بأي حال من الأحوال . ولكي يصل الخليفة الى هذه الغاية أشار عليها ان تقطن مع الراهبات الاخريات والقس النمسوي فى اكواخ صغيرة قائمة وراء حي اليونانيين والسوريين

على انه نسي ان يخصص لها مرتباً من بيت المال ليحفظ كيانها

ولذا كانت تتحمل آلاماً قاسية لتنقذ نفسها من الموت جوعا ، ومع ذلك كانت الفتاة تكتفي بقليل من الطعام وتعطي الباقي لغيرها من المحتاجين والمعوزين

عانت فرنشسكا ومن معها أهوالا جسيمة وآلاماً لا تطاق . فقد اشتدت الازمة في الايام التالية حتى اضطرت الراهبات الى صنع ملابس واكياس من الخيوط القطنية وبيعها للاقتيات بثمنها . وكان في وسع فرنشسكا الجميلة ان تصير محظية حاكم البلاد المطلق اذا ارادت ولكنها آثرت الجوع وتحمل اقسى ضروب الكرب والضيق . وكم كانت تشجع الكاهن النمسوى قائلة

– تشجع يا أبت . ان الله لا يتركنا نموت جوعاً

وكان لا يزال لديهم قليل من الذرة لطحنه وصنعه كعكا . واستطاع كل من لديه بذور أن يزرع قليلا من الخضر في ام درمان . أما الزيت و الشحم و اللحم فقد نفد منذ مـدة طويلة فنحفت اجسامهم واصابهم الهزال وأخيراً نفد كل شيء لديهم حتى الذرة . وكانت المجاعة التي حلت بالبلاد قاسية شديدة بعد هلاك القبائل التى كانت تشتغل بالزراعة على ضفاف النيل ، أما « البجارة » فكانوا لا يعرفون غير تربية المواشي بحيث كان مرتب عام لا يكفي شراء اردب واحد من الذرة ، ولذا اضطر السكان الى ان يسدوا رمقهم بالخضروات وحدها

وكان أمين بيت المال يعطف على الاسرى بالاجمال ولكن يعقوب شقيق الخليفة عبد الله استولى على مفاتيح مخازن الحبوب منذ حلت المجاعة لاطعام البجارة الذين كان الخليفة يعتمد على قوتهم فكانوا يبتاعون الحبوب بأثمانها الاصلية في حين كان غيرهم يتضور جوعاً

أخيراً أضر الجوع بالراهبات الثلاث والقس النمسوي . فاضطرت فرنشسكا الى الخروج للتسول . وفعلا سارت على مهل تجر رجليها جراً وهي لا تقوى على المشي الى ان وصلت الى امين بيت المال وهو الشخص الوحيد الذي كانت تعرف ميوله الحسنة من نحوها لترى هل يستطيع أن يستغني من نصيبه عن قليل من الذرة يسدون به رمق الحياة

اقتربت فرنشسكا من بيت المال فسمعت طبول الخليفة تدق والناس يصيحون قائلين : « خليفة المهدي بركب » ورأت الناس يهرعون فحاولت الابتعاد عن طريقه أولا ولكنها رأت انه لا بد ان تموت مع رفقياتها جوعاً بعد يوم أو يومين اذا لم تفعل شيئاً فتقدمت والقت نفسها أمام الخليفة

وقع نظر الخليفة عليها فاضطرب وصاح أحد البجارة قائلا « يابنت الكلب » ثم رفع حربته ليطعنها ولكن الخليفة أشار الى الملازم الذي يرافقه دائماً لحراسته فقتل الرجل الذي حاول قتلها وقال الخليفة ، دعوها ، واذ ذاك وقف الجميع مترددين لانهم رأوا

علامات الارتباك على وجه الخليفة . ولا عجب فقد عرف الراهبة التي قضت على المهدي بالرغم من نحولها فخشى ان يصيبه اذى بسببها

لوى الخليفة عنان جواده واراد العودة من حيث اتى فصرخت فرنشسكا اذ ذاك قائلة

— ياسيدي ، انا مظاومة

واتفق ان وصلت هذه الكلمات الى مسامع الملازم الابيض وكان في ذلك الوقت سلاطين بك حاكم دارفور في الايام السابقة

رأى سلاطين بك ، وكان رجلا رقيق العواطف مقداماً لا يهاب الموت ، ان الفتاة كادت تشرف على الموت ، وانها وجدت فيها الشجاعة لتخبر الخليفة بامرها فشعر بان دمها يكون على رأسه اذا اهمل امرها لانه لم يكن يجهل ما في رأس الخليفة من الاعتقادات الخرافية

اشتد اضطراب الخليفه فتحول نحو سلاطين بك (وكان يدعوه باسم عبد القادر) وقال

— تكلم معها يا عبد القادر وحذار ان تقع عليك لعنتها . تكلم معها برفق وانظر كيف نستطيع الافلات من شرها

سار سلاطين بك اليها ثم ترجل عن ظهر جواده لانه رأى ان لا بد له من ان يميل برأسه نحوها لكي يسمع صوتها الضئيل الخافت

فتمتمت اليه قائلة بالانكليزية « نريد طعاما » . وكانت الفتاة منهوكة القوى فاعطاها جرعة من الماء من زجاجة يحملها معه ، واذ ذاك استطاعت ان تخبره عن حاجتهم القاسية الى الخبز وتوسلت اليه ان يطلب الى الخليفة ان يعطيهم مقـدارا من الذرة من بيت المـال

وكان سلاطين بك يعرف ان الخليفة لا يهاب الفتاة اشفاقا عليها ، وعلى ذلك سار الى الخليفة وقدم اليه فروض الخضوع والطاعة وقال له

— ان الفتاة تطلب طعاما ياسيدي ، وعندي انه خير لنا ان نعطيها ما تطلب مخافة ان تسلط علينا عينها الشريرة

لو أن الخليفة لاحظ اقل دليل على ان سلاطين بك يعطف على الفتاة لارسله في الحال الى سجن « السابر » مكبلا بالحديد ولكنه كان شديد الاعتقاد بالخرافات الدينية كما قلنا فتحول الى يعقوب وطلب اليه أن يرسل حمل حمار من الذرة الى دار المرسلين ، ثم التفت الى سلاطين بك وقال له

— قل لها يا عبد القادر ان طلبها اجيب . وعليك ان تتولى انت بنفسك تسليم الذرة فى دار المرسلين واذا فقد ضاع رأسك

— اسأل الله ان يطيل حياتك يامولاى ، ولكن يظهر ان الفتاة ضعيفة لا تستطيع العودة الي دارها

فالتفت الخليفة الي احد رجال حاشيته وقال

— اعطها حمارك اي ود سليمان وقدها الي دار المرسلين وحاذر من ان تسقط على الارض . ثم انتظر هناك الى ان يأتي عبد القادر بالذرة وعد معه الى القصر

وكان ود سليمان هذا من الذين يبغضون سلاطين . وقد كلفه الخليفة بالتجسس عليه لانه رأى ان سلاطين والقس كليهما نمساوي الجنس فلم يشأ ان يدور بينهما شيء من الحديث دون وجود احد من جواسيسه

شعر الكاهن والراهبات برحمة من السماء عندما شاهدوا الاخت تريزا — كما كانوا يسمون فرنشسكا — راكبة حمارا يقوده احد رجال حاشية الخليفة ، وسمعوا منها انه سيرسل اليهم حمل حمار من الذرة لسد رمقهم . ثم زادت دهشة الجميع اذ رأوا بعد قليل ان سلاطين اشار الى ودسليمان الذى رافق فرنشسكا الى الدار أن يأتى اليه في حين امر سائق الحمار ان يتلقى التعليمات اللازمة من الكاهن وان يعجل في تنفيذ مهمته لانه ، اي سلاطين ، يريد العودة في الحال الى الخليفة . ثم لما عاد الرجل ليخبره ان كل شيء قـد تم ، بعث ود سليمان بعيدا وصاح قائلا ، هل جاء الرجل بحمل حمارا كاملا من الذرة ؟ فاجابه القس قائلا

— ليست هناك فرصة الان لان البلاد ملأى بالمخافر الامامية

والحراس الذين خرجوا لاستقاء الانباء عن عودة المصريين والانكليز ، فتقدم سلاطين اذ ذاك من رفيقه وقال

— حسن . لم يخدعهم الرجل . يجب علينا ان نبحث في العودة الى الخليفة

وهكذا تغلب الرجل الابيض (سلاطين) بدهائه على الخليفة

أمن القسيس والراهبات شر غائلة الجوع الان مع وجود الذرة في دار المرسلين ثم غرزت حربة من حراب حراس الخليفة في الارض أمام الكوخ نذيراً لكل من يجرأ على سرقة الذرة منهم

عاشت الجالية الصغيرة في دار المرسلين على هذه الحال سبع سنين ؛ تقتات من حين الى اخر على حمل حمار من الذره وبعض دريهمات تحصل عليها من بيع ماتصنعه الراهبات من التطريز لنساء الامراء

نعم عاشت اجمل فتاة في السودان على هذه الحال مدة سبع سنين لا يحميها غير اعتقادات الخليفة الخرافية وراهب عجوز وراهبتان في كوخ منعزل خارج ام درمان ، مدينة الشهوات والدم ، ولكنها لم تنبذ لحظة واحدة ، لاهي ولا رفقاؤها ، من رأسها فكرة الهرب

وكان العرب يترددون على الاور بين الاسرى في أمدرمان طالبين خطابات يحملونها الى ولاة الامور في القاهرة لمساعدتهم على الهرب . وكان هؤلاء العرب يسلمون الخطابات ولكنهم كانوا

لا يعودون ثانية . وقد يكون السبب في ذلك طمعهم في الحصول على المال الذي يعطي لهم لتسهيل وسائل الهرب أو عجزهم عن تذليل العراقيل التي تعترضهم في سبيلهم ، أو اكتشاف أمرهم وزجهم في السجون مكبلين بالحديد ، أو هلاكهم وهم يحاولون تنفيذ المهمة

قد تكون السبب واحداً من هذه الاسباب ومع ذلك لم يعد احد منهم الى ان ضاعت ثقة الكاهن النمسوي بهم

ولكن حدث ذات يوم من سنة ١٨٩٠ ، بينا كان الكاهن يشتغل في حديقة الخضروات ، اذ جاءه اعرابي بزي بائع متجول وأخذ يعرض عليه بضاعته ليحمله على شراء شيء منها . على ان أقوال الرجل لم تكن اقوال بيع وشراء وانما كانت تتعلق بخطابات لأجل سوجارو رئيس الاساقفة وبارنج القنصل الانجليزى في القاهرة ، لتمهيد الطريق للهرب

والآن اذا فرض ولم يكن الرجل جاسوساً يحاول الخيانة ، فقد اصيب الكاهن بشيء كثير من خيبة الأمل بحيث لم يقل للرجل اكثر من : « سأنظر في الأمر »

سأل الكاهن من الذين يستطيع الثقة بهم في ام درمان ، وهم قليلون ، عن الرجل وكان اسمه احمد حسن فلم يسمع عنه الا مدحاً وثناء . وكان الرجل يطمع في الحصول على مال من ولاة الأمور في

القاهرة مكافأة له على تهريب اسري يستطيعون ان يعطوهم معلومات عن الحالة في ام درمان

وعلى ذلك لما قابل الكاهن الاعرابي مرة أخرى أعطاه الخطابات واتفق معه على ان يحاول الهرب اذا استطاع الحصول على المساعدة الكافية من الحكومة في القاهرة . وكان وجه احمد حسن بمثابة جواز سفر لان الرجل كان من ذاك الطراز العربي النبيل الذي أكسب عرب غرناطة مكانتهم الادبية التي لا تمحي ذكراها مدى الدهر . وقد تمني الكاهن ان يثق بالرجل عند ما وقع نظره عليه لأول مرة ولكن التجارب القاسية علمته ان من السهل ان يخدع الانسان من وجه اعرابي

على انه لما كان قد سمع ثناء على الرجل ،فقد اتفق معه على ان يركبا معاً زورقا أو لوحا خشبيا الى بربر عند فيضان النيل أي بعد عام تقريبا ومن هناك يركبا جمالا سريعة تجتاز بهما الصحراء الى كورسكو .وكان تأثير الفشل المتكرر الذي اصاب الكاهن لايزال باديا على وجهه فأخذ يلح على احمد حسن ويوصيه ان يكتم ما اتفقا عليه ولو انه كان يعلم ان في افشاء السر موت الرجل وهلاكه

ابتهج الكاهن والراهبات بعد سفر الرجل مدة وجيزة ولعبت بهم الآمال والوساوس ولكن ، لم يلبث هـذا الرجاء ان ضاع بعد أن رأوا ان تحقيق هـذه الامنية مستحيلا أمام الخطر

الذي يتهددهم اذا اكتشف أمرهم ، والفظائع التي كانت ترتكب كل يوم في ام درمان ، والامراض القتالة التي كانت تفتك بالناس علاوة على المشاق والمتاعب المنتظرة

جاء الشتاء وانقضى وتلاه الربيع ثم جاء الصيف وشرعت مياه الحبشة المشبعة بالطمي تجرى في النيل الازرق منذ اسابيع وحلت مياه الفيضان ومع ذلك لم يبد اثر لاحمد حسن

لم يشك الكاهن شيئاً وقال في نفسه ان عدد الذين خدعوه زادوا واحداً ، وانه اذا لم يرسل الله اليهم منقذاً من مصرفان هناك منقذاً آخر لاشك في قدومه الا وهو الموت

وكان التعب قد اخذ منه ،أخذاً عظيماً فأخذ يبصق دما ونحل جسمه حتى صار جلداً على عظم . على حين كانت راهبتان اقرب منه الى القبر ، فقد اثرت فيهما الآلام الادبية والجسمانية التى اثقلت كاهلهما عشرة اعوام انقضت في الاسر ، تأثيراً مريعاً فكان الموت اعظم ما تتوق اليه نفسهما ونفس الكاهن

لقد ضاع كل امل لهم بالنجاة والحرية والتمتع بالحياة العالية ، وقضى عليهم ان يعيشوا ويموتوا بين الصخور الملتهبة والرمال النارية في ام درمان حيث تحول حرارة الشمس جثة الميت الى مومياء بدلا من تحليلها وفسادها ، فلا عجب اذا تاقت نفوسهم الى الموت لينقذهم من مثل هذا الشقاء

ما اسعد الذين قتلوا في ساحة القتال ، والذين فتكت بهم الامراض والجوع ، والذين ذهبوا ضحية مذابح الخرطوم . لقد انتهت آلامهم الآن . أما الذين يعيشون في دار المرسلين فقد ماتوا مئة مرة وعانوا العذاب ألواناً واشكالا وشاهدوا من الفظائع والمذابح والاهوال ما تقشعر من هوله الابدان .

ثم بعد هذا كله يقضى عليهم بان يعيشوا ويموتوا منسيين في ارض الغربة حيث تعطي اجسامهم طعمة للذئاب . لهذا وغيره تاقت نفوسهم الى الموت لينشلهم من مهد المظالم والفظائع التي لا نهاية لها . وقد ماتت أحدي الراهبات في ٤ اكتوبر سنة ١٨٩١ بالحمى الرقطاء فتمني الجميع ان يلحقوا بها

خيمت سحب الكآبة على دار المرسلين بضعة ايام لم يخاطب الكاهن في خلالها أحداً . وكانت الراهبتان الاخريان تعيشان على مسافة قصيرة من الدار ، ولكن الكاهن شعر بميل خاص الى مخاطبة الفتاة التي لم تكن راهبة ، والتي اظهرت جلداً مدهشاً فلم يبد عليها اقل دليل على اليأس أو القنوط

القى الكاهن نفسه على « عنجريبه » عندما ارخى الليل سدوله ، ولكن لم يغمض له جفن فحمل عنجريبه الى الخارج ثم رقد يحدق النظر الى قبة السماء الزرقاء وقال في نفسه ان هذه السماء بعينها تظلل وطنه الذي نفي بعيداً عنه الى ارض تحيط بها الآلام والامراض

وبينا كان راقداً على هذه الحال في ليلة ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٩١ وقد استسلم للاقدار ، اذ شاهد فجأة اعرابياً منحنياً فوقه

لم يخطىء الكاهن معرفة منقذه الموعود به بالرغم من ظلمة الليل فقام ودخل معه الى كوخه واذ ذاك قال احمد حسن بايجاز

— ها انذا ، فهل انت قادم ؟

ادرك الكاهن معنى ما قاله الرجل ولكن الصدمة عقدت لسانه عن الكلام على حين خطرت بعقله الف فكرة واشتدت ضربات قلبه وقال هل تستطيع الراهبات أن يتحملن اخطار السفر ومشاقه ؟ وكان احمد حسن واقفاً ينتظر الجواب فقال الكاهن في النهاية

— لو لم اكن انوي مرافقتك ما ارسلتك الى مصر

قص الاعرابي ما حدث له بايجاز ، فقال انه قابل رئيس الاساقفة وأمضى معه اتفاقاً . ولم يأت معه بخطابات . ولكنه قابل ضابطاً انجليزياً لا يعرف اسمه ، اعطاه مئة جنيه ليشتري بها إبلا لنقل الاسري عليها بدلا من محاولة ركوب النهر الى بربر . ثم سأل عن الراهبات فلما علم ان أحداهن توفيت منذ شهر ضرب جبينه بيده وقال

— كان في وسعي ان احضر قبل الآن بشهر والآن سيتوفر معنا جمل

— فقال الكاهن

— كلا . ستحل مكانها راهبة أخرى

وكان احمد حسن قد جاء معه بابله واسلحته فاراه الكاهن اين خبأ مئة رصاصة في مكان خفي . وبعد ذلك انصرف الاعرابي فلم يصدق الكاهن ان ما جرى حقيقة واقعة وتمنى فى قلبه لو أن الرجل جاء معه بسطر واحد من رئيس الاساقفة لكي يتحقق من صدقه

انتظر الكاهن حتى اختفى القمر ثم انسل الى كوخ فرنشسكا وكان بابه مغلقاً بحصيرة

سمعت فرنشسكا وقع اقدام ثم رأت ان القادم رجل حافي القدمين فزعمت ان الكارثة التي خشيتها سبع سنوات قد نزلت بها الآن ، وعلى ذلك بحثت عن القارورة التى حفظت بها الجزء القليل الباقي من السم الذي قتلت به المهدي ، إذ استقر رأيها على ان لا تعيش وترى ما يصيبها

وضعت فرنشسكا السم على شفتها وتأهبت لتناوله وكبحت عواطفها بشقة فلم تقاوم او تحاول الصياح ولكن سرعان ما سمعت صوتاً مألوفاً يناديها قائلا

— ايتها الاخت تريزا

فقالت فرنشسكا بابتهاج

— نعم يا ابت

— لقد جاء منقذنا ، فاختاري فرصة نتكلم فيها معاً بحيث لا يسمع

حديثنا أو يرتاب فينا أحد . اذهبي الآن واخبري الراهبات الاخريات . انك تعلمين اين الاخت اليزابث . أما الاخت كاترينا فتقطن في منزل يونيدس اليوناني فاخبريها انني مريض جداً في كوخي واطلبي اليها ان تاتي لتتولى خدمتي وتمريضي

لم يقل الكاهن هذا لانه كان مريضاً ، ولو ان الله يعلم ما به من اسقام ، ولكنه رأى انه يستحيل على الراهبة الهرب وهي في منزل الرجل اليوناني ، وانه اذا ذاع النبأ اعتقد العرب ان مرضه هو السبب في اختفائه عن اعينهم

كان القمر بدراً فكان من المتعذر والحالة هذه الشروع في السفر في ضوء القمر . وكان على احمد حسن في خلال هذه الفترة ان يتأهب للرحيل دون ان يحاول الاختلاط بالكاهن

أخذ النهار يقترب وهم ينتظرون بفروغ صبر وقد ذهبت كل رغبتهم في الطعام . ولا عجب فقد اصابتهم حمى الاضطراب بسبب الخوف والآلام الفكرية وحريتهم المنتظرة ، ثم فراقهم لاخوانهم في الشقاء الذين شاطروهم التعاسة والهوان وضروب الآلام اعواماً طويلة . على ان مثل هذه العواطف يجب نبذها جانبا والعمل على تنفيذ مشروع الهرب . وفي الواقع كانت نفوسهم تتوق الى الفرار ، لا يشغلها شاغل غير حمى القلق التى كادت تعصر ارواحهم عصراً

وقع ما كان منتظراً ، فقد جاءهم احمد حسن قبل موعد الرحيل بيوم وأخبرهم ان العرب الذين رافقوه من كورسكو لم يعودوا بعد ، وان عليهم أن يرحلوا قبل ان يفكر أحد في سفرهم . وعلى ذلك أيقن التعساء ان خطتهم قضى عليها بالفشل وذكروا جميع الذين حاولوا الهرب عبثاً من المصريين — رجالا ونساء — وهم الذين حاولوا الفرار إلى مصر بطريق بربر فقبض عليهم وأعيدوا إلى أم درمان حيث لايزالون مكبلين بالحديد ، وكذا الأروام الذين جيء بهم من القضارف على زعم أنهم حاولوا الهرب إلى الايطاليين في كسلا

هذا ما خطر ببال هؤلاء التعساء . أما احمد حسن فكان على عكس ذلك يرى غير رأيهم ، فكان يأتي اليهم من وقت الى آخر ليخبرهم ان كل شيء سائر في مجراه الحسن بالرغم من التأخير الذي اضطروا اليه اضطراراً ، وان لديه جمالا سريعة أعدها للسفر

أخيراً وقعت في اليوم الحادي والعشرين من شهر نوفمبر حادثة جعلت كل تأخير مستحيل، ذلك ان حرباً اهلية نشبت بين الخليفة عبد الله والخليفة شريف شغلت بال كل انسان . وقد اشتد قلق الكاهن وأراد مقابلة احمد حسن ولكنه لم يستطع حتى الاهتداء الى مكانه دون اثارة الشكوك والريب . فتجنب القس مقابلة احد مخافة ان يتهم بشيء مما يجري

أخيراً جاء احمد حسن في يوم الجمعة ٢٧ نوفمبر الى كوخ الكاهن وقال انهم سيشرعون في السفر مساء الاثنين . فسأله الكاهن بلهجة التأنيب لماذا لم يأت على أثر نشوب الفتنة فأجابه الاعرابي قائلا ان هذه الفكرة خطرت بباله ايضاً ولكن رجلا من رجاله حبس فانتظر حتى اطلق سراحه ثم استطرد في حديثه فقال

— على انه ليس ثمة ضرر من جراء تأخيرنا هذا ، فقد أرسل الخليفة عبد الله جميع الابل السريعة التي كانت في بيت المال الى المديريات لاستدعاء التجارة ليخمدوا نار الفتنة ،وعلى ذلك لا اخشى ان يطاردنا احد . وقد سمعت ايضاً ان كثيراً من الاسرى الآخرين سينتهزون الفرصة للهرب ، ولكن لم يتأهب لذلك احد منهم . ولذا ستتحول انظار المطاردين الى جهة اخرى

نقل الكاهن هذه الانباء الى فرنشسكا فعولت على زيارة ابيها في «السائر» بعد ان اقسمت ان لاتفعل شيئاً يثير الشكوك والريب

الفصل الثانى والعشرون

فرنشسكا والدون زارو

اخذت الاعتقادات الخرافية ترسخ عاما بعد عام في قلب ادريس الساير، حارس سجن أم درمان الذي امات او جوّع حتى الموت اناسا حكموا في ايام سطوتهم ونفوذهم بلاداً او قادوا جيوشاً — الى أن غض الطرف عن الزيارات التي كانت تقوم بها الاخت تريزا، الراهبة ذات العين الحسودة. فهي التي استطاعت ان تعين لابيها مقداراً قليلا من الطعام، وهي التي اخافت الحراس ومنعتهم من التعرض الى طعامه، وهي التي كانت تقوم بتمريض المرضى

وكان ادريس السجان يميل اليها فوق ذلك لجمالها لأنها لم تحاول اخفاء بياض جلدها. وقد احسنت في عملها هذا لان الجميع كانوا يعلمون انها زوجة المهدي البيضاء، وكانوا قد سمعوا بجمالها الرائع ولكن لم يجرأ على التعرض لها احد لأنهم سمعوا قصة وفاة المهدي. وفي الواقع لو علمت فرنشسكا قوة نفوذها لنالت من الخليفة كل شيء تطلبه الا السماح لهـا بمغادرة ام درمان، وهذا كله بفضل ذلك الاعتقاد السخيف الذي رسخ في عقول هؤلاء البسطاء

على ان ادريس نسي على مر الايام العين الحسودة وأخذ يعجب بابتسامات الفتاة الخلابة، ثم زادت مكانتها لديه رفعة خصوصاً بعد شفاء طفل محبوب له عالجته بالعقاقير العشبية والادوية البسيطة التي كانت لها بها خبرة ومعرفة

لهذا السبب وغيره كانت فرنشسكا تقابل دائمًا بالترحيب في «الساير». وقد سمح لها بالاهتمام بالدون زارو، الذي كانوا يجهلون علاقتها به، ومعالجته من مرض داخلي تظاهر به

وكان الخليفة عبد الله يرتاب في كل رجل خصوصاً امناء بيت المال، فكان يستدعى الدون زارو من وقت الى آخر لمشاورته فى حسابات بيت المال، ولهذا السبب وضعه في «الساير» مكبلا بالحديد مخافة ان يتمكن من الهرب فيحرم خدماته الجليلة

سمح للدون زارو بأنشاء كوخ خاص في فناء السجن فبناه على مسافة ما من الأكواخ الاخرى. وكانت فرنشسكا قد اخبرت اباها ان لديها شيئًا هاما تريد ان تسره اليه متى سنحت الفرصة فتظاهر بالمرض وانقطع عن الطعام تقريبًا ولزم كوخه ولم يغادره. ولما كان الاسرى يموتون في «الساير» كل يوم بسبب الامراض والجوع والمتاعب، فقد مضى اسبوع تقريبًا قبل ان يلاحظ ادريس ان الدون زارو مريض، ويجيب طلبه فيرسل الى «الاخت تريزا»

لم يكن هناك احد في جوار الكوخ عند ما وصلت فرنشسكا الى السجن . وكان الدون زارو راقداً على عنجريب وقدماه نحو الباب ، فكان اول شيء وقعت عيناها عليه كومة السلاسل الثقيلة التي كبلت بها قدماه ، فادركت ان الهرب معه مستحيل

باركته الاخت تريزا حسب العادة ، على انها لم تجرأ على معانقته مرة واحدة منذ وصولهم الى أم درمان لأنها كانت تعلم ان للحيطان آذنا واعينا . فقد كانت المدينة مهد الجاسوسية لأن الخليفة كان يحكم الناس بالقوة والارهاب حتى بات الجميع يتمنون هلاكه ليتخلصوا من اعباء الضرائب الباهظة التي فرضها عليهم لامتصاص دمائهم وأموالهم

استبد الخليفة عبد الله بشعبه فلم يعد يحكم البلاد بصفته خليفة المهدي ، ثم اشتدت عوامل الغيرة في قلبه من نحو ابناء المهدي وأفراد اسرته فقتل بعضهم وشرد البعض الآخر وجرد الجميع من رواتبهم واملاكهم ، ولولا انه استمال قبائل البجارة وقبيلته الخاصة (التعايشة) اليه بالمال لخلع وقتل من زمن بعيد .

جرّت فرنشسكا « عنجريب » الرجل المريض نحو الباب لكي يتمكن من استنشاق الهواء من جهة ولكي تستطيع من جهة اخرى الجلوس خارج الكوخ مولية ظهرها نحو الخارج فلا يرى وجهها ولا يراه احد من الذين يروحون و يغدون في السجن من الحراس وغيرهم

لانها كانت تعلم ان الحديث الذى سيدور بينهما ربما أثار في نفسيهما انفعالات تبدو على وجهيهما فتثير شكوك الرقباء

خشيت فرنشسكا ان تؤثر الانباء التي تحملها في نفس الرجل المريض ، ولكنها كانت تخشى من جهة اخرى ان يعكر صفوهما أحد فقالت

— لدى الكاهن النمسوي جمال له وللأخت الاخرى ولي

لم تفه الفتاة باكثر من ذلك ، ولكنه ادرك معنى قولها فسألها قائلا

— متى ؟

— مساء الاثنين

— في أي يوم نحن ؟ لقد فقدت كل شيء في هذا السجن حتى حساب الأيام

— اليوم السبت ، ولكنني لا اريد مرافقتهم

— يجب ان تذهبي ياعزيزتي

— كيف استطيع ؟ اذا كنت في شك من الامر عند ما اتيت فقد زالت شكوكي الآن بعد ان رأيتك . لا أستطيع ان اغادرك مريضاً على هذه الحال ، ثم من يأتي لك بالطعام دع عنك الاهتمام بخدمتك وتمريضك ؟

— لست مريضاً وانما انقطعت عن الطعام لكي يرسلوا في طلبك لتمريضي ، ستطعمني غربان السماء

— أرجو ذلك

— ثم في وسعي ان أرسل كلمة الى الخليفة فلا يدعني اموت جوعاً

— ان جميع الاسرى الذين ليس لهم اصدقاء يتضورون جوعاً في « الساير » ، فليس في طاقتي ان اغادرك

— لا تخافي . انني قلق عليك ما دمت في هذه البلاد لانني لا استطيع حمايتك والسهر عليك مادمت في « الساير » مكبلا بالحديد ولا استطيع ان امنع احداً قد يتعرض لجمالك

— لست جميلة في هذه الثياب ياابت خصوصاً بعد ان لفحت الشمس وجهي

— انك في عيني كملاك كريم

— اذن لا يستطيع ملاكك ان يغادرك يا ابت العزيز

— ولكني أريد ان تسافري إكراماً لي . لقد ملت نفسي هذه القيود التي لا استطيع التخلص منها مالم تسافري الى القاهرة وتعملي لأطلاق سراحي . لست رجلا ذا أهمية في عين الحكومة حتى تذكرني ولست في منصب رفيع او من جنسية يهتم بها أحد ، ولذا لا يعمل لاطلاق سراحي أحد الا ابنتي المحبوبة

كانت المدينة في معزل عن العالم ، لا يتسرب اليها شيء من

الأنباء الخارجية ولذا لم يسمع احدهما ان انوسنزا وصلت الى القاهرة منذ اكثر من عام ولذا سألته فرنشسكا قائلة

— وماذا استطيع عمله ؟

— في وسعك أن تذهبي الى بارنج القنصل البريطاني

— لم يكن بارنج صديقا لغردون

— ولكنه رجل عادل يعمل لكل من يخدم بلاده

— اخشى أن لاتستطيع خدمته وهذه القيود الثقيلة في رجليك

— انك على خطأ ياعزيزتي

فتبسمت الفتاة ابتسامة تنم عن الشك ، فقال الرجل

— في وسعي أن أضلل الخليفة ، وأن اعكس مدلول الخطابات الاجنبية التي يرسلها الي ، وأن افسد المدافع التي تحملها البواخر واتلف المهمات اذا أتيحت لي الفرصة . ثم لايزال لدي نفوذ بين الزنوج الذين كانوا في جيش غردون والذين التحق كثير منهم بخدمة الخليفة

— ولكن هل يصدق بارنج كل هذا ؟

— ثم لديك الضابط الطويل الذي كان يتردد كثيراً على المطعم ، وكان السبب في علاقتي بالانكليز والمجيء بي الى الخرطوم ، فهذا الضابط قال لي عندما ودعته انه سيعمل كل شيء لاجلي ، ثم أريد أن أقف على أنباء والدتك ففي وسعك أن تعلمي من القاهرة ما أصابها بعد انقطاع انباء النجومي

— اذن صفحت عنها يا ابت ؟

— ليس هناك ما يستحق الصفح . انها مكرهة وفوق ذلك لا يجري في عروقها ذلك الدم الحار الذي يجري في عروقك يافرنشسكا

— انني فرحة بقولك هذا ياأبت ، سأسافر اذا شئت ان ابحث عن امي . وسأخبر ادريس السجان انني سأحضر غداً حاملة لك الدواء ، والآن دعني أجذب عنجريبك الى الخارج في الظل لكي يرى الجميع كم انت مريض

اتمت فرنشسكا هذه المهمة ثم قالت

— يجب ان تخرج من الساير وان تتخلص من هذه القيود والا فان الابل لا تنفعك شيئاً اذا ارسلت اليك

— في وسعي ان افعل ذلك لأن الخليفة وعد ان يرفع قيودي هذه ويعطيني منزلا في جواره اذا اعتنقت الاسلام وصرت من انصار المهدي . وقد رفضت طلبه ولكني سأخالف ضميري مدة وجيزة واقبل ذلك

الفصل الثالث والعشرون

— الهرب —

فارقت فرنشسكا اباها دون ان يطيلا الحديث معاً كالعادة على ان يلتقيا بعد قليل ، ولكن شاءت الاقدار غير ذلك فلم يلتقيا ثانية قبل سبع سنوات . فقد جاء الكاهن النمسوي الى فرنشسكا تلك الليلة وقال لها ان الرجال اخطأوا فجاؤا بالأبل قبل الميعاد المعين بيوم ، وان عليهم ان يشرعوا في السفر حالا ، فلم يكن هناك وقت والحالة هذه لأبلاغ الدون زارو ، ولما كان على الفتاة ان تبت في الامر في تلك اللحظة فقد رأت من الصواب أن تسافر قائلة في نفسها أن أباها سيسمع بالنبأ بعد قليل ، وستسمع به أم درمان قبل مضي أربع وعشرين ساعة

وكان احمد حسن قد أعد وسائل الفرار فأركبهم على ظهور الأبل خارج باب المدينة البحري ثم سار بهم دون ان يتبادل أحدهم مع الآخر كلمة . فقد عقد الخوف ألسنتهم عن الكلام وكاد الرعب يوقف دقات قلوبهم ، فكانوا كلما سمعوا حركة ظنوها مطاردة لهم . ولكن كان الليل شديد البرودة والناس داخل اكواخهم ،

والأبل خفيفة الحركة ، سريعة السير فلم يشعر بهم أحد . وقد تألمت كرات اعينهم من شدة الاحداق في الظلام . وقد أرادوا ان يتقوا ريح الشمال فلفوا حول وجوههم قطعاً من القماش حسب عادة العرب . وكانوا لحسن حظهم يلتقون في طريقهم ببعض « الجلابة » على ظهور الحمير ، فكان احمد حسن يتخلف كلما التقى بجماعة منهم ليحدثهم على انباء الفتنة والحرب الأهلية بين الخلفاء قائلا ان معه جماعة من الدراويش الفارين

وقد كان عليهم ان يسيروا في الطرق الجانبية فتحملوا متاعب جمة بسبب وعورة الطريق وما اعترضهم فيها من الاشواك والصخور . وقد سقطوا غير مرة عن ظهور الابل لاصطدامهم بشجرة أو لعثور الأبل بصخرة فكانوا لا يجدون حيلة غير القيام والركوب ثانية . وقد اغمي على الاخت اليزابث مرة بسبب صدمة أصابتها فاضطروا الى ربطها على ظهر الجمل بعد أن افاقت من اغمائها

وكان الوقت ثميناً لأن المسألة كانت مسألة حياة أو موت ، ولكنهم رأوا انهم لو استطاعوا ان يقطعوا مرحلة يوم كامل قبل ان يكتشف أمرهم احد ، صاروا في مأمن من الخطر . وكانوا يرجون تحقيق هـذه الأمنية لأن الخليفة عبد الله كان منهمكا في اخماد فتنة الخلفاء الآخرين بحيث لم يكن ليكترث بمسأله ثانوية كهذه .

وعلى ذلك واصلوا السير بدون توقف ، يجدون السير في الصحراء نهاراً و يسيرون على شاطيء النهر ليلا

وكانوا يلتقون في بعض الأحيان بجماعات من الرعاة فيتولاهم الخوف والهلع ولكن احمد حسن كان يتخلف دائماً حسب عادته ويقص عليهم انباء القتال وينصحهم بالهرب والفرار اذا رأوا رجالا مسلحين . وكان غرضه من ذلك ان يمنعهم من ارشاد الأعداء عنهم ، ولكن الرجال كانوا يبغضون الخليفة، وقد أقاموا البرهان على حسن نيتهم نحو الفارين بأعطائهم ما يحتاجون اليه من اللبن والطعام

لم يجرأ احد على التلكؤ قبل ان يقطعوا مسافة طويلة في قلب الصحراء . وكانوا في حاجة شديدة الى الطعام فترجلوا ليأكلوا مما كان معهم من الماء والتمر واعطوا الأبل مقداراً من الذرة لتتغذى ايضاً . وعندئذ فقط أدركوا مبلغ الآلام التي عانوها ، فقد شلت حركة اعضائهم بحيث لم يستطيعوا الوقوف على ارجلهم وتمزقت ثيابهم من الاشواك وتجرحت اجسامهم والتصقت ملابسهم بجراحهم . على انهم لم يكادوا يتناولون طعامهم حتي استأنفوا السير ثانية . ولما وصلوا الى « جوبات » عرجوا نحو النهر ليستقوا ثم واصلوا السير بعد ذلك بعيداً عن « المتمة » عاصمة قبيلة « الجعليين »

وقف الركب عند قرية في جنوب بربر ، وكان لاحمد حسن صديق فيها فذهب اليه ليعبر بهم النهر وترك الجميع وسط غابة

صغيرة وهم يرتجفون خوفاً وفرقاً ، ثم عاد اليهم وقال انه لم يجد صديقه ولكنه قابل رجلين غادرا أم درمان في زورق بعد فرارهم بقليل فعلم منهما ان الحرب الأهلية انتهت، ولكنهما لم يشيرا بكلمة واحدة الى اكتشاف أمرهم . وعلى ذلك ركبوا ابلهم في الحال وجدوا السير شمالا طول تلك الليلة واليوم التالى دون توقف . وكانت أعصابهم قد توترت من مواجهة الاخطار المستمرة فلم يشعر احد منهم بتعب

وصل الركب في مساء اليوم التالي الى نقطة مقابل مدينة بربر مباشرة فاستقوا ثم واصلوا السير فى الصحراء ثانية لأن المدينة كانت ملأى «بالبجارة» فخشوا ان يقبضوا عليهم و يعيدوهم الى أم درمان ثانية . وكان احمد حسن شديد القلق فلم يكترث بالطريق، وعلى ذلك لم ينتصف الليل حتى سلم مرغماً بأنه ضل الطريق ولا يعرف أين هم وان عليهم ان يترجلوا حتى يطلع الفجر

ترجل الركب عن ظهور الابل ثم أكلوا مما لديهم من الخبز والتمر والماء ثم أراحوا أجسامهم التي عانت ما عانت من المتاعب والمشاق . وكان الكاهن يطمئنهم ويؤكد لهم انهم فازوا ونجوا من ايدى الاعداء ، ولكن لما طلع الفجر وجدوا أنفسهم فوق نجد صخرى لم يعرفه واحد من المرشدين الثلاثة

على انهم كانوا يعرفون ان النهر في ناحية الشرق وان الوصول اليه شاق متعب، فساروا في طريق وعر كثير المنحدرات بحيث كانوا

يضطرون في بعض الاحيان الى الترجل وقيادة الابل ، الى ان وصلوا الى السهل فابتهج المرشدون ثانية لأنهم عثروا على الطريق وقالوا انهم على مقربة من قرية « بنجا » حيث يرجون ان يجدوا زوارق تعبر بهم النهر . وكانوا لحسن الحظ يسيرون بحذر فرأوا ثلاثة من الهجانة يسيرون نحو ابي حمد، واذ ذاك أمرهم احمد بالترجل والاختفاء مع الابل فى خور على زعم ان الهجانة رأوهم وانهم ذاهبون الى امير ابي حمد للقبض عليهم

أوجس المرشدون خيفة واخذوا يتحدثون سراً فيما بينهم واخيراً استقر الرأي على ان يذهب اثنان منهم مع احمد حسن الى النهر لينظروا هل يستطيعون عبوره وليستقوا ما هنالك من المعلومات والانباء . وكان المرشد الثالث قد تخلف مع الركب فأمرهم ان يناموا قليلا ولكن لم يغمض لهم جفن بالرغم من شدة حاجتهم الى الراحة . ولا عجب فقد سلبهم قلق المرشدين ، ورؤية الهجانة الثلاثة ، والاخطار التى تهددهم ، الراحة والطمأنينة

اخيراً عاد احمد حسن وحامد وعوض المرشدان عند غروب الشمس مبتهجين فقالوا ان الهجانة الثلاثة لم يذهبوا الى ابي حمد وانه لا يعرف احد من انباء هربهم شيئاً ، وانهم استأجروا زورقاً لعبور النهر بهم بصفتهم عبيداً مرسلين الى امير ابي حمد

سار الركب بعد سدول الظلام الى شاطيء النهر فلم ير احمد

البحار الذي اتفق معه ، ولكنه شاهد زورقا آخر فيه صبيان فأعطاهما ريالين ولم تمض مدة وجيزة حتى وصل الزورق بهم الى الضفة الاخرى من النهر فاستقوا ثم استأنفوا السير شمالا قبل ان يعود الصبيان بزورقهما الى الشاطيء الآخر

وكانت الابل قد جددت قواها وانتعشت بعد هذه الراحة القليلة فجددت السير طول الليل وطول اليوم التالي دون وقوع حادث يذكر . ولم يؤلمهم غير شيء واحد هو تحول الطقس من البرودة الشديدة ليلا الى حرارة قاسية نهاراً . وقد تأثرت الابل بسبب هذا الانقلاب الفجائي فبدت عليها علامات الهزال والتعب

كان عليهم اذا ما وصلوا الى ابي حمد ان يسيروا في الصحراء النوبية . ولكن حدث في اليوم التالي ان ضلوا الطريق ثانية فلم يصلوا الى النقطة التي أرادوا الوصول اليها الا عند منتصف الليل . وكانت هذه النقطة واقعة فوق مرتفع صخري يشرف على النيل فاضطروا الى النزول الى شاطيء النهر ليستقوا . وكانت هناك صخرة مرتفعة حجبت ضوء القمر عنهم ، ولكن لمعان النجوم التي كان نورها يتلألأ على سطح الماء كشف لهم عن الطريق واظهر اشجار النخيل ، على حين تكونت من النهر والاكمة الصخرية وزرقة الليل القاتمة ، صورة من الهدوء التام والسكون الشامل بحيث كانوا يسمعون خرير الماء ، ولكن لم تمض مدة وجيزة حتى سمع احمد حسن وقع

اقدام فهرع الى الابل فهيأها للركوب ثانية ثم دفع من معه والابل الى خور بين الصخور وهو يقول في نفسه ان الاعداء اكتشفوا امرهم وان الدفاع في هذه الارض الوعرة مستحيل فلا مناص والحالة هذه من الوقوع في الاسر ثانية والعودة الى « السابر » بما فيه من الويلات والمصائب

وفعلا ظهر هجان مسلح ببندقية ولكنه كان منفرداً فتقدم احمد حسن اليه بدهائه وقبض على غدارته بلطف ومد اليه يده اليمنى مصافحاً ثم طلب اليه ان يترجل . وكان الخوف قد تملك قلب الرجل فصدع بالامر ، واذ ذاك خاض احمد حسن معه في حديث طويل فقال الرجل انه من جنود الخليفة الذين ارسلوا من بربر لمنع تسرب الرقيق من السودان الى مصر ، واتهم احمد بانه يحاول تهريب جماعة من الرقيق ، فاعترف الاعرابي له بذلك ، فأمره الحارس ان يرسل من معه الى امير ابي حمد

سمع المرشد حامد ما جرى من الحديث بين احمد حسن والحارس فعاد الى الكاهن والراهبتين وقال لهم انه قضي عليهم بالهلاك . فاضطربت الاخت اليزابث وكادت تسقط عن ظهر الجمل وعندئذ اخرج الكاهن مديته الطويلة واعطاها المرشد وقال له

— اذهب وقف بجانب الحارس ثم أشر الى احمد ان يعطيه

عشرين ريالا ، فاذا لم يقبل فلا اخالك تجهل ما يجب عليك عمله

ادرك حامد معني قول الكاهن فذهب ووقف بجانب الحارس.

وقد طال الحديث بينهم ولكن حامد لم يستخدم مديته وعاد المرشدون بعد قليل واستأنف الجميع السفر بسرعة . وقد قال احمد ان الحارس عرفه وعرف ان معه جماعة من الفارين لامن العبيد وانه يريد مساعدتهم على الفرار، ولكن لما كان الرجل ينتمي الى القبيلة التي اغتالت الكولونيل ستيوارت والمستر بور عند ما ارسلها غردون على الباخرة « عباس » فقد ارتاب احمد حسن في أمره ولم يأمن شره الا بعد ان اخذ الحارس منه النقود،لانه كان يعلم ان هذا يقيده برابطة الشرف . على ان احمد حسن لم يأمن شر الحارس بالرغم من الضمانات التي أخذها ورأى أن خير وسيلة تضمن لهم السلامة هي أن يأخذ بندقية الحارس . وفعلا تم له ما أراد بعد أن وعده بالقائها في الصحراء عند طلوع النهار اذا لم يجده متعقبا أثرهم .

سيقت الجمال باقصي سرعة ، وسار الركب مبتعدين عن ابي احمد ما استطاعوا . فلما طلع النهار وجدوا أنفسهم وسط سهل مستوى ، يمتد البصر فيه الى مسافة بعيدة ، ولما لم يقع نظرهم على الحارس القوا بندقيته في الطريق عالمين أنه سيجدها بسهولة اذا اقتفي أثرهم فيما بعد

سار الركب طول اليوم تحت حرارة الشمس المحرقة فى ذلك السهل الشاسع الى أن التقوا قبل غروب الشمس بطريق القوافل الممتد بين ابي احمد وكورسكو،وهو طريق يجتاز تلالا قاحلة واودية موحشة . واذ ذاك خفت وساوسهم وذهب عنهم الخوف لأن طبيعة الارض كانت تمكنهم من الدفاع عن انفسهم ولانه يستحيل أن يدركهم احد قبل وصولهم الى كورسكو

أخيراً نفذت آخر كسرة من الخبز لديهم ، أما الماء فكان لا يزال متوفراً لانهم أخذوا كفايتهم منه قبل أن يلقاهم الحارس . فأخذ الكاهن النمسوي واحمد حسن يظهران جلداً عظيما ويمزحان فقال الكاهن مخاطباً الراهبة

ـــ هذه آخر كسرة من الخبز لدينا ، فهل ترين من الحكمة أن نأكلها ايتها الاخت اليزابث ؟

فأجابته على سؤاله باذراف الدموع . اما فرنشسكا فسألته متي يحصلون على طعام آخر فقال .

ـــ غداً ، اذا بقينا على قيد الحياة

ـــ اذن لنتشدد ولنتشجع ما استطعنا

وقال احمد حسن مازحًا

ـــ لديكم ما يكفى من الماء ، وقد دفعتم ثمنه عشرين ريالا ليلة أمس

امتقع وجه فرنشسكا لهذا التلميح الى الخطر المحدق بارواحهم فألحت عليهم ان يجدوا السير باهتمام ونشاط . والواقع لم يكن هناك وقت يمكن تضييعه فقد كانت الابل ضعيفة خائرة القوى لا تستطيع المشي تقريباً بالرغم من جلدها بالسياط . على أن الاعراب كانوا في حالة نفيسة جيدة فأخذوا يروون لهم قصصاً عن اناس ماتوا في الصحراء ضحية الجوع والعطش،فانتعشت روح الهاربين قليلا ولكن داهمهم خطر جديد لم يكن لهم عليه من سلطان ، ذلك أن النوم الذي كان قد ذهب عنهم بسبب ما تولاهم من الخوف والقلق ، حطّ عليهم الان بقوة مدهشة . وقد جربوا كل وسيلة لكي يتخلصوا من كابوسه ، فكانوا يصيحون ويتحدثون معاً بصوت مرتفع وينشبون أظافرهم في لحومهم ، ولكن ذهب كل ذلك عبثاً لان أجفانهم كانت تغمض بالرغم منهم كأنما تعلقت بها كرات من الرصاص

وكان احمد حسن يصيح في وجه كل منهم قائلا

— لا تناموا والا سقطتم وتكسرت اعناقكم

ولكن لم يجد ذلك كله نفعاً . فكان كلما ساد السكوت دل ذلك على ان النوم غلب عليهم . وكانت الابل تشعر بنومهم هذا فتتباطأ في سيرها الى أن يختل توازن راكبها فيصحو من نومه فجأة مخافة السقوط ويذهب عنه النوم فترة وجيزة . والظاهر ان هذا كان حال الجميع وهم

يسيرون فوق التلال والاخاديد ، واخيراً أخبرهم احمد حسن انهم سيصلون في الصباح الى بئر امر غردون بحفرها ، وان الدراويش قتلوا رجلا من المهاجرين،وهي قصة اخترعها من عنده ليولد في قلوبهم الرعب ، عالما أن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع أن يطرد النوم بها عن أجفانهم.وهكذا ظلوا سائرين وقد أعياهم التعب والجوع وعدم النوم الى أن كادت الشمس تغرب وراء الافق . وكانوا قد بلغوا وقتئذ قمة مرتفع من الارض ، فأشار احمد حسن الى جسم مرتفع فوق التل أمامهم ، فاذا به سور بسيط من الطين ، ولكن شوهد فوقه علم أحمر يلعب به الهواء وهو يلمع في ضوء الشمس عند غروبها وقد رسم عليه هلال ونجمة

صاح الكاهن النمسوي اذ ذاك ابتهاجاً قائلا

— هذا علم الحرية !

وأطلق احمد حسن طلقاً نارياً في الهواء بعد آخر قائلا

— لقد نجوتم من شر الخليفة

نعم ، كان العلم علم مصر، وهو دليل على وجود الجنود المصرية ولكن لم يروا لهم أثراً ووجدوا أن الرجال الذين خرجوا للقائهم هم من العرب — من العبابدة الخاضعين للشيخ محمد صالح — فاستقبلوهم باطلاق بنادقهم ورفعوهم عن الابل وحملوهم الي الحصن

خارت قوى فرنشسكا . على أنها لم تبك ولم تفقد حواسها وانما أصابها شيء من الذهول والخبل لحظة فأخذت تهذي بكلمات عربية لا معني لها فلما سكتت قال لها شيخ العبابدة

— ان الجيش المصري في حلفا ينتظر القضاء على الخليفة عبد الله كما قضي على ود نجومي ، ولكن يجب ان تنامي يا « ست » انت ورفاقك لانكم قطعتم خمسمائة ميل أو أكثر فى سبعة أيام

لم يغمض لهم جفن ، ولو أنه خيل اليهم أنهم سيسقطون على أرض الحصن نياماً من جراء ما أصابهم من التعب والضنى، ولكنهم جلسوا يلتهمون ما قدم اليهم من القهوة والخبز واللبن ، في هذا الحصن الذي كان المخفر الامامي لمصر

جاء بعد ظهر اليوم التالى رجل اعرابى — ابن أخي احمد حسن — الى حصن «مورات» وكان في طريقه الى السودان مع قافلة تحمل شحنة من البلح والدقيق . فحمل رجاله معهم القصة الى اسواق أم درمان ، ومنها تسربت حتي بلغت مسامع الخليفة عبد الله ، ولكن كان الكاهن النمسوي والراهبتان الايطاليتان وفرنشسكا قد وصلوا الى كورسكو قبل ذلك بمدة طويلة مكرمين معززين ، لان رجلا من العبابدة كان قد سبقهم الى كورسكو على أثر وصولهم الى الحصن حاملا هذا النبأ العظيم ، فخرج الجنود الكشافة وظلوا يراقبون الطرق منذ

ذلك الوقت الى أن التقى الكاهن ومن معه عند مدخل الوادي العميق الذى يتصل بطريق القوافل المؤدي الى كورسكو ، بالفرقة المصرية التى تتولى حماية كورسكو ، وهى تصدح بموسيقاها بقيادة القائمقام على بك حيدر وضباطه بملابسهم العسكرية الرسمية



الفصل الرابع والعشرون

لقاء فرنشسكا ولامبرت

اصوان هي الآن مدينة الاغنياء الذين لاعمل لهم من مختلف الامم ، وملجأ المصابين بالامراض الصدرية ، ومنبع جمال وادي النيل ، والذين يشاهدونها لا ينسون مناظرها الطبيعية الجميلة

تقع العين في اسوان على سماء صافية ونهر أزرق ورمال ذهبية وعناقيد من الاشجار الخضراء ، وعلى صخور الشلال العظيم التى تبدو كفيلة لامعة تغتسل في النهر ، وعلى الجزيرة وما فيها من الاحراج ومدينة الفراعنة ، وعلى ما بها من آثار الرومان وغيرها من المناظر الطبيعية البديعة حتي سماها بعضهم « بمدينة الاحلام »

ولما كانت المدينة واقعة عند قاعدة الشلال الاول ، فوق مرتفع صخري يشرف على النهر أمامها والصحراء من خلفها ، فان الدفاع عنها لا يتطلب أكثر من نصب بضعة مدافع وحفر بعض خطوط من الخنادق ، وهذه تكفي لصد جميع قوات الخليفة في حين كانت حاميتها تستطيع أن تتلقى المهمات والامدادات بطريق النهر ، وعلى ذلك اكتفت الحكومة المصرية عملا بأرادة مستشاريها البريطانيين بتحصين المدينة على هذه الحال لصد غارة الدراويش

جلس لامبرت في الايام الاخيرة من سنة ١٨٩١ مع جنود الارطة الحادية عشرة السودانية وغيرها من قوات الخديوي في الثكنات القائمة فوق أعلى نقطة في المدينة ينتظرون قدوم الدراويش . وكان المصريون يعلمون أن الدراويش لا يقدمون على مهاجمة حصون اصوان ومع ذلك بثوا العيون والارصاد لمنعهم من شن الغارة على المدينة ولاسر الفصائل التى تجرأ على الدنو من المنطقة الحربية ، في حين كانوا يراقبون الطريق الاكبر الذي يماشي النهر مارا بمقابر العرب العتيقة التي تمتد من أبواب اسوان الى الشاطيء المقابل لقصر انس الوجود

وكان الطريق مأمونا ، فكان الضباط وغيرهم يخرجون على ظهور الحمير الى الشلال لرؤية الشمس عند غروبها والتمتع بجمال الطبيعة هناك ، وكانوا يلتقون في أثناء طريقهم بفصائل من الجنود المصريين الذين يخرجون من وقت الي آخر للاستكشاف

يبعث الطريق الجميل الممتد الي الشلال ، بروح الابتهاج الى النفس لا سيما مقابر العرب وقبابها الجميلة التي بنيت في القرون الوسطي ، ثم الرمال الذهبية التي تتخللها المحاجر الحمراء الوردية التى نحت المصريون القدماء منها تماثيلهم ثم المسلات الناقصة وتماثيل الفراعنة

وكان لامبرت لا يعرف معني للتعب أو الملل في القيام بأعمال الاستكشاف ، فكان يتطوع لكل مهمة في المخافر الامامية لانه

كان يري أن العالم كله مختفيا وراء الافق من ناحية الجنوب . الى ان ثارت عواطفه ذات يوم ثورة شديدة لورود رسالة برقية من القائد المصري في كورسكو يقول فيها : « ارسلت اليكم على زورقي كاهناً وثلاث راهبات فروا من أم درمان وسيصلون بعد ظهر اليوم الى الشلال »

رأي لامبرت من هذه الرسالة أنه يستطيع الوقوف على أنباء فرنشسكا وان في وسعه أن يدبر لها طريق الهرب مما يستقيه من أنباء القادمين اذا صرحت له الحكومة بأجازة

وكان قائد الحامية في اسوان يعلم أن للضابط لامبرت شخصاً أسيراً في أم درمان فعهد اليه بهذه المهمة واتخاذ التدابير اللازمة للقاء القادمين . وعلى ذلك كان لامبرت هو الضابط الذي تولي قيادة الفرسان الذين استقبلوا الباخرة الصغيرة التى جاءت من كورسكو ودارت حول جزيرة أنس الوجود الى المرساة ، وهو الذي تقدم الى الاسرى وحياهم التحية العسكرية اكراماً لهم على ما تجشموه من الاهوال والاخطار في سبيل الحرية

وصلت الباخرة الي المرساة فتقدم لامبرت ووقف أمام جنوده . ثم استل سيفه وحيي فرنشسكا ومن معها التحية العسكرية أثناء نزولهم من الباخرة . وقد حذا رجاله حذوة في حين اهتفت السيدات

الانكليزيات اللائى كن في الشلال ولوحن بمناديلهن فى الهواء ترحيباً بقدوم الابطال الى أرض مصر

ترجل لامبرت بعد ذلك عن ظهر جواده ثم سار بخطوات ثابتة الى الاسرى الاربعة الفارين . وكانت الراهبات الثلاث يسرن في المقدمة يتبعهن الكاهن النمسوي

عرفت فرنشسكا لامبرت بالرغم من التغيير المظيم الذى أصابه من جراء السنين التي قضاها في حرب الصحراء واقتفاء أثر فكرته بعزم وعناد ، فجذبت غطاء رأسها وغطت عينيها لانها أرادت أن تفكر في الامر هنيهة قبل أن تسمح له بمعرفتها . على أنها لم تلبث أن شعرت بجفول منه إذ لاحظت على وجهه تغييرا ، جعلها تشعر بالخجل وهي لا تدري أن هذا التغيير كان من أجلها . وفوق ذلك قالت أنه ربما نسيها ونسي جنون شبابه، وانها اذا تطرفت فى اظهار عواطفها الودية نحوه فربما قابلها بالجمود والصلابة الانكليزية ، لذلك كله كبحت جماح عواطفها ولم ترفع عينيها الى وجهه

كان الكاهن الشخص الوحيد الذى صافح لامبرت . وكان قلبه مفعما بالفرح فلم يستطع الكلام وهزّ يد الضابط بانفعال . أما لامبرت فأنه لم يعرف فرنشسكا فسار الى الضابط الذي جاء مع

الباخرة ، فلما وقف منه على ما أراد معرفته وعلم ان لا امتعة للاسري عاد اليهم وسألهم هل هم مستعدون للرحيل

انقبضت نفس لامبرت لانه لم يحصل على أنباء تتعلق بفرنشسكا فقد أبلغه الضابط أنه لم يسمع عن وصول اسري آخرين غير الكاهن والراهبات الثلاث . وكان لامبرت يري في محادثة الراهبات خروجا عن حدود اللياقة فاشتد به الغم وتجلى على وجهه بحيث تقدمت اليه صغري الراهبات لكي تذهب عنه حزنه وتنعش نفسه فسألته قائلة

— الا تعرفني أيها الدون لامبرتو ؟

ارتجف الضابط وترنح الى الوراء كأنما أصابته رصاصة وامتقع لونه بالرغم من سمرة وجهه الذي لفحته الشمس . وقد حزنت فرنشسكا حزناً عظيماً لانها كانت تجهل أن تنكرها في ثياب راهبة هو أصل بلائه. على انها كانت قد نسيت تنكرها هذا تقريباً فقالت ان سبب الصدمة التي أصابته نسيانه انها على قيد الحياة ،وانه أتي أمراً جعله يجفل عند رؤيتها

رأى لامبرت في مقابلة فرنشسكا في ثياب راهبة قضاء على آماله كلها : فهل قاتل في الصحراء وراقب الطرق سبع سنوات طويلة لاجل هذا ؟ وهل قضى هذه السنين الشاقة الطويلة حتي اذا ما التقى بها وجد نجوم السماء أقرب اليه منها ؟ وا أسفاه . انها لن تكون له. لو كانت تزوجت انجيلو لكان المصاب أهون، لان انجيلو

من البشر يحتمل أن يموت قبلها ، أما عهودها المقدسة التي ارتبطت بها فلن تموت الا بموتها . والواقع لم تر فرنشسكا في حياتها رجلا أشقى من لامبرت في تلك اللحظة

تقدمت زوجة قائد الجنود البريطانية ، وكانت بين السيدات الانكليزيات اللائي رأين هذا المشهد المؤثر وسألته قائلة

— ماذا أصابك أيها الماجور لامبرت ؟

— لا شيء . لقد أصابتني أشد صدمة نزلت بي في حياتي

— ولكني لا أفهم معني قولك هذا . أليس في وسعي أن أساعدك بشيء ؟

— كلا . أن الجرح أعمق من أن يلتئم . بالله لا تهتمي بشيء

رأت السيدة أنه لا يريد أن يبوح لها بسره فلم تلح عليه السؤال مخافة أن تتجاوز معه حدود اللياقة والادب

جاء الان دور فرنشسكا . وكانت قد تعودت مثل هذه المباغتات وصهرتها نيران التجارب في أم درمان ، فرأت أن لامبرت أصيب بجرح قاس وأدركت أنه صديق عزيز جداً ولو أنها لم تشعر نحوه بعاطفة غرامية

نظرت السيدات الانكليزيات الى الصدمة التي أصابت لامبرت بعين الاهتمام الشديد، ولكن لم يكن اهتمامهن هذا شيئاً بجانب ما شعرن به عند ما شاهدن فرنشسكا تدفع غطاء الرأس عن

وجهها ومد ذراعيها الى الضابط الحزين وعلى ثغرها ابتسامة رقيقة قائلة

— ماذا جرى ياعزيزي لامبرتو ؟ ألست فرحا بلقاء فرنشسكا الصغيرة بعد كل هذه السنين ؟

ولكن لامبرت لم يستطع أن يرفع اليها عينيه . وكانت انوسنزا خشيت أن تتسرب الانباء الى أم درمان فيقضى على ابنتها بالهلاك فلم تخبره شيئًا عن حكاية برنس الراهبة الذي تنكرت به فرنشسكا .

رأت الفتاة انه لم يجبها بكلمة فوضعت يديها على ذراعه دون أن تكترث بالنساء ولا بالجنود الذين وقفوا يراقبون ما يجري . وكانت روحها تتجلى فى نظرات عينيها وفي نبرات صوتها وهي تقول

— عزيزي لامبرتو . ماذا جرى ؟ تكلم . لاتخفني بسكوتك هذا

فقال لامبرت

— كيف أستطيع الكلام يافرنشسكا بعد ان أقدمت على هذا العمل المروع ؟

جاء دور فرنشسكا الان فترنحت اذ ظنت أنه يشير الي زواجها بالمهدى ، فقالت وهي تلهث

— لم تكن لدي حيلة . كنت أسيرة في قبضة يده

فتحول لامبرت عنها وقد عرته هزة أخري وقال

— لا أصدق

فثار غضب الفتاة وحملقت في وجهه وقالت بغلظة

— تصدق ماذا ؟

— انه أرغمك على أن تكوني راهبة

— أكون راهبة ؟ لست براهبة

— أقسمي

— يا لك من غبي يا لامبرت . لقد ارتديت ثياب الرهبنة هذه لاحمي نفسي ليس الا . سل الاخت كاترينا

فأجابته الراهبتان بصوت واحد قائلتين

— نعم ، هي الحقيقة

علم لامبرت حقيقة السر الذي هاله فانبسطت أسارير وجهه وأشرق نور الفرح على محياه وتجلى مثل شمس مصر الساطعة.

وكانت فرنشسكا لا تزال ممسكة بذراعه ، فتبسمت في وجهه وقالت

— هل اقتنعت الآن ؟

وكان السرور قد عقد لسان الضابط عن الكلام فتنهد ولم يجبها بكلمة ، فتأثرت السيدات من هذا المشهد . وقد أعربت زوجة القومندان عن شعور الاخريات بقولها

— انني فرحة جداً لاجلك أيها الماجور لامبرت . انها «هى» ضالتك المنشودة ، أليس كذلك ؟

وكانت سحابة الكآبة قد انقشعت الان تماماً وانفرجت الازمة

فقال لامبرت

— اجذبي الغطاء على رأسك يافرنشسكا مخافة أن تصيبك ضربة الشمس

— حسن ياعزيزي لامبرتو . سأكون راهبة لاخر مرة ، فقط تذكر أنك أنت الذي طلبت الىّ ذلك

فتبسم لامبرت ثم أمر بأحضار الحمير للراهبتين والسيدات . وبينما كان لامبرت يتقدم الى فرنشسكا ليساعدها على الركوب سألته قائلة

— هل رأيت أمي ؟

— نعم وجدتها في اليوم التالى للمعركة وجئت بها الى المعسكر

— أية معركة؟ انك لا تسمع في أم درمان شيئاً كأنك داخل قبر

— معركة توشكي التي دحرنا فيها النجومى منذ عامين

— نعم كان النجومى زوجا لامى . وقد علمنا أنه مات لانه لم يعد أحد من جيشه ، ولكننا لم نسمع شيئاً عن المعركة . . . أين أمي الآن ؟

— في القاهرة . وقد أعطتها الحكومة معاشاً

تأهب الموكب الصغير بعد ذلك استعداداً للعودة الى اسوان ، فسار الفرسان في الطليعة كحرس شرف ، يليهم المهاجرون من

السودان ، تحيط بهم السيدات . وقد ساروا على هذا المنوال الى أن جذب لامبرت عنان جواده وسأل فرنشسكا هل تريد السير الى جانبه ، فأجابته قائلة

— أنا ؟ سأفعل كل ما تأمرني به أيها الدون لامبرتو . انني مضطربة بحيث لاأدري هل أنا على قيد الحياة أم لا

مال لامبرت وتناول عنان حمارها ثم قادها خارج زمرة الاخرين فاغرورقت عيناها بالدموع عند ما وجدت نفسها تسير الى جانب لامبرت، وأمامها الفرسان يحملون مزاريقهم التي ترفرف عليها الاعلام الصغيرة . وكان وقع حوافر الخيل كالموسيقى في اذنيها ، ولكن فرحها العظيم كان لشعورها بانهم رجال لامبرت وانها راكبة الى جانبه. نعم لم تكن الفتاة تريد الاقتران به الان كما كانت لاتريد ذلك من قبل ، ولكنها شعرت بابتهاج شديد لوجودها الى جانب رجل كان لها أكثر من شقيق بعد فرارها من ذل الاسر والاضطهاد

سار الجميع في ذاك الطريق العتيق الى بلدة مصر الواقعة على الحدود ، مارين في طريقهم بتماثيل الفراعنة ، ومسلات لم تنقل الى المعابد التي صنعت لاجلها ، وتوابيت لم توضع بها موتاها ، الى أن وصلوا الى المقابر ذات القباب البيضاء التى ظل العرب قروناً طويلة يدفنون فيهـا موتاهم . ولما وصلوا الى ابواب اسوان أطلقت المدافع تحية لهم وخرج القومندان مع شرذمة من الضباط ، وهرع العرب من

الاسواق لرؤية الاسري الذين تغلبوا على دهاء الخليفة وقطعوا خمسمائة ميل فراراً من الاضطهاد والمظالم

دعا قومندان الحامية جميع الضباط الى مأدبة أقامها في منزله اكراماً لضيوفه . وقد ذاع بين الجنود أن بين الاسري الذين فروا من أم درمان حبيبة البكباشي اليفانت لامبرت التي فقدها منذ أعوام طويلة فابتهجوا ابتهاجا عظيما . وكان القومندان يتحدث مع الكاهن النمسوي والراهبتين على حين وقف لامبرت على مقربة يفتل شاربه بملل وهو ينتظر قدوم فرنشسكا لانها كانت تأخرت عن القدوم . أما الضباط فكانوا يتقدمون الواحد تلو الآخر الى الضيوف ثم يجلسون في الاماكن الخاصة بهم . وكان الحديث يدور باللغة العربية ، وهي اللغة المشتركة التي كان يعرفها الجميع

أخيراً دخلت فرنشسكا مع امرأة تعادلها طولا ، ترتدي ثوباً فضفاضاً . وكانت الفتاة لاتزال ذات ملاحة فتانة بالرغم من التأثيرات الجوية وماتحملته من الضني والمتاعب خلال تلك السنين القاسية ، فسارت بطلعتها الباهرة وعينيها الساحرتين . فلما وقع نظرها على لامبرت ابتسمت ابتسامة حلوة سحرت قلوب جميع الرجال . وقد تمت لها الغلبة عندما رأوا أن السنين السبع التي قضتها في الضنك لم تسلبها تلك الروح الخفيفة والرشاقة . وكان من السهل على أية فتاة صقيلة ان تظهر بمظهر المرأة الجميلة ، ولكن لما نظر الجميع

الى ملاحتها الفتانة وهي تتحدث ببشاشة، توسلت اليهم أن لا ينظروا اليها قائلة

— ليس وجهي جميلا . ولعمري أراني في حاجة الى ادهان كثيرة لأزالة تراب أم درمان عن جلدي

زادت دهشة الجميع عند ما سمعوا القصة التي رواها الكاهن النمسوي عنها ، وعلموا ان هذه الفتاة الجميلة كانت اسيرة في حريم المهدي ، وانه حاول ان يتخذها زوجة له فأصيب بالحمى الرقطاء فقامت بخدمته حتى مات ، وان الخليفة عبد الله اعتقد انها ترسله الى رمسه مثل سلفه اذا مسها ضر، فسمح لها بالذهاب والاقامة مع الذين بقوا على قيد الحياة في دار المرسلين بأم درمان . وقد سمع لامبرت قصة فرنشسكا هذه همساً ، لأن زملاءه الضباط خشوا ان يكون فيها قضاء على آماله ، ولكنهم كانوا يجهلون ان لامبرت لا يريد في العالم كله غير امرأة واحدة مهما لحقها من النقص والعيب ، ومع ذلك لم يسعه الا العجب قائلا في نفسه كيف كان لفرنشسكا ، الفتاة الصقيلة التي اسرت فؤاده منذ اللحظة الاولى، شان كبير مع « النبي » المتوفي الذي كان له نفوذ عظيم وسلطان ؟

تحدث الرجال بعد فراغهم من الطعام عن الاخطار المدهشة التي استهدفت لها الفتاة في حريم المهدي ، ولكنهم لم يفكروا قط بالنضال الرهيب الذي دار بينها وبينه ، ظانين ان العناية الالهية هي

التي انقذتها من شره . وكانت فرنشسكا تتحدث مع كل ضابط منهم هنيهة لأنها أرادت ان تنسل مع لامبرت الى الشرفة التي تطل على النهر لتتبادل معه الذكريات القديمة ايام كان يتردد على المطعم في القاهرة

وكان لامبرت الرجل الوحيد الذي لم يحدثها عن المهدي لانه كان يهواها فأراد أن لا يخوض معها في هذا الموضوع مالم تطرق هي بابه . والواقع كان قانعاً بأن يظل جاهلا كل شيء ومستعداً لغض النظر عن كل شيء . على انها أرادت ان يعرف حقيقة ماجرى لأنها لم تشأ ان تتجدد صحبتهما في ثياب ادعاءات كاذبة فقالت

— هل سمعت ايها الدون لامبرتو ما كانوا يقولونه عن زواجي بالمهدي؟

فهز الضابط رأسه علامة الايجاب ، فقالت

— ان ماسمعته صحيح

— لا يهمني

— ولكنك لم تسمع الحقيقة كلها

— ماذا تعني ؟

— لقد ناضلته وقاومته فلم يتخذني زوجة له فعلا . ثق بقولى هذا

— انني أموت فداء كلمتك يا فرنشسكا

تأثرت فرنشسكا من قوله هذا . على انها طوت المسألة وتغلبت على عواطفها بابتسامة رقيقة وقالت

— ماهذه الحماقة يالامبرتو ؟ لست اهلا لك . نعم لست اهلا لأن اكون لك زوجة ، ولكني جديرة بأن اكون لك صديقة لأن لدي شجاعة

— سأتخذك زوجة لي يوماً ما يا فرنشسكا . وقد يكون لديك شجاعة ولكنها لا تستطيع ان تحول بيني وبين هذه الامنية

— يعلم الله انني لا أريد ذلك ، ولكن يجب ان لا تطلب يدي الليلة بل انتظر حتى أجد وصية علي، وسأعيش مع والدتي عما قريب

فاهت فرنشسكا بهذه الكلمات وهي تمزح راجية ان تفي بالغاية ، على انها كررتها فيما بعد بلهجة جدية فقالت

— عدني ان لا تفعل ذلك حتى نلتقي في القاهرة . اريد ان اكون جديرة بك ، ولي ان اعتمد عليك الاعتماد كله في ذلك

بدت علامات التأثر على وجه لامبرت ، فقالت الفتاة

— ان ذلك يلقي عبئاً ثقيلا عن كاهلي ويريح بالي كثيراً

— اذن اعدك بذلك يا فرنشسكا

— هذه مكرمة عظيمة منك ، ولعمري لا تدري كيف اشعر بامتنان عظيم لك

شعر لامبرت من جهة اخرى بامتنان ، لان الوعد الذي قطعه على نفسه لفرنشسكا جعلها تضعه في مركز خطيبها . اما الفتاة فكانت

تشعر بحاجة الى من تستطيع الاعتماد على حكمه في الموقف الحرج الذي وجدت فيه نفسها

كانت الليلة بديعة رائقة، والطبيعة تتجلى في ثوب جميل. فكانت الشرفة التي جلس فيها لامبرت وحبيبته تشرف على نهر النيل، والبدر ينير في سماء صافية مزينة بالكواكب ويرسل اشعته الى الرمال الذهبية والصخور اللامعة، والهواء يهب عليلا، يحمل عبير ازهار المنطقة الحارة حتي خيل الى لامبرت وهو جالس على هذه الحال يستجلي محاسن حبيبته في ضوء القمر، انه في عالم غير هذا العالم. وأخيراً لما وجدا من نفسهما الشجاعة على النزول الى الحديقة حيث اجتمع بقية المدعوين، استقبل الضباط فرنشسكا بالهتاف فأخذت تحدثهم برقتها المعروفة كما لو كانت قضت السبع السنوات الماضية بينهم لا بين الراهبات والدراويش

لما وصلت فرنشسكا الى اسوان طلب لامبرت الى ضابطه الكولونيل جورج ترسبي ان يرسل طلباً الى القاهرة ليرخص له بأجازة لانه أراد ان يرافق فرنشسكا اثناء رحلتها في النهر الى العاصمة. وقد ارفق الكولونل طلب لامبرت بمذكرة بسط فيها خطورة الحالة ولكن السردار لم يجد مبرراً لحرمان لامبرت من اجازته، خصوصاً بعد ما سمع عن خدماته الجليلة في ميدان القتال

كان تاريخ لامبرت العسكري مجيداً باهراً، فقد كان يجد في

الوقوف في طرف الصحراء الشاسعة، شعوراً بالاستعداد لمساعدة حبيبته عند عودتها، بينما كان غيره يجد في ذلك ما يبعث الى النفس السآمة والضجر. ولا عجب فقد كان يعد كل رحلة من رحلات الاستكشاف بحثاً عن ضالته المنشودة، معللا النفس بلقائها يوماً ما ولو طال الأمد

لم يشعر لامبرت بالراحة الحقيقية حتى وجد نفسه مع الفتاة على ظهر الباخرة التي جاءت لتقلهما في النهر الى القاهرة، فاعتقد انها صارت ملكا له، وأنها في قبضة يده كل لحظه حتي تنتهي رحلتهما التى اجتازا في خلالها بقعة من اجمل بقاع الارض التاريخية، فقد مرا بكوم امبو بمعبد النور والظلام فيها، وادفو بمعبدها العظيم الذي لم يمسه احد تقريباً منذ ايام البطالسة، واسنا بسوقها المنحدر الى شاطئ النهر ومعبدها المدفون الذي اتخذ مسجداً وكنيسة، والاقصر بمعبدها الذي غيره اسكندر الاكبر وآثار الكرنك الواسعة واطلال طيبة التي تقع على جانبي النهر، ودندره بمعبد الزهراء الذي تتصل ذكراه بكليوباترة الى الابد، والبلينا بمعبد اوزوريس الباهر الواقع خلفها في ابيدوس، وسوهاج بأديرتها العتيقة التي بنتها أم قسطنطين، واسيوط بكرومها العظيمة ومقبرتها الواسعة، والواسطى باب الفيوم، وتل العمارنة بقصر فرعون الوراثي ومقابر رجال حاشيته، وبني سويف

بمقابرها العديدة ، وسقارة التى بقى هرمها الصغير هناك عند ما قامت مدينة منف و بعد اندثارها

اخيراً أحس لامبرت بالحزن يدب في قلبه عند ما وقع نظره على الاهرام الاكبر من بلدة اللاهون ، ثم اشتد حزنه عند ما وصلت الباخرة مقابل اهرام صقارة . ثم بلغ الحزن به اشده عند ما قامت اهرامات الجيزة على يساره ومسجد محمد علي الذي يتوج قلعة القاهرة بقبته المرتفعة ومأذنتيه العاليتين ومقابر المماليك الممتدة الى مسافة بعيدة بقبابهـــا الرائعة ، على يمينه . فقد كان معنى هذا انتهاء تلك الرحلة اللذيذة على ظهر الباخرة

ألقى لامبرت وفرنشسكا نظرة سطحية على تلك المعابد العتيقة المدهشة التي مرا بها فلم يلاحظا منها شيئاً غير جمال اعمدتها البيضاء والافق الشاسع الممتد امامها . وكانا يقتلان وقتهما بمراقبة الاشياء التافهة كالقرى واضرحة الاولياء البيضاء واشجار النخيل والجميز ، وقد اضطجع كل منهما فى مقعده على ظهر السفينة

لزمت فرنشسكا الصمت اولا ، فلم تلاحظ الا قليلا مما حولها واكتفت بالجلوس تحت المظلة ، تستنشق هواء النهر العليل وتتحدث الى رجل تحبه حباً عظيما ولو انها لم تكن مغرمة به ، على ظهر باخرة تسير بهما بعيداً عن كل خصم وعدو . وقد رأت الفتاة فرقاً شاسعاً على ضفتي النهر الواحد ، فهناك في السودان شاهدت آثار الحرب

وما جرّته على البلاد من الخراب والقحط ، وهنا رأت القرى الاهلة بالسكان تتوالى وتتتابع ، واشجار النخيل والمزروعات الخضراء اليانعة والفلاحين يشتغلون في كل مكان

لاحظت الفتاة كل ذلك فقالت

ــ ما اجمل العودة الى الحضارة والحرية . ان «المهدية» لعنة النيل ، فاينما رفعت رأسها الشرير لا تجد زرعاً ولا نسلا . ولعمري رأيت من القتلى اكثر مما شاهدته انت في ساحة القتال ايها الدون لامبرتو ، انك لا تستطيع ان تتصور ماهية الحياة في أم درمان

ــ لم اتصور شيئاً في كل هذه السنين غير تلك الحياة القاسية الى ان هربت وجئت الينا منذ اسبوع

ــ لن تستطيع ادراك الحقيقة مهما تصورتها

ثم اخذت تقص عليه جانباً من الفظائع المريعة التي شاهدتها . وكانت زوجة القائد أعارتها ثوباً جميلا وحذاء لأجل السفر . وقد لاءمها الثوب كما لو كان ثوبها الخاص ، فنظر لامبرت اليها وهو لا يكاد يصدق ان الفتاة التي جلست امامه تحدثه عن كل هذه الاهوال ، هي التي قضت السبع السنوات الاخيرة في كوخ حقير من الطين في أم درمان ، تحيط بها وحوش كاسرة وتشاهد حوادث القتل كل يوم ، وانها هي التي كانت بطلة تلك المأساة التي لعب فيها المهدي وخلفاؤه دوراً عظيما

كانت افكار فرنشسكا تعود بها في اليوم الاول الى ذكرى الماضي الرهيب . على انها لم تلبث ان خضعت لتأثير المناظر المحيطة بها ، فتحول حديثهـا مع لامبرت من العموميات الى الشخصيات الى ان قال لامبرت

— اشعر بأنني في النعيم معك يا فرنشسكا بعد كل هذه السنين

— هل شعرت بفقدي الى هذا الحد ؟

— لم ينقض يوم منذ ودعتك في محطة بولاق عند سفرك الى الخرطوم ، إلا وكنت فيه شغلي الشاغل يا فرنشسكا ، سواء كنت في عملي أو خاليًا من العمل

فتمتمت الفتاة قائلة

— هذه مكرمة عظيمة اقدرها لك ايها الدون لامبرتو ، ولكن كيف كنت تفكر بي اثناء قيامك بواجبك ؟

— كنت كلمـا خرجت مع جنودي لاعمال الاستكشاف اراقب الصحراء لعلي اراك قادمة من خلف الافق كما جئت الى كورسكو ، وكنت كلما قاتلت شعرت بأنني اهدم العراقيل واذلل العقبات التي حالت بيني وبين انقاذك وانني انتقم لك من اعدائك . فكان كل واجب حربي اقوم به هو في سبيل انقاذك او الانتقام لك

— ياله من نبل عظيم وشهامة فائقة !

— كلا . لا تعدي عملي هذا نبلا ولا شهامة . انها غريزة جبلت عليها ، انها قوة حبي وغرامي

— انني آسفة جداً ايها الدون لامبرتو لانني لا اشعر نحوك بمثل هذا الشعور ، ولكنني اقدّر اخلاصك هـذا حق قدره وستكون دائمًا لي اعظم صديق . ومن دواعي ابتهاجي ان تشاطرني الساعات الاولى من حريتي وخلاصي

— هل فكرت بي عند ما كنت في ام درمان يا فرنشسكا ؟

— كثيراً جداً . فكنت اقول دائمًا ان الجيش المصري سيأتي يومًا ما مع الدون لامبرتو والكبتن الطويل وغيرهما من الاصدقاء فيلقون الخليفة عبـد الله وجنوده « البجارة » في النهر ويطلقون سراح جميع الاسرى

— نعم سيأتي هذا اليوم وسينال عبد الله جزاء ما جنت يداه

ارادت فرنشسكا ان تعطي الحديث روحًا منعشة فقالت

— لا بد لي ان اخبرك شيئًا عن الخليفة عبد الله ، فأعلم انه يعتقد ان لي عين الحسود

— يا له من وحش ضار !

— ولكن كان في اعتقاده هذا فائدة لي ، فقد تحاشى اغضابي الى النهاية

— وما الذي دعاه الى مثل هذا الاعتقاد؟

— حادثة وقعت بيني وبين يعقوب اخيه ، فقد اراد ان يمنع والدتي من السفر الي النجومي ليرسلها الى حريم الخليفة عبد الله

— كان في وسعك ان ترغميه على اطلاق سراحك اذا كان هذا اعتقاده

— ربما كان في وسعي ، ولكني فعلت ذلك عن غير قصد فقد اخترعها لي فجنيت ثمارها

— لقد ادركت الان السر الذي حمله على هذا الاعتقاد . انه لمعان عينيك الذي كان يدعو الضباط في المطعم الى القول بأن عينيك تحاكيان النجم لمعاناً

على انه خشي ان يضايقها فغير الموضوع فجأة قائلا

— سيكون لدينا متسع من الوقت نقضيه معا في القاهرة ، أليس كذلك يا فرنشسكا ؟

— انك لا تدري مبلغ وجودك معي هناك . لا اكتمك الحق ايها الدون لامبرتو وهو انني اشعر بخجل عظيم اذا عدت الى القاهرة بعد هذه السنين الطويلة ولم يكن لدي شخص مثلك اعتمد عليه

— اذن سأتنقل معك في كل مكان

ادركت الفتاة ما سيكون لذلك من التأثير في نفس خطيبها النجيلو فقالت

— اظن أن امي ستفعل ذلك

على أن لامبرت لم يلاحظ معنى قولها واستطرد في حديثه قائلا

— لا اخالك تجهلين انني مغرم بك يا فرنشسكا

— نعم لا اجهل ذلك ولعمري اقدر عواطفك الطيبة حق قدرها

لم يرد لامبرت شيئاً من هذا وانما كان يطمع في غرامها ويريد جواباً اكثر صراحة من ذلك . وكان الضابط يتوقع ان تذكر له بياناً طويلا عن أماكن اللهو والتسلية التي تريد زيارتها بعد اسرها الطويل ، فسألها قائلا

— ماذا تريدين عمله اذا ما وصلنا الى القاهرة ؟

على انها اجابته قائلة

— اظن انني سأستريح اولا . وسأجلس بجانب النافذة أو في الشرفة ولا اكاد اغادر المنزل مطلقا . لقد اضنتني الحياة القاسية والحاجة الى طعام صالح واضعفني اجتياز الصحراء بحيث لا اريد التحرك شهراً كاملا حتى استرد قواي، ولكن لك أن تأتي لرؤيتي بعد ظهر كل يوم لتدلي الى بما لديك من الاخبار

— ألا تنوين الخروج معي ؟

— لا اظن انني استطيع الخروج على اثر وصولي .

لم تشأ الفتاة ان تذهب معه الى اكثر من ذلك الان لانها

أرادت أن تعرف أولا هل لا يزال انجيلو في القاهرة ، وهل تزوج بغيرها أو لا يزال ينتظرها . ثم أرادت ان لا يأتي خطيبها الى المنزل وعولت على أن تمنعه اذا حاول المجيء حتي لا يلتقي بلامبرت هناك . على انها أرادت من جهة أخرى أن لا يراها انجيلو سائرة في الشوارع مع لامبرت قبل ان تسوي مسألة علاقتها المقبلة معه . والواقع فضلت الفتاة ان لا يشعر لامبرت — الذي كان قد نسي كل شيء عن انجيلو — بانها لا تزال تهوي خطيبها ، ولو انها كانت لا تتردد عن مصارحته بهذه الحقيقة اذا سألها عن ذلك صراحة لانها كانت اخبرته بانها عولت على الزواج بانجيلو ، وهذا التصريح لا يزال نافذاً ولو انه مضى عليه الآن نحو ثمان سنوات . وكانت الفتاة واثقة من غرام انجيلو بها ، لا ترتاب في وجود شيء يحول بينه وبين الزواج بها اذا كان لا يزال في القاهرة وغير متزوج ، قائلة انه لا بد ان يكون الآن قد صار شريكا لابيه ولولا ذلك لتزوج بها قبل سفره من السودان . نعم كان سفر انجيلو من الخرطوم ومغادرتهم هناك غلطة فادحة مثل محاولته قتل لامبرت ، ولكنها كانت تعلم انه جبان ولو انها اقرته على رأيه فيما يتعلق بضعف الخرطوم عن الدفاع

خطرت كل هذه الافكار ببال فرنشسكا مثل البرق ومرت بها كحلم من الاحلام . على ان هـذه كلها كانت رغائب يجب ان لا يقوم شيء من العراقيل في سبيل تحقيقها . نعم كانت تميل ميلا

شديداً الى لامبرت وترغب رغبة صادقة في معاملته بامانة واخلاص ولكن يجب عليه ان يدرك هذه الحقيقة ، وعلى ذلك لما دنت بهما الباخرة وصارت القلعة ومسجدها على اليمين واهرامات الجيزة العظيمة على اليسار ، اقتربت الفتاة منه وهما واقفين جنباً الى جنب فوق ظهر الباخرة ، ثم وضعت ذراعها في ذراعه وقالت

— انك اعظم صديق لي في هـذا العالم ايها الدون لامبرتو . من غيرك يتكرم بمرافقتي من اسوان الى منزل امي ؟ ومن غيرك يجعلني اشعر بأن مجرد تفكيري بأية رغبة يجعلها حقيقة واقعة ؟

— كل هذا لا يعد شيئاً يا عزيزتي . لقد اردت . . . .

— لا تقل لماذا فعلت ذلك . انني اعرف العامل الذي حملك على اظهار هذه العواطف ولو انني لا اسمح لك بذكره

— ألا تسمحين لي بذكره يوماً ما ؟

— لا استطيع القول . ولكنني اعدك بأن اخبرك اذا استطعت اخشى ان يكون قولي هذا كعزاء ايوب

— ولكن صبر ايوب قد أثمر في النهاية

الفصل الخامس والعشرون

انوسنزا وقنصل ايطاليا

لما وصلت الدونا انوسنزا الى القاهرة ، صارت موضع عجب الناس وحديثهم . لان السنين التي قضتها في حريم النجومي لم تغير شيئاً من قوتها النفسية أو الجسمانية. والواقع لم يبد اقل تغيير على المرأة بعد أن خلعت ثياب الامارة السودانية والحلي التي كانت تلبسها طبقا لعادة السودانيين ، فلم تلحف وجهها شمس ام درمان المحرقة لانها قضت السنوات الخمس في حريم النجومي لا تغادر خباءها . نعم لم ينم جسمها بسبب القلق والرحلات الطويلة التي كانت تقطعها في الصحراء ، ولكنها لم تتحمل وطأة القحط الذي اودى بحياة كثيرين غيرها من السكان ، ولم تعان متاعب الحمل والولادة اثناء المدة التي قضتها في حريم النجومي

لما وصلت انوسنزا الى القاهرة استقبلها القنصل وابلغها ان ملك ايطاليا عين لها معاشاً صغيراً من جيبه الخاص ، واقترح عليها البقاء في القاهرة الى ان ينجو زوجها وابنتها من ام درمان

نزلت انوسنزا في شقة من منزل كبير يقطنه جماعة من الايطاليين، يشرف على حديقة الازبكية . وكان القنصل قد عرض عليها السكنى

في منزل عربي صغير ، واقع على الخليج الذى كان يخترق المدينة فى ذاك الوقت ، في حي هادىء تظلله الاشجار ، ولكنها رفضت الاقامة فيه بحجة أن نفسها تتوق الى الجلوس في شرفة أو بجوار نافذة، تطل على المارة في شارع فسيح بعد السنين التي قضتها سجينة في السودان . وكانت الشقة تحتوى على بعض اثاث جميل ، غير السجاجيد والادوات التي وجدت في حريم النجومي عند الاستيلاء على معسكره ، والتي اعطاها لامبرت أياها عند سفرها . وكان وجهها قد تأثر من متاعب السفر الشاق أثناء زحف النجومي على مصر ، ولكن سرعان ما عادت اليه حمرته وملاحته الأولى بعد ان تمتعت بهواء مصر البليل وطعامها اللذيذ

اخذت الدونا انوسنزا بعد وصولها الى القاهرة تندرج في سبيل الحياة الاجتماعية . فقد غادرت القاهرة زوجة لصاحب فندق صغير اختاره الجنرال غردون ليساعده في توزيع الاطعمة وشرائها في الخرطوم، فلما عادت الان الى القاهرة صارت محط الانظار بصفتها زوجة النجومى ، امهر قواد المهدى وفاتح الخرطوم والقائد المختار لغزو مصر ، فكانت تتلقى الدعوات الى حفلات الرقص التى كان يؤمها كثيرون من ابناء وطنها . وقد عاشت سعيدة فرحة لا يعكر صفو راحتها شيء الا ذكري زوجها الدون زارو المكبل بالحديد في ذاك السجن المروع بأم درمان ، وذكرى ابنتها التي تعاني آلام الحرمان والجوع في دار

المرسلين . وكان الصديق الذي تعتمد عليه اكثر من غيره في الحفلات والمآدب ، هو القنصل الايطالى الذى فقد زوجته منذ عامين ، فعلل نفسه الآن بالزواج بالدونا انوسنزا اذا مات زوجها في اسره . وكان القنصل، مثل غيره من الايطاليين، يجد دائما الوقت الكافي للتسلية واللهو . فكان يذهب الى مكتبه فى الصباح ثم يرافق الدونا انوسنزا في الظهر فيتغدي معها . وكان يرفض في معظم الاوقات مقابلة الناس متى تحقق أن ليست هناك دسائس بين ممثلى الدول في القطر المصري، فاذا وجدت اشتغل بها وانقطع عن الدونا انوسنزا . ولكن كان لديه الوقت الكافي بعد الظهر وفي المساء بخلاف ممثل انكلترا وممثل فرنسا اللذين كان كل منهما يمسك بخناق الاخر دائما ، فكان في وسعه أن يحتكر لنفسه وقتها بعد الظهر والمساء ولكنها رات من الحكمة أن تحتفظ بولاء اصدقائها الاخرين وتمنع القنصل في الوقت نفسه من الافلات من يدها ، فكان يرافقها في الحفلات التى يدعوها اليها اصدقاؤها الاخرون . وهكذا كان يرافقها دائماً إما منفردا أو مع آخرين

واتفق أن اقيمت حفلة رقص في فندق باحدي الضواحي في الصحراء ، فدعا القنصل انوسنزا والمبعوث العثماني (الغازى مختار باشا) وعم الخديوى وغيرهم من العظماء ، الى قضاء نهاية الاسبوع معه . وكان معظم الرجال والنساء لا يعرفون الرقص ولكن حدث أن

طلب القنصل الى الغازى مختار باشا أن يرقص مع الدونا انوسنزا فكان جواب الغازي أن قال

— اسالك المعذرة . لقد سميتني بالاسد عندما شربت نخب صحتي اثناء العشاء . والان اعلم أن الرقص للدب لا للاسد

وهكذا تعودت انوسنزا على هذه الحياة الصقلية المفرحة التى يطول ليلها و يقصر نهارها الى أن تلقت فجأة رسالة برقية من اسوان عن طريق وزارة الحربية ، تنبئها بوصول ابنتها فرنسسكا الى اسوان بعد فرارها من أم درمان ، وتقول انها ستصل الى القاهرة بعد ايام قليلة



الفصل السادس والعشرون

فرنشسكا في القاهرة

كان لا مبرت قد ابرق الى الدونا انوسنزا قبل مغادرة اسوان يخبرها عن اليوم الذي ستصل فيه باخرتهما الى العاصمة . ولما كانت فرنشسكا قد جاءت معه منفردة فقد رأت من الملائم أن تذهب الى منزل والدتها مباشرة، إن لم تكن قد جاءت لاستقبالها

لم يكد يقع نظر لا مبرت على الجالية الصقلية التي ازدحمت لاستقبال فرنشسكا ،حتى اسف وتمني لولم يرسل الى والدتها تلغرافا عن قدومها،فقد كاد اصدقاء الفتاة يمزقون ثيابها وهم يجذبونها للتسليم عليها ، وكذا لم ينج لامبرت من مثل ذلك لانهم اخذوا يعانقونه ويقبلونه على اعتقاد أنه هو الذي انقذها من الاسر بحد حسامه

وكانت الفتاة قد نسيت غضبها على امها لاستسلامها الى النجوي ،فأمطرت انوسنزا وجه ابنتها وعنقها قبلات حارة واستمرت تقبلها مدة طويلة الى أن انقطع نفسها فتركتها وعانقت لامبرت فاستاء من ذلك بالرغم من ميله اليها، وقد زاد استياؤه هذا عندما رأى فرقة من الموسيقى تصدح امام العربات التي اقلتهم الى المنزل، وهي تسير خطوه خطوة ، ولكنه وجد في هذا الموقف الحرج عزاء واحداً هو

رغبته في الاشتراك مع حبيبته في كل شيء مهما كان . وعلى ذلك ركب لامبرت عربة كبيرة من المركبات التي تستخدم عادة لنقل العروس أو الحجاج وجلس امام انوسنزا وأبنتها فسارت بهم في هذا الموكب الى أن وصل الجميع الى منزل الدونا انوسنزا في حي الازبكية، على أن لامبرت كان يرتدي بذلة ملكية فلم يعرفه احد

وصلت فرنشسكا الى الشقة التي استأجرتها امها حيث استقبلتها بستيانا خادمتهم القديمة في المطعم. وكان على الفتاة أن تقطن مع والدتها وتنفق من المعاش الذي عينه لها ملك ايطاليا

خيل الى فرنشسكا بعد السنين السبع التي قضتها في كوخ من الطين في رمال ام درمان ، ان منزل والدتها قصر فخم ، فهرعت الى الغرف مبتهجة وكادت ترقص طربًا عندما وجدت أنه يشرف على الطريق الذي يحيط بحديقة الازبكية ، ففتحت النوافذ وخرجت فى الحال الى الشرفة ، فلما وقع نظرها علي المارة والباعة المتجولين والعرافين الذين جلسوا وامامهم الرمل ، تنفست الصعداء ثم نادت امها قائلة

— اعطيني فنجانا من القهوة ياأماه وعلبة من الحاوى والبسكوت . آه هذا هو الوطن ، هذا هو الوطن !

فقالت امها بابتهاج

— نعم ،ولكن لا ينقصنا غير ابيك حتى يصير وطنًا بمعنى الكلمة

وكانت الدونا أنوسنزا قد القت على ابنتها الاسئلة التي خطرت ببالها عن والدها اثناء عودتهم الى المنزل فاطمأنت على حياته وعلمت أن معاملته لم تزدد سوءا عن ذى قبل ، ثم لم تلبث أن طردت افكاره من مخيلتها الى أن تدبر وسيلة لانقاذه من الاسر . ولم يكن في وسعها استخدام القنصل لهذه الغاية لانه عرض عليها الزواج به بضع مرات اذا قضي الدون زارو نحبه في اسره . نعم وجدت أن الموقف حرج لا يجوز التفكير به في هذه الاونة ، ومع ذلك لو اتيح لزوجها الافلات من الاسر لا ستقبلتــه بمظاهر الابتهاج والفرح كما استقبلت ابنتها

وكان القنصل بين الذين استقبلوا فرنشسكا عند نزولها من الباخرة ولكنه عاد الى مكتبه ليبلغ حكومته وصول الفتاة ، واعداً أن يرسل تفاصيل فرارها فيما بعد لانه وجد في ذلك عذراً ينتحله للتردد على منزل الدونا انوسنزا . وكان لامبرت من الطراز الانكليزي الذى يميل اليه القنصل . وقد تعارفا منذ عراك لامبرت مع انجيلو ، والى القنصل يرجع الفضل فى طي قضية الاشقياء الذين حاولوا قتله . وقد أراد القنصل أن يدخل السرور الى قلب لامبرت اثناء زياراته المتكررة للدونا أنوسنزا ، فقال مخاطبا فرنشسكا

— سنرى هل نستطيع الحصول على مساعدة مالية لك كما فعلنا فيما يتعلق بوالدتك.وعندى يجدر بانجلترا أن تساعداسرة الدون زارو

لنبني الذي يعاني آلام الاسر في أم درمان لسفره مع الجنرال غوردون . سافاتح بارنج (القنصل البريطاني) في هذه المسألة

على أن الآمال التي اثارها القنصل بقوله هذا لم تتحقق من هذه الوجهة ، وشعر بصدمة عندما رأى أن بارنج لا يعد الخدمات الشخصية لزملائه القناصل من الوسائل التي تساعد على خدمة المصالح البريطانية

وكان لامبرت يرتاح لزيارة القنصل الايطالى لانه وجد في ذلك تخلصا من انوسنزا التي كانت تجلس معه ومع ابنتها في الشرفة وتمنعهما من التحدث في شئونهما الخاصة

سأل لامبرت فرنشسكا على اثر خروج امها لمقابلة القنصل قائلا

— علام عولت بعد الاستراحة من وعثاء السفر ؟

— لاأدري . ولكن سأقضي بقية اليوم في الراحة

— لا اعني اليوم ، وانما اعني بعــد انقضاء المدة التي كنت تتحدثين عنها

— لا يعلم ذلك الا الله

وكانت الفتاة لا تدرى شيئاً عن الافكار التى تدور بخلده ولا اهتمت بها لان كل افكارها كانت موجهة فى تلك اللحظة الى معرفة خطة انجيلو في المستقبل ، والظاهر أن الشاب كان في ذلك الوقت

في الاسكندرية، إذ لو كان في القاهرة لرأته بين الذين ذهبوا لاستقبالها بلا مراء

قضى لامبرت بعد ظهر ذلك اليوم كله في الشرفة جالسا مع فرنشسكا . وكان يلقي من وقت الى آخر نظرة على المارين في الطريق ولكن كان همه موجهاً الى الحبيبة التى جلس ينظر اليها بعين الاجلال والعبادة . وكانت اصواتهما الخافتة تقاطع من وقت الى آخر بضحكة من القنصل أو بصرخة ابتهاج من الدونا انوسنزا

خاض لا مبرت في حديثه مع فرنشسكا بحيث ذهب قلقه من نحو جواب على طلب قدمه ، يتيح له الفرصة لطلب يدها ، الى أن افاق بغتة عند سماع دق على الباب ودخول الخادمة بستيانا تحمل اليه كتابا من وزارة الحربية بالقاهرة ، فلما رأى الغلاف الرسمي ، تذكر الطلب الذي قدمه ففض الغلاف بقلق شديد ، لانه لم يكن لديه امل في خداع السردار وحمله على التصريح له بالبقاء في القاهرة

بدت علامات الكآبة على وجه لامبرت عند ما وقع نظره على السطور الاولى من الرسالة لانها كانت تضمن رفض طلبه الخاص باطالة اجازته . ولكن لم يأت على آخرها حتى تحول قنوطه الى ابتهاج شديد ، ذلك ان السردار لم ير مبررا لمنحه اجازة ولكن أمره بالقدوم الى القاهرة (وقد وصل اليها الان باجازة مؤقتة) ليلحقه بأدارة المخابرات بوزارة الحربية ، الى أن تصدر اليه تعليمات

أخرى . وقد وقع اختيار السردار على لامبرت لانه علم من التقارير التى تلقاها عنه انه أجدر ضابط انكليزى في الجيش المصري في اعمال الاستكشاف ولانه أراد مساعدته في تنقيح خطة الزحف على أم درمان

ابتهج لامبرت بالخطاب اذ وجد فيه خير وسيلة لتحقيق آماله وأن في وسعه الانتقال من الفندق الى القلعة بعد يوم أو يومين . على أنه قرأ ملاحظة في ذيل الخطاب تشير الى رغبة السردار في مقابلته في الحال

صاحت فرنشسكا عندما وقفت على مضمون الرسالة قائلة

— هذا جميل جداً ايها الدون لامبرتو

فقال الضابط بشيء من الاستياء

— هذا صحيح ، ولكن عليّ الآن أن اقول الى الملتقى

ثم صافحها ، فقالت الفتاة

— انك تعرف كيف تدخل السرور الى قلبي . اخبرني هل تظن أن في مقدوره أن ينفع ابي بشيء ؟

— هل تعلمين أن السردار هو الكبتن الطويل الذي كان يتردد على المطعم ؟

— كلا . هل هو الكبتن الطويل ! أذن في وسعه ان يساعد أبي

— ماذا تفعلين اذا نجحت في مهمتي ؟

فاجابته فرنشسكا علي الفور قائلة

— احبك

الفصل السابع والعشرون

وصول انجيلو

حصل لامبرت على اجازة قصيرة قبل استلام اعماله الجديدة في وزارة الحربية، فاستطاع أن يقضي كل يوم شطرا كبيراً مع فرنسسكا ولكنها لم تسمح له بمرافقتها في الخارج الانادرا، لأنها كانت تعتقد أن سيرها الى جانب ضابط انكليزي حطة لها وفوق ذلك حسبت حساب خطيبها انجيلو فلم تشأ أن يعتقد انها تميل الى لامبرت. على انها كانت تميل بغريزتها الايطالية الى ادخال السرور في قلب الضابط فاشارت مازحة الى الايام التى قضتها راهبة في أم درمان وقد أرادت بذلك تحويل افكاره الاخرى عنها ولكنه كان يرى أن قلبها ليس له، وانها لا تزال تصبو الى انجيلو

أعتقد انجيلو أن خطيبته ماتت، ورسخ هذا الاعتقاد في قلبه بعد سقوط الخرطوم فبكاها بكاء مراً، ولكنه لم يكد يتغلب على عواطفه ويكفكف دموعه حتى تحول الى النساء اللائي وجد فيهن عزاءه معتقداً أن فى نبذه فكرة الزواج اخلاصاً لفرنسسكا، وانها لا تطمع باكثر من ذلك لو كانت على قيد الحياة

كان انجيلو في الاسكندرية لما وصلت فرنسسكا الى القاهرة، ولكن سرعان ماذاعت اشاعة فرارها بين الجالية الايطالية هنالك، فسمع بها انجيلو فتاقت نفسه الى رؤية خطيبته الحسناء، أرملة المهدي.

وقد علم انجيلو فيما علمه أن لامبرت هو الذى رافق فرنسسكا الى القاهرة ولم يكن قد نسي أن الفتاة حظرت عليه لقاء لامبرت وعلى ذلك لم يذهب لمقابلتها على أثر وصوله الى القاهرة وانما انتظر حتي جاء يوم الاحد فذهب الى الكنيسة حيث تعودت مقابلته هنالك. وقد ذهبت فرنسسكا فعلا الى الكنيسة في ذاك اليوم. فلما انصرف الجميع ذهب انجيلو الي محراب جانبي ثم جثا لكي يصلي وربما توسل الى الله أن يوفقه في مهمته، اذ لم تمض مدة وجيزة حتى جاءت الفتاة وجثت الى جانبه وقالت

— هذا أنت ياانجيلو؟

فتمتم الشاب قائلا

— نعم هذا انا يانور عيني. لقد تبددت السحب وانقشع الظلام

ثم اخذا يتناجيان بصوت خافت وقد حمل كل منهما راسه بيده وهو يطيل النظر الى الآخر. على أن انجيلو لم يجد ما يشفي غليله في هذه المقابلة القصيرة فاقترح عليها مقابلته فى غرفة «لاسوردا» بشارع محمد علي. وكانت لاسوردا هذه خياطة صماء يلتقي في غرفتها

من كانوا على شاكلة انجيلو وفرنشسكا . وكانت لا تغادر غرفتها ولكنها كانت من جهة أخري لا تسمع ما يدور بين العاشقين من الحديث . وقد تم الاتفاق على أن تأمر فرنشسكا الخياطة بصنع ثوب لها تتخذه حجة للتردد عليها ، وأن يذهب انجيلو الى هناك دون أن يراه أحد فتفهم المرأة معني التقائهما على هذه الحال ، وهي خطة بسيطة ولكن يجب تنفيذها بحذق ومهارة

وكانت فرنشسكا تراسل انجيلو من الخرطوم بانتظام بعد عودته الى القاهرة وتشير في خطاباتها الى زواجهما . كذلك كانت خطاباته اليها مفعمة بالحب والعواطف . وكان قد تبعها الى الخرطوم ليتزوج بها ولكنه غادر المدينة مدفوعاً بعامل الجبن لما سمع غردون يقول أن الدراويش يشددون حصار المدينة فانتهز آخر فرصة للافلات والهرب . وكان يخشى أن يخسر شركة ابيه فامتنع في آخر لحظة عن الزواج بالفتاة والعودة بها مع أن الدون زارو وافق على زواجهما واصدر غردون أمره الى الكاهن ليقوم بطقوس الزواج الدينية . علي أن فرنشسكا ما كانت لتقبل الزواج في مثل هذه الظروف ورفضت روحها العالية مغادرة ابيها وامها في مثل ذلك الوقت الحرج . نعم كانت تعلم أن خطيبها جبان ولكنها عشقته وهي تعرف فيه هذه الخصلة فلم تطمع في زوج يقوم باعمال الابطال ولكنها أرادت رجلا يعشقها ويهواها

لم تستطع فرنشسكا بالطبع مراسلته بعد حصار الخرطوم وانتقالها الى ام درمان ، فليس ثمة مايدعو الى العجب والحالة هذه اذا كانت لم تسمع عن اخباره شيئاً منذ خمس سنوات. وقد تحققت بعد عودتها انه لم يتزوج ، وعلمت من أحد الاصدقاء انه في الاسكندرية ثم عرفت بعودته الى القاهرة فذهبت الى الكنيسة حيث تعودت لقاءه قبل سفرها الى السودان فوجدته هناك . وكان انجيلو هو الذى اقترح عليها مقابلته في غرفة « لاسوردا » . وقد خشيت فرنشسكا أن يهمل موعد لقائهما ولكنه بر بوعده ووافاها في الميعاد المعين وجاء يحمل باقة جميلة من الازهار وعلبة من الحلوى وهدايا أخرى ثم قبّل اناملها الجميلة وسألها باهتمام شديد أن تقص عليه ما اصابها منذ فراقهما فاخبرته بقصتها ولم تخف عنه شيئاً بصفته زوجها الموعود، فتأثر الشاب من قولها وبكي لآلامها وما اصابها وأصاب والديها ، فتأثرت هي الاخرى لشعوره نحوها

الفصل الثامن والعشرون

لامبرت يعرض الزواج

جلس لامبرت مع فرنشسكا في شرفة المنزل في صباح اليوم التالي ، وكان لا يزال لديه يوم أو يومان قبل استلام اعماله في وزارة الحربية . وكان الهواء يهب عليلا من ناحية حديقة الازبكية فجلس الاثنان يستجليان محاسن المنظر امامهما ويراقبان القمري وهو ينوح فوق اطراف الاشجار ، الى أن اخذت حرارة الشمس تشتد فانسحب الاثنان من الشرفة الى غرفة الاستقبال التي لم يكن بها من الاثاث ما يبهج الانظار ولكن لم يبد على لامبرت اقل دليل على الكآبة أو الانقباض ، بل بالعكس كان قلبه مفعما ابتهاجا وفرحا لوجوده بين الجدران الاربعة التي تضم حبيبته ، فأخذ يمتع عينيه بالملاحة والرشاقة اللتين احتجبتا عنه سبع سنوات في أم درمان ، ويضحك بملء شدقيه لنكاتها اللطيفة لان فرنشسكا كانت مثل غيرها من النساء تجد اغتباطا في غرام جندي شجاع كهذا ولو انها وهبت قلبها لرجل آخر

وكانت الفتاة تعلم أنه يأتي لزيارتها بدافع غرامه بها ، ولم يكن

عليها الا أن تقارن بين عينيه وحركاته ونغماته وبين عيني انجيلو وحركاته ونغماته لكي تعلم شدة وله الضابط بها ، على انها لم تكن تريد غرامه بل غرام خطيبها . وقد يكون للجنسية تأثير في هذا الاختيار لان انجيلو لم يكن مثل لامبرت في جمال وجهه وقوته الجسمانية . نعم لم تكن فرنشسكا لتجهل أن خطيبها ماكر غادر ولكنها كانت تعتقد أنه لا يستخدم خداعه هذا ضد المرأة التي احبها بل في معترك الحياة ضد اناس اقوى منه مثل لامبرت ، فكانت والحالة هذه تعد نقائصه فضائل . والوقع كانت الفتاة تهواه بالرغم من عيوبه ونقائصه ولكن لم يمنعها هذا من الشعور بالارتياح عند ماترى الضابط الجريء جالسا امامها يقدم اليها فروض العبادة

لم يتغد لامبرت مع فرنشسكا في ذاك اليوم لأن السردار دعاه الى تناول الطعام معه . ليقف منه على معلومات تهمه ، لانه رأى أن ضابطا مثل لامبرت يقضي شهرا في اعمال الاستكشاف وشهراً في خطوط القتال ، لابد أن يكون واقفا على حالة العدو الادبية والمعنوية ويعلم هل يبدي الدراويش رغبة في القتال أو إحجاما أو يفضلون ترك الامور تجرى كما تشاء ، وأنه يمتاز كغيره من الضباط الذين يرابطون في المخافر الامامية بمعرفة حالة جنودهم الادبية وهل لديهم جلد على القتال لانه لم تقع معارك تستحق الذكر بعد معركة توشكي التى نشبت منذ عامين أو ثلاثة . وكان السردار يتلقي تقارير وافية عن الحالة من

وقت الى آخر ولكنه أراد أن يقف بصفة خاصة على آراء لامبرت في الحالة

***

لم يكد يفرغ لامبرت من مقابلة السردار حتى هرع الى السلم في وزارة الحربية وأخذ يهبط كل درجتين في خطوة واحدة، ولما وصل الى الشارع نادى حوذيا وأمره بالاسراع الى حي الازبكيـة فوصل الى منزل فرنشسكا قبيل الغروب فلما رأته الفتاة اقترحت عليه الصعود الى السطح لاستنشاق هواء المساء العليل فلما صعدا صاحت فرنشسكا ابتهاجاً ودهشة . ذلك انها رات امامها منظراً بديعا لا يرى في غير مصر . فقد انعكست اشعة الشمس عند غروبها ناحية الشرق على صخرة القلعة التي تتوجها اسوار صلاح الدين وجامع محمد علي بقبته العالية ومئذنتيه الشامختين فكستها حلة وردية بديعة والوان قرمزية وبرتقالية جعلت الافق يتالق كاللؤلؤة بحيث كان يخيل الى الرائي أن جمال الطبيعة قد تجسم كله في ذلك الافق، واحست فرنشسكا كأن قوة ترفعها عن الارض عندما وقع نظرها على هذا المشهد البديع فصاحت قائلة

— انظر ايها الدون لامبرتو . هل رأيت مشهداً جميلا كهذا ؟ كم تاقت نفسي خلال الاعوام الماضيـة الى رؤية القاهرة بمآذنها البديعة لان المساجد في السودان بلا مآذن

وكان لامبرت يقدّر مثل هذه المناظر اكثر منها ومع ذلك لم يحفل بها كثيرا لان جل اهتمامه كان موجها اليها هي، لا الى الاشياء الاخرى المحيطة بهما مهما بلغت من الرونق والجمال، وعلى ذلك حول ظهره ووضع ذراعه في ذراع الفتاة وجذبها الى غرفة على السطح تطل على ميدان الازبكية . ولم يكن لامبرت يريد الوقوف عند هذا الحد بل كان لديه شيء يريد أن يسره الى فرنشسكا، شيء يرتبط بمستقبل سعادته في الحياة . وكان المحيط الذي وجد نفسه فيه منعشاً للنفس فرأى أن الوقت ملائم . ولكن كيف يفتتح باب الحديث ؟

كان لامبرت يعلم أن فرنشسكا فتاة عمل وخبرة، فظن أن مركزها الحالي وعدم وجود عائل يحميها أو يدافع عنها، عامل يؤثر فيها اكثر من أي عامل آخر. كذلك كان يعلم أن الفتاة مستقلة لا تحتمل أذى . على انه كان كلما فكر في هذا الامر أيقن أن من الجهل الالتجاء الى أية وسيلة غير القبض على الثور من قرنيه، ولذا لعن نفسه لانه لم يضع ذراعه حول وسطها ويجذبها اليه عندما أرته ذلك المنظر البديع قائلا في نفسه إذا كانت تميل اليه حقا وجدت من ميلها هذا عذراً تنتحله . ولكن لما كانت هذه الفرصة قد فاتته فعليه الآن أن يجرب دهاءه السياسي فقال

— ليس من الملائم أن تعيشي هنا يافرنشسكا

فسألته الفتاة قائلة

— ولماذا ؟ أي ضرر في وجودي هنا ؟

— أريد أن اقول إن مركزك هنا مركز كاذب دون أن يكون لك مورد خاص تعيشين منه غير معاش أمك الذي يكاد لا يذكر

— لا أريد وايم الحق أن اكون عالة عليها وسوف لاأسمح لها بان تنفق عليّ مليما واحداً اذا استطعت

سار لامبرت فى طريق الصواب الى هذا الحد ، ولكنه حاد عنه في الجملة التي فاه بها بعد ذلك إذ قال

— وإذا كنت لا تستائين من قولي هذا فاني أرى أن الذين يلتفون حولك ليسوا من الذين يجدر بك معرفتهم

فقالت الفتاة بحدة

— انهم من شعبي . انهم من الطبقة التي تربيت وسطها ، وهم الاصدقاء الوحيدون الذين لي في هذا العالم

— ما هذا القول يافرنشسكا ؟

— الا أنت بالطبع . لاأريد أن اكون فظة غليظة الطبع ايها الدون لامبرتو

لم تصفح فرنشسكا عنه لا بداء هذه الملاحظة ولو انها كانت

تعلم أن ماقاله هو الحقيقة بعينها . وقد أرادت الفتاة أن تظهر بمظهر الدعة واللطف ولكنها أرادت في الوقت نفسه أن تتخذ خطة التحفظ فلا تجعله يفوه بما تريد أن يبقى مكتوما

على أن لامبرت أدرك الشطر الاول من حديثها الاخير ولم يدرك الثانى ، فاستطرد فى كلامه قائلا ، كأنما وجد له مخرجا من هذه الازمة

— على أن الطريقة الوحيدة التي امامك هى أن تتزوجي بي

فقالت الفتاة محتجة بلطف

— أو اتزوج بغيرك

فلوح بيده فى الهواء وسلم بصحة قولها قائلا

— أو برجل غيري بالطبع

— حسن . أرى أن هذه خير وسيلة ولكن يجب أن ننتظر حتى تستقر الامور

— ولماذا الانتظار ؟ لدي ما يكفي نفقاتنا حتى فى القاهرة

الان كيف تستطيع المحافظة على عواطفه؟ انها تشعر بدين عظيم لهذا الرجل الذي لا تحجم عن حبه لو لم يمكن هناك ذاك الشاب الآخر الذي كان لديها بمثابة العالم أجمع . على أن المرأة تكيف الامور بسرعة مدهشة ولو أن وعودها كاذبة ، فقالت الفتاة

— ولكن الا ترى أنني لاازال مخطوبة ؟

— مخطوبة ؟

— نعم كنت مخطوبة لانجيلو تراديتور لاخر مرة تراسلنا فيها معا ، ولا اظن أن جميع الحوادث التي وقعت في السودان تنقض خطبتنا ، اللهم الا إذا اخبرني انجيلو ذلك

— بلا ريب

— إذن تراني لست حرة التصرف

— اقول لك لا كمنافس له ، انني اراهن على أنه لا يفكر في هذا الامر مطلقاً

فصاحت الفتاة قائلة

— انني واثقة من ذلك

وكانت فرنشسكا قد فاهت بهذه الكلمات بانفعال ، فسألها لامبرت قائلا

— هل قابلته ؟

— نعم

— وهل قال شيئاً عن خطبتكما ؟

— لم يستطع أن يقول شيئاً في أول مرة

— لا أري مانعا يمنعه من مفاتحتك

— لان مقابلتنا كانت فى الكنيسة

— هل تتزوجين بي اذا نقض خطبته ؟

فترددت الفتاة ، فقال لامبرت

— آه . أري أن قلبك معه لا معي

فهزت فرنشسكا رأسها بحزن ، فقال لامبرت

— ولكن هل تسمحين لي بزيارتك ؟

— بلا ريب . لقد سمحت لك بالقدوم وأنا اعلم انني لااستطيع الزواج بك . ولكن الا تستطيع أن نكون صديقين ؟

— ولكن ماذا يقول انجيلو ؟

— نعم هذه هى المشكلة . ولكن اذا قال إننا لسنا خطيبين فليس له أن يعترض على زيارتك لي

— نعم ليس له ذلك

— ولكنه محب للانتقام

— لا يهمنى ذلك . في وسعي أن أدافع عن نفسي

لزمت فرنشسكا الصمت بعد ذلك لانها رأت أن المسألة خطيرة . وكذا لم يفه لامبرت بكلمة على امل أن يحملها سكوته على أن تفوه بشيء

وبينا كان كل منهما مطرقا أذ خيمت عليهما ظلمة المساء فنزلت فرنشسكا بسرعة وهي تصيح قائلة

— لقد خيم الظلام

احسن لامبرت بأنقباض في نفسه . ولكن الاعوام الطويلة التي

قضاها في المراقبة بين رمال الصحراء الشاسعة ، والاهوال التي شهدها في المعارك قد شددت أعصابه . نعم قضت فرنسسكا على آمله بقولها هذا ولكنه مكث سبعة اعوام يعلل النفس بالآمال وهو يتنسم اخبارها على الحدود



الفصل التاسع والعشرون

القنصل جينو

لم يشعر لامبرت بتبرم من زيارات القنصل اليومية لانوسنزا لسببين : الاول شعوره بفضل الرجل عليه ، والثاني رغبته في عدم التعرض لشئون غيره . وكان يذكر دائما الاسير المريض في سجن ام درمان فرأي أن ليس من العدل أن يحل القنصل مكان الزوج ولكنه كان يجهل أن صداقة الرجل لانوسنزا طاهرة نقية. أما انوسنزا فكانت من النساء اللاتى لا يحفلن بانتقادات الناس مادامت تتمتع بضروب اللهو والتسلية ، ومادامت في مأمن من الصدمات ، على حين كان القنصل مرتاحاً لعشرة امرأة جميلة تدخل السرور الى قلبه .

اتفق أن احتفل القنصل في فندق شبرد بذكرى معركة قديمة من معارك غاريبا لدي ، فلما انصرف المدعوون ركب القنصل مع انوسنزا ولامبرت مع فرنسسكا عربتين الى المنزل في حي الازبكية ، يتقدمهم موكب من الصقليين يحملون المصابيح ، فاستولى لامبرت وفرنسسكا على الشرفة وهناك أخذا يراقبان المصابيح والحياة الصقلية المفرحة امامهما و يمتعان النظر بنجوم السماء اللامعة فوقهما

جلس الاثنان وقد ابتهج كل منهما بالآخر كصديقين أو أكثر فلم يلاحظا الساعات التي مرت سراعا ، ولكن لا عجب فان الوقت في مصر قصير جداً اذا قورن بالاجيال العديدة والقرون التي مرت على آثارها العتيقة

شعر القنصل وانوسنزا بتأثير الوسط المحيط بهما اكثر من الشابين ، فوقفا يراقبانهما من احدى النوافذ الاخرى . وكانت انوسنزا قد تركت مصباح الغرفة مطفئًا الى أن لاحظت في النهاية أن القنصل مضطرب الفكر فأضاءت المصباح ثم عادت فوقفت في زاوية النافذة الاخرى تلعب بقدمها الجميلة . وكان القنصل يراها في تلك الليلة جذابة اكثر منها في أي وقت مضى . وكان نور المصباح ضئيلا فلم يكشف عن تقدم سنها ولكنه كان كافيا لاظهار وجهها الابيض وقوامها اللدن الجميل الذى تجلت رشاقته في كل حركة من حركاتها وهي تضحك بابتهاج من احتجاج القنصل على النور . أخيرا لم يطق الرجل صبرا فباح لها بما يكنّه قلبه قائلا

— انوسنزا عزيزتي ، الى متى احتمل آلام الانتظار ؟

— انك تعرف جيدا أنه يجب الانتظار مادام زارو على قيد الحياة . ان قنصل ايطاليا الجنرال لا يسمح لنفسه بزواج امرأة متزوجة .

— ولكن قد يعيش زارو حتى يبلغ المائة ، وقد ينقضي على

موته خمسة اعوام قبل أن يبلغنا خبر موته لانه ليست هنالك مواصلات تلغرافية مع ام درمان

— هذا صحيح ، ولكن ليس علينا الا الانتظار — نعطي « الجلابة » اجرهم على ما يحملونه الينا من انبائه ، ونعد الوسائل باستمرار لانقاذه الى أن تفلح وسيلة منها

فردد القنصل قولها وهو لا يدرى قائلا

— انقاذه !

— نعم ، يجب أن تبذل اقصى جهدك لانقاذه

— ألا تضعين بقولك هذا عبئا ثقيلا على كاهلي ياعزيزتي ؟

— كيف ؟

— لانك تطلبين اليَّ أن ادبّر دسيسة لفرار زارو ، مع أن سعادتي فى الحياة تتوقف على موته ؟

— كيف تستطيع ذلك ياجينو ؟

— اصغي الى ياانوسنزا . اتدرين ماذا يجب عليّ عمله لو كنت خائناً مثل انجيلو خطيب فرنشسكا ؟

— نعم . انك تتفق مع الاعرابى الذى يساعده على الهرب على أن يقضي على سعادته الموهومة بان يبلغ الخليفة اين يقبض علي

— هو ما تقولين بالضبط

— ولكنه من اسرة دافانزاتي ووطني صميم يا جينو

— اعلمي قبل كل شيء يا انوسنزا انني آدم وأنت حواء وهناك الحية

— ماذا يجول بخاطرك ياجينو ؟

— ان اتخذك زوجة لي الى أن يعود زارو

— لا تغريني على خيانة زارو

— ولكنك خنت امانته من قبل ، فقد عشت اربعة اعوام في حريم النجومي . نعم فعلت ذلك مكرهة ولكنك لم تحافظي على الامانة الزوجية . فليس هناك ما يضر زارو اذا أنت . . .

— لا تفه بما تريد قوله ياجينو ، اللهم الا اذا كنت تريد أن تزعزع صداقتنا

— اسالك المعذرة ياانوسنزا ، ولكن متى كانت سعادة الرجل منا عرضة للاخطار . . .

— ولكنك لست تعسا شقيا ياعزيزي ، اليس كذلك ؟ ان في اخفاء شقائك هذا شجاعة عظيمة

— لا تسخري مني ياانوسنزا فأن الامر خطير جداً

— ولكن الامر اخطر من أن يذكر ،وفوق ذكر فكر بفرنشسكا، فاذا فرض واستطعت أن انسى زارو فانني لااستطيع أن انسى ماأظهرته الفتاة من الشجاعة الفائقة والاقدام ،وأنه كان يجب على أن اقاوم كما قاومت.ولعمري اشعر بميل الى الانتحار كلما افكرت بهذا العار الذي لحقني

— خير لك أن تجعليني سعيداً من أن تقتلي نفسك .

— اذا فعلت ما تريد يجب أن أنتحر في الحال

— أتبغضينني الى هذا الحد ؟

— لا تجهل أنني لا أبغضك يا جينو وتعلم مبلغ حبي لك ، ولكن يجب أن أفكر بابنتي أولاً

— تفكري بزواجها على ماأظن . ولكنها ستتزوج عما قريب بذلك الشاب انجيلو ترادیتور ، اليس كذلك ؟

— لا أرجو ذلك

— أو ربما تزوجت بالضابط الانكليزي

— هـذا ما أتمناه . ولكن هل تظن أنه يقدم على الزواج بها اذا أنا . . . ؟

— أظن أن غرامه بالفتاة لا يؤثر فيه شيء تفعلينه أو تفعله فرنشسكا . فهناك بعض أناس من الانكليز يسيرون الى الأمام مباشرة ولو كان الجحيم في طريقهم والجنة على مسيرة خطوة واحدة الى اليمين

— وهؤلاء هم الرجال الذين تميز آراؤهم الطيبة بين الصالح لي والضار

فقال قنصل ايطاليا الجنرال

— ان حسابك عسير ، لانك سمحت لهؤلاء الانكليز أن يجتازوا طريق الحب

فرفعت الدونا أنوسنزا عينيها وعقدت يديها على صدرها كأنما أرادت أن تصلي وتتوسل قائلة

— نعم . نعم . يا إلهي !

فقال القنصل بغلظة

— يحزنني أني لا أستطيع أن أصلي لنفسي وللدون زارو في وقت واحد

— ان الأعمال خير من الصلوات ، ولو أنها ليست سهلة الى هذا الحد . عدني يا جينو أن لا تكرر ما قلته على مسامعي ثانية

— ان قولك هذا مثل من يقطع على نفسه عهداً أمام الله الذي يستطيع أن يجعلك تفعلين ما يريد ، سواء وعدت أو لم تعدي ، ثم لا يظهر سروره من عملك

— ولكني سأظهر لك سروري . وسأعاملك معاملة الشقيق

— لا أنكر ذلك يا أنوسنزا ، ولكن الشقيق لا يستطيع أن يكون أكثر من شقيق

— اننا نعيش في عالم مملوء بالشرور ، وليس هناك جنة عدن الآن يا جينو . ولو لم يكن زارو على قيد الحياة لتزوجت بك غداً ،

ولكن ما دام حياً يرزق فلن أكون لرجل آخر ، وسأتوخى الحذر ما استطعت فلا أقع في أسر أحد مرة أخرى . ولن أبتعد ثانية عن القاهرة خطوة ، اللهم إلا في قطار يقلني الى الاسكندرية

— وماذا تقولين عن اسوان ؟

— كلا ، ولا اسوان

— ان زارو لا يزال مكبلاً بالحديد في ذاك السجن المروع فلا يستطيع الافلات والهرب الا إذا أطلقه الجيش المصري ، وأقول لك إنه لن يطلق سراحه ، فقد أبلغني بارنج نفسه ان الحكومة لا تحاول استعادة السودان ، وعلى ذلك ستبقى انوسنزا المسكينة أرملة طول الحياة وهي لم تخلق لتكون أرملة

— اذا ترملت يا جينو فسأتزوج ، ولكن يجب أن أبقى كما أنا الان الى أن أصير أرملة فعلاً أو يعود اليَّ زوجي . يجب أن تعدني يا جينو بأن تكون لي كل شيء يحق لك أن تكونه

— ويحي اذا كنت أفضل السعادة على الصلاح

— اذا كنت صالحاً فانك تكون سعيداً يا جينو

— ولكن لا بالوسيلة التي أريدها

— اذن ساعدني لأكون سعيدة

— على شرط أن نسير كما نحن الآن

وكانت أنوسنزا لا تريد أن تقطع عنها مورد سعادتها الاكبر فقالت

— بلا ريب

وعلى هذه الحال ظل القنصل يقوم بخدمتها سبع سنوات

الفصل الثلاثون

انجيلو يميط اللثام

أرسلت فرنشسكا بعد بضعة أيام خادمتها بستيانيا الى غرفة الخياطة لاسوردا ، قائلة إنها ستكون هناك في موعد كذا . فذهب انجيلو في الموعد المعين وأبلغ الفتاة انه تعرّف برجل مصور فقير يقطن في الدور الأعلى من المنزل نفسه وانه كان يراقب قدومها من فوق، فابتهجت فرنشسكا بهذا الدليل الذي أظهره الشاب على رغبته في عدم ضياع لحظة واحدة من وجودها معه .

عانق انجيلو الفتاة عند دخوله عليها عناقاً قصيراً مقروناً بالاحترام ، ولكن لم يحدث ذلك من قبل في منزل أبيها لأن من عادة الصقليين أن لا يتعانقوا قبل الزواج ، ومع ذلك خضعت الفتاة لعوامل غرامها وسمحت له بضمة قصيرة الى صدره ثم جلست الى جانبه . وكان الشاب في حالة نفسية غريبة فلم يفه الا بقوله ياعزيزتي ويا حبيبتي وغيرها من ألفاظ الاعزاز ، ثم أخذ يقبل ثغرها الحلو الذي لم ينقص من جماله شيء من جراء المتاعب المروعة التي تحملتها خلال السنين الماضية ، على أمل أن يسلط عليها قوة سحرية لا تستطيع

مقاومتها بتأثير قبلاته و عناقه . فاستسلمت فرنشسكا لقبلاته معتقدة أنها لا تزال نقيـة طاهرة . وكان يكفي أن يقنع الشاب من يومه بتقبيل فتاة مثل فرنشسكا ولكنها كانت تترقب الخطوة التالية من جانبه كما كان يترقبها أيضًا ، ولو أن العوامل الفكرية في رأس كل منهما كانت تختلف عن الأخرى . فكان الشاب يطمع بعد الاستيلاء على المراكز الأمامية أن يستولي على الحصن كله قبـل أن يغادر المكان . أما هي فكانت تنتظر أن يعرض عليها الزواج وهو ما كانت تتوقعه منـه على أثر ما شهدته من دلائل حبه وغرامه . والواقع عدت الفتاة قبلاته وعناقه دليلاً على أنه مصمم على المضي في زواجه بها ، فسألته بلهجة رقيقة عنـد ما كفَّ في النهاية عن تقبيلها قائلة

— متى يتم زواجنا يا عزيزى انجيلو ؟

وكان الشاب على استعداد لسماع مثل هذا السؤال ، ولو أنه تألم كأنما أصيب برصاصة ، فقال

— لا نستطيع الزواج الآن يا عزيزتي فرنشسكا لان الكنيسة تحظر علينا ذلك

فانتفضت الفتاة وصاحت قائلة

— يا إلهي ، لماذا ؟

— لانك كنت زوجة رجل لا ينتمي الى الكنيسة ، رجل غير مسيحي

فسألته بلهجة تنم على اليأس والقنوط قائلة

— هل هذا الحكم مدوَّن في الانجيل ؟

— لا بد أن يكون هناك شيء من ذلك لان الكاهن الذي اعترف له أخبرني أن زواجنا لا يجوز

— كلا . لا أصدق

وكان انجيلو حكيماً كالحيات ، فقال

— اذا شئت ذهبنا اليه الآن . انه في الكنيسة

— اذن سأقابلك هناك . اخرج أولاً وسألتحق بك من طريق آخر

في وسع الانسان أن يصـل من شارع محمد علي الى كنيسة سان بانكاريزو إما من الشارع مباشرة أو بالسير في طريق جانبي الى الموسكي ثم منه الى العتبة الخضراء ، وفي كلتا الحالتين يجب اجتياز العتبة لان الكنيسة كانت في الحي المعروف باسم «صقليا الصغيرة »

قال انجيلو

— لا داعي الى ذلك فقد أرتني لاسوردا الباب الخافي . انك

لاتستطيعين الخروج منه لانه يمر بمعمل يوانيدس الذي يصنعون فيه الخمر وقد يصادفك أناس يتعرضون لك . أما أنا فلا أخشى شيئاً من ذلك

وكانت مثل هذه المعامل كثيرة خلف شارع محمد علي ، وهي تصنع أسوأ أنواع الخمور التي يلونونها بالاصباغ ثم يبيعونها للأهالي بالقطاعي

سارت فرنسسكا الى الكنيسة ، وكانت بناء قديماً واسعاً ، بها هيا كل كثيرة ، يؤمها كثيرون من الشرقيين الكاثوليك والصقليين

جلس الكاهن في كرسي الاعتراف ، فأشار انجيلو الى فرنسسكا لكي تتقدم اليه ، ثم جلس على مقربة يراقب ما يجري . وكان الشاب واثقاً من الكاهن فاعترفت الفتاة له بايجاز بأنها كانت زوجة المهدي ولو أن الزواج لم يتم في الحقيقة ، فقال الكاهن

— ان هذه خطية عظيمة ولكنها ستغفر لك اذا ندمت عليها ندماً كافياً

فوثب قلب فرنسسكا ابتهاجاً وقالت

— وبعد ذلك يستطيع انجيلو ترادينور أن يتزوج بي . أليس كذلك يا أبت ؟

— كلا يا ابنتي

— ولماذا يا أبت ؟ لقد مات زوجي

— لم يكن زوجك لانك كاثوليكية ولم يتزوج بك طبقاً لاي طقس من الطقوس الدينية المعترف بها فى الكنيسة

— اذن ليس ثمة عقبة في طريقنا ؟

— كلا ان هنالك عقبة لا يمكن تذليلها . فقد كنت غير متزوجة ، وعلى ذلك عشت في الخطية ولا يمكن أن يسمح لابن بار للكنيسة مثل انجيلو أن يتزوج امرأة عاشت في الخطية مع رجل غير مسيحي

— ولكنني لم أعش معه فعلاً ، فقد مات قبل أن أكون زوجته الا بالاسم

— ان الخطية واحدة يا ابنتي ، نعم يمكن أن تغفر لك خطيئتك إذا ندمت عليها ندماً صادقاً ولكن لا يسمح لانجيلو أن يشاطرك إياها إلا باذن مكتوب من قداسة البابا ، وهذا يمكن طلبه بواسطتنا

فتوسلت الفتاة اليه قائلة

— انك ستطلب هذا الطلب لاجلي يا أبت

— لا أستطيع يا ابنتي الا اذا طلب ذلك انجيلو وهو لايستطيع الاقدام على ذلك مخالفاً نصحي لانه اذا فعل يكون إبناً عاقاً للكنيسة

لم يحمل الشاب ، الكاهن على قول ما قال لانه لم تكن هناك

حاجة الى ذلك ، ولكنه اعترف له برغبته في الزواج بفرنشسكا لتيني كخطيئة اقترفها مع أنه عاش خمس سنوات بين النساء الساقطات ليطلق نفسه من كل قيد يمنعه من الزواج بفرنشسكا التي أراد أن يتخذها أماً لاولاده ، ولكنه أعرض عن هذه الفكرة في النهاية لما علم انها كانت زوجة رجل إفريقي ، ولم يصدق انها كانت زوجته بالاسم فقط . على أن هذا كله لم يحل دون رغبته في أن يتخذها محظية له

وهكذا أحست الفتاة المسكينة بأنها سقطت الى الحضيض فكادت لا تستطيع الوقوف على قدميها لتغادر الكنيسة

الفصل الحادي والثلاثون

فرنشسكا ولامبرت

لما جاء لامبرت لزيارة فرنشسكا للمرة التالية وجدها حزينة كئيبة الى درجة مروعة . على انها شكرت الله في قلبها عند ما رأته قائلة ان هذا على كل حال رجل لا يحجم عن الزواج بها بعد كل الذي جرى . وكانت الفتاة لا تريد الزواج به ولكن شعورها برغبته في زواجها أعاد اليها شيئاً من شعورها بكرامتها . ولا عجب فقد رأت أن الأهوال والآلام التي شهدتها يوم سقوط الخرطوم ، وسبيها وارسالها الى بيت المال مع نساء الخرطوم الأخريات ، وتكبيلها بالحديد في حريم المهدي واكراهها على ان تكون زوجة له — كل ذلك لا يعد شيئاً بجانب الإهانة التي لحقتها عند ما وجدت أن الرجل الذي وهبته قلبها يراها ليست صالحة لأن تكون زوجة له ، ولو انه يراها أجمل فتاة في العالم ويبتهج بقربها

وكانت المتاعب التي تكبدتها اثناء هربها واجتياز الصحراء والآلام التي تحملتها أسبوعاً وهي على ظهر الابل تجد السير في الفيافي والقفار مخافة أن يلحق الدراويش بهم ، لا تعد شيئاً بجانب الساعات

الطويلة التي فارقت فيها انجيلو . وكانت تعتقد في نفسها ان هذه الساعات الموحشة ليست إلا نقطة من بحرالسنين المظلمة التي تنتظرها في المستقبل ، السنين الخالية من السعادة الزوجية المستمرة التي كانت حرمي حياتهـا ولذا أصيب جسمها بالنحول والهزال وامتقع وجهها ولازمها السهاد والصداع وذهبت شهيتها للطعام ورغبتها في الخروج ولم تجد لها عزاء إلا في قراءة الروايات والقصص المفجعة على أمل أن تنسى متاعبها امام متاعب غيرها

وكان لامبرت في خلال ذلك بعيـداً مع السردار الجديد ، وهو الكبتن الطويل الذي كان يتردد على مطعم الدون زارو ، يتفقدان حالة الجنود ولذا مضت أيام عديدة لم تره الفتاة في خلالها. وقد يكون هذا هو السبب في هزالها وحزنهـا الى هذا الحد لأنها تعودت الاعتماد عليه واعتباره ملكاً لها بالرغم من عدم حبها له . وعلى كل حال شعرت فرنشسكا بابتهاج مفرط وانتعاش عند ما سمعت بعد ظهر أحد الأيام وقع حوافر جواد في الخارج فاطلت من النافذة فرأت لامبرت على ظهر جواده يرتدي بذلة من الخاكي وخوذة على رأسه وحذاءا طويلاً من الجلد ، يتدلى سيفه الطويل على جانبه

انتعشت روح فرنشسكا عند رؤية لامبرت وارتسمت على وجهها أول ابتسامة تجلت على ثغرها منذ أيام طويلة فهرعت إلى الباب بالرغم من دوار رأسها وامتقاع وجهها وقابلته وهو يجتاز العتبة

بجسمه الطويل وقد رفع قبعته عن رأسه ، فمدت كلتا يديها الى اليد الضخمة التي امتدت الى مصافحتها ، وهي تشعر كأنها ذات بعل وان هذا بعلها قادم الى منزله

جلس الضابط يتحدث معها وأخيراً تذكر الدونا انوسنزا فسألها قائلاً :

— كيف حال أمك ؟

فأجابته الفتاة قائلة بلهجة تنم على الحسد

— انها بخير . شكراً لك . انها دائماً بخير . وقد خرجت الآن مع بعض اصدقائها الايطاليين إلى ذاك المطعم الموجود بشارع بولاق وستعود الى المنزل لتهيئة العشاء . ستتعشى معاً أيها الدون لامبرتو . أليس كذلك ؟

— هل تسمحين لي بذلك ؟

وكانت فرنشسكا فيما مضى تشفع الدعوة بكلمات عادية ولكنها اليوم توسلت اليه قائلة :

— بالله تفضل

نظر لامبرت اليها نظرة حادة ثم قال :

— انك حزينـة القلب نحيلة الجسم أيتها الفتاة الصغيرة ، وأراك في حاجة الى تبديل الهواء في بقعة صحية مثل رمل الاسكندرية حيث تستنشقين هواء البحر النقي

وكانت فرنشسكا قد أدخلته إلى غرفة الطعام بدلاً من غرفة الاستقبال ، فأرخت عينيها ونظرت إلى المائدة ثم قالت

— انك لم تذق شيئًا من الطعام تقريبًا فيجب أن تتغدى معي . سألتهم كل شيء على مائدة الطعام إن لم تخف جانبًا منه في بطنك . أعرف انك تحب هذا النوع من الطعام لأنني رأيتك غير مرة تلتهم ما في الطبق عند ما كنت . . . عند ما كنت أقوم بخدمتك في المطعم

ضحكت فرنشسكا ضحكة قصيرة وصبغ الحياء وجهها ، ثم استطردت في حديثها فقالت

— يجب أن تدعني أقوم بخدمتك أيها الدون لامبرتو لأن هذا يعيد إليّ ذكرى الايام الماضية ويفيدني قليلاً

— كلا . لست أهلاً لذلك . بل يجب أن تجلسي في الحال يا سيدتي

فتوسلت اليه قائلة

— بالله دعني أقم بخدمتك . ان هذا لا يكبدني مشقة جسمانية بل فيه فائدة لي كما قلت لك

— حسن . لا أسمح لك بذلك إلا إذا التهمت جزءًا من الطعام كما تعودت أن تفعلي في الايام الماضية بعد أن توطدت بيننا دعائم الصداقة

كانت ذكرى تلك الأيام لا تزال عالقة بذهن الفتاة إلى اليوم ، فتناولت قطعة من السمك وأخذت تقضمها بلطف بأسنانها الصغيرة . وكان لامبرت جائعًا كالذئب ولكنه لم يأكل شيئًا يذكر لأنه كان مشتغلاً باغراء فرنشسكا على الأكل

أخيراً قالت فرنشسكا

— ولكنك لم تأكل شيئًا . لدينا جزء من الجبن لأجل العشاء ، فهل لك أن تجرب ؟

اشتدت شهية لامبرت للطعام الآن بعد أن أطعم فرنشسكا المقدار الذى رآها في حاجة اليه ، فقال :

— حسن . سأجرب ولكن هل لكِ أن تأتيني معك بجزء من الخبز ؟

جاءته فرنشسكا برغيف مستدير كبير ، فلم تمض عشر دقائق حتى اختفى مع الجزء الاكبر من الجبن ، وإذ ذاك صاحت الفتاة ابتهاجًا كعادتها وقالت بدون كلفة

— ويحي من فتاة شقية لا تصلح للقيام بخدمتك ، كان يجب أن أكون أبعد حذقًا وأعظم خبرة وأهيىء لك فرخًا من الدجاج أو رطلاً من اللحم ؟

— كلا . لا أريد شيئًا من ذلك ولكن اشربي هذه الكأس نخب عودتي

— هل تصر على ذلك ؟ لقد أقلعت عن شرب الخمر لأننا لم نرها على مائدة الطعام في أم درمان

فقال الضابط :

— لا أظن انه كانت لديكم مائدة للطعام

— كلا لم يكن لدينا شيء من ذلك فقد كنا نستخدم رَحْل الجمل بعد تغطيته بقطعة من الدمور

فقال لامبرت مازحاً

— ألم تضعوا على هذه المائدة كؤوس الراح ؟

فضحكت الفتاة قائلة :

— كلا بلا ريب . لا أظن أن زجاجة واحدة من الخمر تسربت إلى أم درمان

صب لامبرت جزءاً من الخمر في كأسها وقال :

— اذن يجب أن تتناولي جرعة الآن

فصاحت فرنشسكا قبل أن تنتصف كأسها قائلة :

— كفى . كفى !

— حسن . اشربي هذا المقدار نخب صحتي

لم يفه لسانها بهذه الكلمات ولكن عينيها أعربتا عن ذلك .

وكانت فرنشسكا عادت إلى مقعدها اثناء حملة لامبرت على الطعام ، فلما شربت كأسها سألته بالايطالية قائلة :

— خلصت ؟

وهي اللفظة التي كانت تلقيها عليه دائماً في المطعم كلما فرغ من الطعام ، فابتهج لامبرت وأجابها بالايطالية كذلك قائلاً :

— نعم

— اذن تعال ساعدني على عمل القهوة

كانت المهمة بسيطة في حد ذاتها لا تحتاج إلا إلى وضع الوعاء على الفحم ولكنه كان مستعداً لمساعدتها فوضع ذراعه حول وسطها برقة واحترام وسار معها الى المطبخ فارتاحت الفتاة لعمله هذا اليوم ولو انه لم يكن لها ميل اليه

تناولت الفتاة القهوة برغبة شديدة إذ وجدت فيها منعشاً لها ، ثم أخذت تتحدث مع لامبرت في غرفة الاستقبال ، وهي تشعر بحاجتها إلى التسلية مع رجل قوي الجسم ، رقيق العواطف جذاب المحيا ، فشرع يحدثها عن انبائه فأخبرها انه جاء على أثر مغادرة السردار بعد رحلة استغرقت اياماً طويلة ، تفقد القائد فيها جميع القوات المحاربة التي ستتقدم يوماً ما لاستعادة السودان ، أو كما يقول الجنود والضباط للانتقام لغردون والذين استشهدوا معه عند ما يصدر رجال السياسة أمرهم بذلك

شعرت فرنشسكا بقوة منعشة في حديث الضابط معها . وكان

لامبرت الآن في الثلاثين من عمره ، ولكن الشاب الطائش الذي انغمس في الرذائل في السنين الماضية لكي يعزي نفسه عن ضياع فرنشسكا قد تحول بعد السنين التي قضاها في الصحراء الى جندي شجاع مقدام ، تبدو على وجهه آثار الحروب والأسفار وهو جالس الى جانبها في المنزل نفسه الذي جاء بها اليه من اسوان

أخيراً أشار لامبرت الى حديثها قبل تناول الطعام فقال

— أراك أيتها الفتاة الصغيرة نحيلة الجسم بسبب الخماسين ، فيجب أن نسافر معاً الى رمل الاسكندرية لتبديل الهواء

فقالت الفتاة :

— ليس السبب في ضعفي حرارة الجو لأن الحر هنا لا يعد شيئاً بجانب حرارة الشمس المحرقة في أم درمان

— ما السبب اذن ، هل تشعرين بضيق ؟ هل ذهب جميع أصدقائك ؟ أو هل ظهر عليك تأثير الأيام القاسية التي عانيتها ؟

— ليس هذا من تأثير الأيام

— اذن من فقد بعض الأصدقاء ؟

— ليس لنا أصدقاء كثيرون . فقد خرجنا عن دائرتنا القديمة وليس لنا أصدقاء عديدون في الدائرة الجديدة التي قذفنا اليها

ستزول كل هذه المتاعب متى عاد الضباط الى القاهرة ، فسأقدمك اليهم والى زوجاتهم

— كلا . لا أريد أن تكون لي أية صلة أخرى بهذا المكان الممقوت

— لماذا ؟ ماذا جرى ؟ هل يذيع أحد عنك شيئاً ؟ اذا كان هناك شيء من ذلك اخبريني لكي . . .

فقاطعته الفتاة قائلة :

— كلا . كلا . لم يذع أحد عني شيئاً

— لأن في مثل هذا عاراً عليك . لم تكن لديك حيلة عند ما وقعت في الأسر . وقد قمت بعمل الأبطال بفرارك بهذه الوسيلة . لعمري انه أبدع عمل قامت به امرأة

وكانت انوسنزا قد باحت له بكل شيء عن ابنتها بعد أن وصلت سالمة الى القاهرة ، فقالت فرنشسكا

— ولكن الحقيقة الواقعة لا تزال باقية أيها الدون لامبرتو ، وهي انني كنت في حريم المهدي . نعم لم يتخذني زوجة فعلية له ولكن ليس لديّ دليل على ذلك غير كلمتي

— ولكن ماذا يهمهم لو فرض وكنت زوجة له ؟ لقد خضعت لما ليس منه بدٌّ ، وعلى كل حال فأنت أرملة لأن المهدي صار الآن في عداد الاموات

— ولكن ثق بأن هناك اناساً يهتمون بذلك كثيراً أيها الدون لامبرتو ، ولايرون انني جديرة بعشرتهم ظانين انني خارج الحظيرة كلها

— اريد رؤيتهم

— أشكر الله لأنك لن تستطيع

— وهل ينظرون اليك بعين الاحتقار والازدراء ؟

— شراً من ذلك . انهم يزعمون أن في وسعهم اهانتي وهذا أصل شقائي وبلائي

— مسكينة أيتها الفتاة الصغيرة . ولكن هناك وسيلة واحدة تحميك من هذا كله ، فيجب أن تتزوجي بي يا عزيزتي

— لا أخالك تجهل انني لا أستطيع ذلك . انهم يرفضونك من الجيش المصري

— لا يهمني ذلك . سأرسل اليهم أوراقي

— لا ترسلها قبل أن تنتقم لي أيها الدون لامبرتو، فقد أقسمت أن تفعل ذلك

— ان الزواج بك أحلى من الانتقام

— ولكنك لا تستطيع ذلك . ان شرفك العسكري يقضي عليك بأن تسير الى النهاية . لقد تدربت على أن تكون أحد الذين سينتقمون لغردون .

— لقد خطرت ببالي فكرة مؤلمة ، لماذا لا نتزوج سراً ثم نذيع السر بعد أن تضع الحرب أوزارها واترك خدمة الجيش المصري ؟

فقالت فرنشسكا وهي تبتسم

— ان الحرب لم تبدأ بعد

— لماذا لا نستطيع الزواج دون أن نخبر أحداً ؟

— هل فكرت في العبء الذي تلقيه على عاتقي بعملك هذا ؟

— ماذا ؟

— سيجهل الناس انك زوجي فيلحقنا العار بلا ريب ، لأنك لا تجهل ماذا يقولون ؟

— انهم لا يقولون شيئًا دون أن ينالوا عليه جزاءهم

— لن تستطيع وا أسفاه أن تعرف من « هم » الذين كانوا أصل هذه الضجة

— وفوق ذلك لا يقولون شيئًا عن ذلك بالمرة ، لأنك ستعيشين مع والدتك ، وسأتوخى الحذر الشديد فلا أعرضك لأقل خطر

تجددت روح الأمل في قلب فرنشسكا فتوردت وجنتاها ولمعت عيناها ورفعت صدرها وقالت بفخار

— ألم تدرك النقطة الحقيقية التي أرمي اليها أيها الدون لامبرتو ؟ اعلم انني لا أريد أن أعبث بحياة رجل كبير ذي مكانة غالية في عين السردار ، أو أقضي عليها لأجل حياة فتاة مثلي تتحمل وصمة عار لا ذنب لها فيه ، ولكنها وصمة لا تمحى

فقال لامبرت بحمية

— وصمة عار ! هذا قول هراء . لا يهمني اذا كان كل ما يقولونه عنك صحيحًا فانك لا تزالين بالرغم من كل ذلك فرنشسكا الصغيرة ، الفتاة الوحيدة التي أحبها وسأحبها مدى الحياة

— هل تتزوج بي اذا ثبت انني كنت زوجة للمهدي ؟

— لم لا ؟ أظن انه مات حقًا ؟

— نعم مات بين يديّ

فمد لامبرت ذراعيه اليها وقال

— اذن ليس ثمة عقبة مشروعة تحول بيننا

— أخشى أن تكون هناك عقبة خطيرة

— ما هي ؟ أية عقبة يا عزيزتي ؟

— هي انني لا أهواك كما يجب أن تهوى الزوجة بعلها . في وسعي أن أحبك كشقيقة أو كابنة إلى أقصى حد تريد ، ولكنني أواه لا أستطيع أن أحبك كزوجة

— سيأتي هذا فيما بعد

ولابتهاجه مالت فرنشسكا نحوه وقالت

— حسن . اذا كنت ترضى أن تأخذ مخلوقة ضالة مثلي وعيناك مفتوحتان فتقدم إليّ متى شئت . انني أشعر بملل ووحشة وعار إلى حد اليأس والقنوط بحيث أراني في حاجة إلى ركن أميل اليه . فاذا

كنت تريد حقًا أن تقضي على حياتك الطيبة ومستقبلك الحسن مع فتاة لا تستطيع أن تعطيك اكثر من هذا فانني لك . هل تأخذني يا لامبرت ؟

— سلي من أشرف على الغرق هل يمسك بعوامة تلقى اليه لانتشاله من الموت ؟

وكانت الفتاة قد التصقت به فضحكت ضحكتها القديمة العذبة وقالت :

— اريد عكازاً أتكئ عليه . لك أن تقبلني قليلاً ولكن لا تكثر من تقبيلي الآن . انني احبك يا لامبرت ولكن أسألك المعذرة إذا طلبت اليك أن تدعني أتعود التفكير بك كزوج لي ؛ لا أستطيع أن أفكر في ذلك الان . نعم سأكون زوجتك بعد اقتراننا ولكن يجب أن تعطيني مهلة كافية

— لك يا عزيزتي ، بعد أن قطعت على نفسك عهداً بزواجي ، أن تملي عليّ شروطك فأذعن لها ولو طلبت إليّ أن لا نلتقي كزوج وزوجة حتى نعلن زواجنا

— قلت لك ان الأمر لا يبلغ هذا الحد يا عزيزي ولكنني لا أستطيع أن أحتمل حتى تقبيلك إلا قليلاً في أوقات فيها . . .

— حسن . ومتى نتزوج ؟

— متى أردت ، غداً إذا شئت . هل نستطيع الزواج غداً ؟

— لا أدري . سأنظر في الامر . هل آتي معي بكاهن بعد ظهر الغد اذا كان ذلك مستطاعاً ؟

فصاحت فرنشسكا قائلة

— لا أريد الزواج على يد كاهن ، ولن أخاطب كاهناً في حياتي

— على يد من نتزوج اذن ؟

— على يد القنصل . أظن اننا لا نستطيع الزواج على يد قنصلكم دون أن يسمع به السردار ؟

— ولكن ألا يبوح القنصل الايطالي بسرنا أيضاً ؟

— كلا . ان جينو يحب والدتي ، وهو الذي سعى لدى ملك ايطاليا حتى خصص لها معاشاً لانه يريد زواجها إذا مات أبي . ولكنك لا تستطيع أن تثق بأحد من الرجال — إلا بنفسك يا عزيزي لامبرتو

الفصل الثاني والثلاثون

الحب الكاذب

لو عاشت فرنشسكا زوجة لامبرتو الشرعية بين الجالية الانكليزية لما استطاع انجيلو أن يعذبها عذاباً لا يطاق . ولكنها أثارت عداء الدساسين من بني وطنها لاقامتها في حي الصقليين الذين اشتهرت بينهم بأنها كانت زوجة المهدي كما اشتهرت أمها بأنها كانت زوجة لأحد قواده ، وزاد الطين بلة أنها وجدت نفسها مرغمة على كتمان أمر زواجها بلامبرت ، على حين شرع انجيلو ينفق عن سعة على كل امرأة تساعده على دس دسائسه . وقد زادت الحالة حرجاً بسبب حرص لامبرت وتكتمه . اذ لو استطاعت فرنشسكا أن تعلن زواجها به لاستطاع ان يستميل اليه بعض الاصدقاء ولكنه أثار بحبه الذي اشتهر أمره ، أشد عوامل الغيرة بين الصقليين الذين اشتهروا بالدسائس وحب الانتقام

اشتغل انجيلو بالدسائس فعلم أن لامبرت تزوج فرنشسكا ، فكتم السر في قلبه لسببين : الاول ان افشاءه قد يثير عطف

الصقليين على لامبرت ، والثاني ان هذا السر لا يهم أحداً غير السردار ، فعوّل على أن يبلغه اياه في وقت ملائم

أخيراً رأى انجيلو ان الوقت قد حان فقال للفتاة

— اذا لم تفعلي ما أريد ، أخبرت السردار كتشنر ان زوجك متزوج فيرفضه من الجيش المصري ولا يكون لديكما شيء تعيشان منه

رأت فرنشسكا ان خروج زوجها من الجيش معناه ضياع اكثر من نصف دخله ، ولكنها فضلت أن تفقد هذا المبلغ على أن يذهب لامبرت الى السودان الذي كانت أخطاره ومتاعبه لا تزال تضايقها في أحلامها . والواقع أرادت الفتاة أن تخبر السردار بالسر . لكن حال إخلاصها لزوجها دون ذلك وحبست الامل الذي ولّده انجيلو في قلبها فلم تفه بشيء منه وأخذت تكرر رفضها لمطالبه قائلة

— اذهب الى كتشنر وقل له ما شئت لان النتيجة الوحيدة لعملك هي بقاء زوجي معي ليحميني .

أما انجيلو فكان ينظر الى المسألة من وجه آخر ، فلم يكن يعتقد ان الانكليز يريدون مطلقاً الذهاب الى السودان ، وعلى ذلك وجد عاملين يحملانه على أن يشي بلامبرت لدى السردار وهما : انتقامه من عدوه الالد ، وافهام فرنشسكا انه رجل ينفذ تهديداته

لما وصل انجيلو الى مكتب السردار طلب اليه الحاجب أن

يكتب اسمه ووظيفته على قطعة من الورق فكتب عليها « انجيلو تراديتور » ورفض ان يكتب وظيفته قائلاً : « سيعرف السردار من أنا » . وكان الحاجب يرتاب في أمر الشاب ولكن القائد أرسل في طلبه في الحال لانه لم ينسه منذ أيام مطعم الدون زارو

ألقى السردار على الشاب نظرة باردة وسأله عن حاجته فقال

— جئت يا صاحب السعادة أحمل اليك معلومات خطيرة عن أحد ضباطك

— أي ضابط ؟

— البكباشي لامبرت اليفانت

— في وسعي أن أعطيك أنا بعض معلومات عنه. فقد حاولت ان تقتله مرة فقبض عليك ثم أطلق سراحك ومنحك حياتك ، فاذهب بسلام يا سنيور تراديتور

فاه السردار باسمه بلهجة ذات معنى أدركها الشاب . وكان كتشنر لا يجهل اشتغال هذه الجماعة بالدسائس ، فلم يحاول معرفة السر الذي أراد انجيلو ان يفشيه عن غريمه لامبرت

غير أن فرنشسكا لم تستطع العيش مع زوجها علانية خشية غضب السردار وطرد لامبرت من الجيش المصري ، وعلى ذلك ظلت تسمح له بزيارتها تحت مراقبة أمها الظاهرة . وكانت تستسلم في بعض الاحيان لعناقه مع ابتسامة زوجية تتكلفها دليلاً على الخضوع

ولكنها كانت تجفل من عناقه جفولاً شديداً . ولا عجب فقد ظلت تحب انجيلو طول الوقت ولو أنهـا رفضت اهانته ، مدفوعة بعامل الانفة والكبرياء . حتى قالت فرنشسكا ذات يوم لبعلها

— يحزنني أنني لا أستطيع أن أعاملك أحسن من هذه المعاملة . إنني في الواقع أحبك كثيراً ولكني لا أهواك . فاذا استطعت أن تحتمل ذلك حتى أتعود على حبك صرنا صديقين حميمين جداً . لقد أعطيتك كل شيء فيه اعتراف مني بأنك زوجي وسيدي ولكن لا تطمع في غرامي بك الآن . ربما يتم لك ما تريد يوماً ما ولكن لا تشدد في طلبك قبل أن يتم لك ما تريد

لم تكن هذه فكرة لامبرت في الزواج ولا رغبته، ولكنه رأى أنها الطريق الصحيح الى محبتهـا فلم يسعه الا الاذعان والخضوع مدفوعاً بحبه وغرامه . والواقع أخذت علاقتهما تتحسن بعـد ذلك تحسناً مطرداً فكانت تعطيه قبلة زوجية عند مجيئه وتستشيره في كل ما يتعلق بثيابها وقبعاتها وتطالب اليه ان يأذن لها في كل شيء تفكر في عمله

أدرك لامبرت حقيقة الامر ، فعلم أن هنالك عراكاً دائراً في قلب زوجته الجميلة فبذل أقصى جهده لمساعدتها في الخروج من هذا العراك ظافرة ، فكان يتودد اليها مثل كل شاب شرع يستميل اليه فتاة أحبها ، ويدخل الى قلبهـا السرور ما استطاع ، ويبتكر

ضروباً جديدة من التسلية لأنه رأى أن حياتها حياة مظلمة مملوءة بالكآبة . وكان قد وعدها برحلة الى آثار منف فابتهجت الفتاة بوعده هذا الى ان قالت له يوماً ما

— انني أميل الى هذه الرحلة يالامبرت

فأجابها قائلاً

— حسن . سنذهب غداً . اشتري ما نحتاج اليه من الطعام وضعيه في سلة وسآتي اليك في الساعة التاسعة من صباح الغد في عربة تقلنا الى محطة السكة الحديد وسيرافقنا خادمي الخاص ببندقيته كحارس لنا

وفعلاً ركب لامبرت وفرنشسكا وجندي من السودانيين ، القطار الى نقطة قريبة من آثار منف وهناك ركبوا حميراً الى سقارة ، فسار الجندي السوداني في المقدمة يحمل سلة الطعام يتبعه لامبرت وزوجته وهما يسيران جنباً الى جنب

وكان وجه فرنشسكا يطفح بشراً وابتهاجاً لانها رأت لامبرت لا يزال يدللها فبذلت أقصى جهدها لتكون لطيفة جذابة في عينيه . وقد زادت رغبتهـا في اظهار هذه العاطفة إليه تألمها في الداخل . ولا عجب فقد كانت نيران غرامها بانجيلو لا تزال تتأجج في صدرها . على ان التجارب التي تحملتها كانت خير معوان لها ، فصممت على ان لا تدع انجيلو أو أي مخلوق آخر يعبث بحياتهـا

الزوجية ، كما صممت على أن تسلك مسلكا جديراً بزوجة ضابط كبير مهما طال الوقت قبل أن تهبه قلبها كله ورضيت أن تكون شهيدة وعلى ثغرها ابتسامة الرضى والارتياح اذا لم تستطع أن تكون اكثر من ذلك ، خذ مثلا انها ركبت اليوم بجانب زوجها وأخذت تنظر اليه بعين الارتياح وتبسم في وجهه كلما نظر اليها ، ومع ذلك لم تستطع أن تحول أفكارها عن انجيلو قائلة ترى ماذا يفعل لو كانت هذه الرحلة معه ؟ فكانت تشعر والحالة هذه بأنها مكرهة على أن تقدم الى زوجها البراهين على ابتهاجها واظهار كل ما يتحتم عليها اظهاره بصفتها زوجة له

ارتفع الطريق بعد قليل ، ولم تمض مدة وجيزة حتى شاهدوا تمثال رعمسيس الاكبر ملقي على ظهره ينظر الى السماء ، فترجل لامبرت عن حماره وساعد فرنشسكا على النزول ، ثم دارا حول التمثال الاحمر الضخم وتمثال الملكة « نفرتارى » زوجة رعمسيس المحبوبة . ولما فرغا من هذه الزيارة رفع لامبرت زوجته وأركبها على ظهر حمارها ثم واصلوا السير الى أن وصلوا الى التمثال الابيض الكبير فوقفت فرنشسكا حائرة امام ضخامته .

تلاشت مدينة منف لأن منازلها المديدة كانت مبنية من الطين ، ولما تهدمت الاسوار التي كانت تحميها واندثرت ، طغت عليها مياه الفيضان ولاشتها . وكما أن التراب الى التراب يعود

كذلك الطين الى الطين يعود . والواقع تحللت مدينة منف — عدا قصور ملوكها المشيدة من الصخر — الى عناصرها الاولى . أما القصور فكانت لا تزال مدفونة عندما سار لامبرت وفرنشسكا فوق البقعة التي شيدت عليها العاصمة التاريخية الأولى لمصر ، مدينة مينا التي كانت تتباهى وتزدهي على المدن الأخرى

ولما كانت مصر في عهد الفراعنة مثلها في عهد الخلفاء ، تدفن موتاها في الصحراء عند طرف المدينة فان مدينة الموتى لم تندثر مثل مدينة الاحياء بل بقيت ظاهرة هنا ومختفية هناك فوق الاكمة الصحراوية في غرب المدينة . ومدينة الاموات هي سقارة المعروفة في العالم بأهراماتها العتيقة

سار لامبرت وفرنشسكا نحو هرم سقارة ، وهو أقدم أثر في مصر بل وفي العالم أجمع ولكنهما لم يتلكآ عنده او يدخلا المقبرة التي في داخله او المقبرة الخلفية التي دفن بها أطباء داريوس الفارسي الثلاثة لأن الحمَّارة أبلغوهما أن فوق النجد مقبرة أخرى يسهل رؤيتها ، بها نقوش وصور بديعة ، فذهبا اليها وهناك شاهدا مقبرة مؤلفة من بضع غرف منحوتة بمهارة فائقة لا تزال ألوانها تلمع برونقها الاصلي

وبينا كانت فرنشسكا تمتع عينيها بهذا المنظر البديع ، وقد وضعت ذراعها في ذراع زوجها ، كان الجندي السوداني يدور

بعينيه فيما حوله يبحث عن مكان مظلل يتناولون فيه طعامهم ، فوجد المنزل الذي كان يستخدمه مريت بك للاستراحة عند ما كان يشتغل باكتشاف آثار منف العجيبة . فلما فرغ لامبرت وفرنشسكا من زيارة المقبرة ذهبا الى شرفة ذلك المنزل حيث تناولا الطعام في حين جلس الحمارة في الظل وتناولوا طعامهم كذلك وتركوا حميرهم تتمرغ على الرمل . وأخيراً لما فرغ الجميع من تناول الطعام تأهبوا لاستئناف السير بجد الى إهرامات الجيزة فساروا الى أن بلغوا المرتفع الاول فشاهدوا الاهرامات الثلاثة على اليسار وقلعة القاهرة مع مسجد محمد علي ومئذنتيه على اليمين . ثم وصلوا بعدها الى مكان له صلة بعهد روما القديمة ، كان المصريون ينحتون منه أعمدة من الرخام الأحمر والرخام الوردي الجميل ويحملونها مسافة طويلة الى النيل لترسل بطريق النهر الى الاسكندرية لبناء الهياكل والمعابد في عهد البطالسة

أخيراً اقتربوا من منتصف الطريق الصخري فشاهدوا اهرامات ابو صير على يمينهم ، وقد أخنى الدهر — أو قل البحث عن الآثار — عليها بكلكله ، ثم رأوا على مقربة منها بركة بديعة تحلق الطيور البرية على سطحها . أخيراً مالت الشمس نحو الغروب فكست الصخور حلة قرمزية بديعة . وكان المنظر جميلا فابطأوا السير لكي يمتعوا انظارهم به . وقد زعم لامبرت أن فرنشسكا

قد تغير شكلها وهو ينظر اليها في ضوء الشمس الذهبي ، على حين شعرت الفتاة كأنها ثملة بجمال المنظر وأحست بانتعاش روحها في هذه الساعة البديعة

اقترب الركب الآن من البقاع الآهلة بالبدو ، فشاهدت فرنشسكا قطعان الغنم والابل والخيام . ثم لم تلبث ان وقعت عيناها على ابي الهول من بعيد ولكن سرعان ما احتجبت الشمس وراء الافق واسدلت ظلمة الليل سدولها ، فسألت فرنشسكا احد الحمّارة قائلة

— هل تعرف الطريق ؟

— اعرفه ياسيدتي بمساعدة النجوم

والواقع كان الرجال يعرفون الطريق جيداً فوصلوا بلامبرت وفرنشسكا الى نقطة على مقربة من العربة التي كانت تنتظرهم بين الهرم الاكبر وابي الهول مع الدونا انوسنزا التي جاءت معها بطعام العشاء ، فلما رأت فرنشسكا امها قالت

— تمتعت بفسحة لذيذة جداً يا أماه

ترجّل الجندي السوداني عن حماره ثم هرع الى العربة فحمل الطعام ، في حين اعطي لامبرت الحمّارة اجرتهم وزيادة . وقد تمشى الجميع امام تمثال ابي الهول في ضوء القمر وقضوا وقتهم في ابتهاج

وسرور ، يمتعون انظارهم بجمال المنظر المحيط بهم الى ان فرغوا من طعامهم وجلسوا يتسامرون بابتهاج وفرح

على انه لم تمض مدة وجيزة حتي عكر صفو هذا السكون قرع طبول وموسيقى عربية فسال لامبرت خادمه قائلا

— ما هذا ؟

فاجاب الجندي قائلا

— لاادري ياسيدي . اظن ان بعض الناس يلهون ويلعبون

— حسن . اذهب الى هذا المرتفع وانظر هل تستطيع رؤية شيء ، واذا شاهدت شيئاً فادعنا

ذهب الجندي و بعد قليل نادى لامبرت فذهب اليه وعندئذ شاهد الضابط مئات من الناس يحملون الاعلام المطرزة تتقدمهم الطبول والزمور ، وفي الوسط نعش محمول على الاعناق ، ملفوف بشال من الكشمير

وكان مشهد الجنازة قد اقترب من ابي الهول ، فنادى لامبرت فرنشسكا ولكنها لم تكد تلقي نظرة على ما أمامها حتى انثنت راجعة بسرعة وقد اخفت وجهها بيديها

هرع لامبرت خلفها الى ان لحق بها فوجدها بخير ولكنه حار في ادراك سر اضطرابها فسألها قائلا

— ماذا جري اي فرنشسكا عزيزتي . هل اصابك اذى ؟

— كلا ، وانما جعلني هذا المشهد أتذكر كل شيء

أدرك لامبرت السر في الحال ، فعلم انها ذكرت الحوادث المؤلمة التي مرّت بها في الخرطوم وام درمان فازال وساوسها ما استطاع

ثم سار الجميع الى العربة فاقلتهم الى المنزل

شعرت فرنشسكا بقوة تجذبها نحو لامبرت عند ما ذكرت المأساة التى اصابتها في حياتها ورأت انه انقذها من ايدي الدراويش كما انقذ امها من قبل، فمالت برأسها الى صدره بعاطفة زوجية اثناء عودتهم الى القاهرة



الفصل الثالث والثلاثون

نادى منادي الحرب

اخيرا اصدرت الحكومة امرها الى الجيش المصري بالزحف على ضفاف النيل بعد ان علمت ان لديها جيشاً مدرباً مستعداً للزحف ومجهزاً بمعدات وافية للنقل ، جيشاً ادهش العالم بأعماله

ففي ١٢ مارس سنة ١٨٩٦ تلقى السر هربرت هوراتيو كتشنر سردار الجيش المصري ، امراً بالزحف الى مديرية دنقلة واحتلال « عكاشا » فاستدعى الرديف ، وفي يوم الاحد ١٤ مارس عرض الخديوي حامية القاهرة وبعد انتهاء الحفلة ابلغ السردار الخديوي ان مقدمة الجيش ستسافر الليلة الى ميدان القتال ، فكان لهذا النبأ وقع حسن في نفوس الجنود . وكان هنتر ينتظر في ميدان القتال وصول تلغراف بهذا النبأ الخطير . وبعد ان ألف لواءه — قبل أن يتحرك جندي واحد من القاهرة — من حامية الحدود لينقض بهم على بلدة « عكاشا » التي كانت يومئذ فى ايدي الدراويش الذين احتشدوا في « فركة »

وكان في وادي حلفا ست اورط من الجنود المصريين والسودانيين مستعدة للقتال ، على حين كان في القاهرة ارطة ونصف

اخرى مستعدة للسفر بعد يومين ، وفي سواكن ثلاث ارط اخرى عدا ارطتين من الرديف للمراقبة والمواصلات

اما الارطة الوحيدة البريطانية من جنود « نورث ستارفورد شير » فقد حلت محل القوة المصرية التي كانت معسكرة في حلفا ، والتي كانت مؤلفة من ستة ألوية من الجنود المصرية . وهكذا لم تسمح الحكومة الانكليزية لجنودها في مصر بان تشترك الى أبعد من ذلك ، في الحرب التى كانوا يملون النفس بها من زمن بعيد

وفي اوائل ابريل زحفت الارطة التاسعة السودانية ، وكانت من خيرة الجنود في الجيش المصري ، من سواكن وسارت بسرعة ثلاثين ميلا في اليوم مجتازة الصحراء تحت حرارة الشمس المحرقة . وكانت اورطة لامبرت على اهبة العمل في كل وقت ، فاستدعي الضابط في ١٤ مارس من وزارة الحربية مثل اي جندى مصري من الرديف فسافر في الخامس عشر منه الى ميدان القتال

رأى لامبرت من اصالة الرأي ان لا يحاول مد اجازته لانه لم يجد عذراً يستطيع الارتكان عليه ، وعلى ذلك وجدنفسه في القطار الذي أقله الى البلينا ، وكانت آخر نقطة وصلت اليها السكة الحديدية ذلك الوقت ، وهناك وجد بواخر شركة توماس كوك راسية في النيل تحيط بها زوارق عديدة مختلفة الحجم

نزل الجنود في البواخر والزوارق الكبيرة ، وشحنت المهمات

في السفن الشراعية التي فردت قلاعها امام ريح الشمال . ثم سارت البواخر والسفن معاً دون ان يحفل احد ممن كانوا فيها بهيا كل الفراعنة القائمة على ضفتي النيل ، الى ان وصلت بهم الى اسوان بما فيها من آثار مصر وروما ، والشلال العظيم الذي يعد اعجوبة الدنيا العاشرة

نزلت الحملة كلها من البواخر والسفن في اسوان ، ثم اجتازت الصحراء في السكة الحديدية وعلى ظهور الابل الى الشلال حيث كانت هنالك بواخر وسفن وزوارق اخرى راسية لاستقبالهم ، تخفرها زوارق المدفعية وتصد عنها غارات الدراويش . ولم يكن لدى لامبرت عمل يعمله لان ارطته كانت قد سافرت الى ميدان القتال فأخذ يشتغل اثناء نزول الحملة ، بمراقبة جزيرة انس الوجود بمنظاره

وكان المنظر جميلا عند شروع الحملة في الزحف لان النيل يضيق بعد الشلال ، فغص النهر بالبواخر والسفن وامتلأ بها من الشاطيء الى الشاطيء . على حين كانت هياكل النوبة الجميلة الصغيرة ترى هنا وهنالك فوق الشواطيء الرملية بين حد الفيضان وطرف الصحراء ، يوصل اليها صفان من تماثيل ابي الهول

اخيراً وصلت الحملة الى كورسكو ، مدينة القوافل ، فوجدوا ألوفاً من الابل ارسلت بطريق البر من اسوان لحملهم في الصحراء الى المكان الذي يريدون الوصول اليه . وقد ذكر لامبرت كل هذه

الآثار والهيا كل جيداً لانه نال الفوز في معركة توشكي منذ سبعة اعوام ، وخلص انوسنزا من أيدي الدراويش على زعم انها فرنشسكا ضالته المنشودة

اجتازت الحملة مدينة توشكي بعد قليل ، فلم ير لامبرت اثراً للمعسكر الذي خرجت منه الجنود المصرية التي قضت على قوات ود نجومي وصدت عن مصر الغزاة الى الابد . وقد بحث لامبرت عن آثار تذكره بذلك الوقت المجيد الى ان وقعت عيناه في النهاية على التماثيل الاربعة الضخمة في ابي سمبل ، فلم ير شيئاً تغير منها اللهم الا رمال الصحراء الذهبية التي تكاد تغطي التماثيل

وصلت الحملة الى ابي سمبل عند شروق الشمس ، ولم تكد تختفي اشعتها وراء الافق حتى كانت البواخر قد ألقت مرساها مقابل عنابر وادي حلفا التي اتخذت قاعدة لتموين الجيش المصري المنتقم

لما عاد لامبرت الى ظهر الباخرة احس بيد على كتفه فالتفت فرأى الكولونيل جورج ترسبي ، ضابطه وصديقه القديم وموضع سر حبه بفرنشسكا ، واقفاً الى جانبه ببذلة القتال

صاح الكولونيل قائلا

— مرحباً ايها الصديق القديم . يسرني ان أراك بخير . ليس بيننا من يستطيع ان يثير حمية الجنود للقتال مثلك

فسلم لامبرت على الضابط وقال

— لقد جئت لهذا الغرض . ان الدين لم يوف بعد

— كيف غادرتها ؟

— لا تبح بشيء ايها الصديق . لقد تزوجتها ولكن لم تتجاوز علاقتنا الى اكثر من ذلك

— ليس هذا بذي بال . سيتم كل شيء على ماتهوى بعد فراغك من هذه المهمة ، واذا قتلت فسيكون هذا خير مخرج لك

— نعم هو ما تقول ، ولكنني اريد أن امتع بها اولاً، ولو يوما واحداً

— هذا ماانتمناه جميعاً ، ولكن انظر الى الرجال. ها قدعرفوك

والواقع شاهد لامبرت بعض جنوده من الدنكة مصطفين امام الباخرة وقد بانت اسنانهم البيضاء وهم يبتسمون ابتهاجا برؤيته فنزل وصافحهم

اخيرا لما ذهب لامبرت الى ميدان القتال لم تغب عن فكره ذكري زوجته الجميلة في القاهرة ، ولكنه كان جنديا قبل كل شيء ففضل القيام بواجبه على كل اعتبار آخر

الفصل الرابع والثلاثون

— انجيلو في الميدان —

علم انجيلو ان لامبرت في جنوب حلفا منهمكا في الاستعدادات الحربية العظيمة ، فاحسن معاملة فرنشسكا في البداية ثم انقطع عنها اسبوعين الى ان التقى بها في فرصة دبرها من قبل ، فسألها عن لامبرت ولما علم انه سافر الى ميدان القتال عرض عليها خدمته . وكانت الفتاة تميل دائما الى حسن الظن بالناس وتنسي خداعهم فشرعت تعتمد على انجيلو وتنتظر قدومه برغبة . وهكذا لم تمض ايام قليلة حتي سلط عليها سحره القديم شيئاً فشيئاً فصارت تتوق الى زيارته اليومية لتسليتها

اخيراً تذكر انجيلو ذات يوم ان الرحلة الوحيدة التي راقت في عين فرنشسكا اكثر من غيرها من الرحلات التي قامت بها مع لامبرت، هي زيارة المرج والمطرية ، وعلم انها لم تتمتع جيدا بمشاهدة الآثار الدينية هناك ، لان المطرية تعد لدي الكاثوليك الاتقياء اقدس بقعة في مصر . ولم تكن هناك في تلك الايام سكة حديد من كبري الليمون، فكان على من يريد السفر الى المطرية ركوب عربة تجتاز به طريقا رمليا

وصل انجيلو وفرنشسكا الى المطرية فذهبا الى الكنيسة الصغيرة حيث سمعا من الكاهن قصة يوسف النجار والعذراء مريم مع الطفل يسوع وهربهم الى مصر. فشعرت الفتاة بارتياح الى هذه القصة واغتباط لوجودها في مثل هذه البقعة المقدسة وأخذت تصغي بذهول الى الكاهن وهو يصف كيف اختفت الام والطفل والزوج في جوف الشجرة المقدسه التي لاتزال تحمل اوراقا خضراء بالرغم من سقوطها، وكيف نسج العنكبوت خيوطه وأخفاهم عن اعين مطارديهم، وكيف تحولت القطرات التي سقطت من جسم الطفل يسوع عند رفعه من الوعاء الذي اغتسل فيه، الى اشجار البلسم الغالية التي تنمو في مصر وحدها

لم تجرأ فرنشسكا أن تعرب عن رجائها بان مريم العذراء غسلت الطفل في مياه « عين شمس » تحت اشجار الجميز الكبيرة في قلب هيلو بوليس القديمة. لانها كانت لا تفقه شيئاً من اسم «عين شمس» فلم تذكران يوسف الصديق بن يعقوب ذهب الى هيلوبوليس لاجل زوجته ابنة الكاهن، ولم تعلم ان موسي وافلاطون تعلما رسالتهما الى الناس في قيمان المعهد الذي قضى عليه البطالسة اكراما للمدينة التي سميت باسم مؤسس اسرتهم العظيم

رأت فرنشسكا وانجيلو في هذه القصة تسلية لهما وتضييعة للوقت

ولما فرغا من زيارة الهيكل ذهبا الى حديقة حيث جلسا في « كشك » على مقعد يدخنان ويشربان مشروبات منعشة. وكان انجيلو اعطى الحوذي اجرته على اثر وصولهما قائلا ان في وسعه الحصول على عربة اخري متى أرادا. وبينا كانا جالسين يدخنان في « الكشك » لاحظ انجيلو او بالحري تظاهر بانه لاحظ أن الحديقة تابعة لفندق صغير يمتلكه رجل صقلي اشتهر بتقديم الطعام الفاخر الى الزبائن الذين يأتون من القاهرة. على انه لم يبد أية ملاحظة على ذلك بل خرج بعد قليل ليبحث عن عربة ولكنه لم يعثر على ما اراد، فاعاد الكرة ثانية وثالثة، وهكذا كان يأتي الى فرنشسكا من وقت الى آخر ليبلغها فشله

اخيرا جاءها نحو الساعة السابعة، تبدو عليه دلائل التعب فاقترح عليها ان يتناولا طعام العشاء في الفندق، وان يرسلا الصبي ليبحث عن عربة في القرية المجاورة اثناء تناولهما الطعام. وكانت الفتاة قد لاحظت ما ظهر عليه من دلائل التعب فلبت دعوته ولم يمض نصف ساعة حتى جاءهم صاحب الفندق بطعام فاخر في الحديقة (لان انجيلو كان قد ارسل اليه تلغرافا امره فيه باعداده واوصاه ان يقول إنه صنعه اتفاقا) وكان الرجل معتادا على مثل هذه الحيل والدسائس من قبل، فاتقن تمثيل دوره

اكلت فرنشسكا بشهية وهي خالية الذهن وارتاحت لمّا لاحظت

ان انجيلو قد ذهبت عنه دلائل التعب وبدت عليه دلائل الابتهاج . وقد بذل الشاب جهده لادخال السرور الى قلبها دون ان يحاول التودد اليها او الخروج عن دائرة اللياقة والأدب . وكان يجدر بالفتاة ان تقلق لمثل هذا السلوك الغريب ولكنها كانت لا ترتاب فى أحد الا متى شبت نيران الحرب بينها وبينه ، وعلى ذلك جلست تنظر الى انجيلو وهى تعجب به الى ان نظرت الى ساعتها اتفاقاً فوجدت انها تجاوزت الساعة التاسعة ، فقالت :

— دق الجرس يا انجيلو لانني اريد أن اعرف متى تصل العربة

جاء الصبي بعد قليل وقال انه بحث فى كل مكان فلم يجد عربة فأمره انجيلو بالبحث مرة اخرى ولكن الصبي لم يطع الامر تعمداً وذهب الى منزل مجاور

اخيراً قال انجيلو

— اخشى ان نضطر الي البقاء هنا اذا لم يستطع الصبي العثور على عربة ، لا نستطيع العودة الى القاهرة فى هذه الساعة من الليل مخافة ان يعتدي اللصوص علينا ويقتلونا

— حسن . ارسل تلغرافا الى والدتي لانها لابد ان تكون في قلق عظيم

فقال صاحب الفندق ، وكان له ضلع فى الدسيسة

— قفل مكتب التلغراف

اراد انجيلو ان يزيل مخاوفها فقال

— في وسعنا ان نرسل اعرابيا بخطاب يصل اليها بعد ساعتين

فقالت فرنشسكا

— حسن . ارسل شخصاً ليأتي معه بعربة من القاهرة في الوقت نفسه الذي يترك فيه الخطاب لوالدتي ويخبرها اننا سنصل متأخرين

رأي انجيلو ان تنفيذ هذه الخطة يستغرق اربع ساعات على الاقل ، يستطيع في خلالها ان يقدم على ما يريد ، فقال لفرنشسكا بلهفة

— اكتبي الخطاب ، واذا حصلت على الرجل اعطيه اياه وزوديه بالتعليمات التي تريدينها بنفسك

اراد انجيلو بقوله هذا ان يزيل وساوسها ، ولكن لما ذهب الرجل بالخطاب اقدم الشاب على الخطوة الاولى من دسيسته التي دبرها بدقة واحكام ، فقال

— يستغرق الرجل ثلاث ساعات او اربعا ، وعلى ذلك ارى من الملائم ان ندخل الفندق بدلا من الجلوس هنا عرضة للبرد مدة طويلة

رأت فرنشسكا ان المنزل أقل وحشة من الحديقة ، فقالت

— نعم ، قد يكون ذلك من الحكمة

قال صاحب الفندق معتذرا

— ليس لدينا « صالون » ولكن في وسعكما ان تجلسا في غرفة الاستقبال

دخلت فرنشسكا الغرفة ثم رفعت قبعتها عن رأسها ووضعتها على المنضدة ، ثم رصت دبابيسها بجانبها وبعدها ذهبت الي المرآة واصلحت شعرها بيديها . ولما فرغت تبعها انجيلو ثم امسك بذراعها بلطف وقادها الى الديوان ثم تركها تجلس حيث تريد ، فجلست منتصبة القامة وذراعها اليمني مستندة الى ظهر الديوان ، ثم نظرت اليه نظرة ادرك منها انها لا تريد ان يجلس بجانبها ، فجلس على المنضدة امامها ، ولم يقدم على تنفيذ الخطة التي دبرها مباشرة ولكنه حاول ان يثير اعجابها ورضاها . وكان الشاب يعلم انه يملك قلبها فاراد أن يولد فيه عاطفة تجعلها تصغي الى ما يوحيه اليها حبها وغرامها وتلق بالحزم والتعقل الى الهواء . والواقع ابرقت عيناها وتوردت وجنتاها ابتهاجا بوجودها معه على هذه الحال، على حين تفاني الشاب في التظاهر بهذا المظهر الكاذب

جاءت الساعة العاشرة — العاشرة والنصف — الحادية عشرة الحادية عشرة والنصف — نصف الليل — ، فرأي انجيلو ان الوقت قد حان لاماطة اللثام عن غدره فقام من مقعده وقال

— سأذهب الى صاحب الفندق واسأله متى يعود الرجل بالمركبة

ثم خرج ولكنه عاد بعد هنيهة وقال

— اخبرني صاحب الفندق أن الرجل لم يذهب لانه خاف اللصوص الذين يظهرون في الطريق اثناء الليل

فقالت فرنشسكا باضطراب

— والان ما العمل ؟

كانت هذه هي الفرصة التي يترقبها انجيلو فافضى اليها بالحقيقة الواضحة بلهجة الفوز والظفر ، فتورد وجه الفتاة وثار غضبها ثم قالت

— اظن انني عرفت غرضك

على ان انجيلو كان كغيره ، عرضة للشطط فقال

— لقد شاءت ذلك يد القدر ، لسنا ملومين

رأت فرنشسكا من الحزم ان لا تفوه بكلمة لان نظراته اليها أعربت عما في نفسه بعبارة افصح من كلماته . على انها شعرت بحرارة الخجل تكاد تلهب خديها فقامت وتناولت قبعتها ودبابيسها دون ان تجفل منه ثم غادرته الى الغرفة المجاورة

عرفت فرنشسكا الصقلية ان هذه احبولة ، فنظرت اليه قبل مغادرة الغرفة نظرة تنم على القبول والرضا ، ولكنه سمعها تلوى المفتاح في باب الغرفة التالية فالقى نفسه على الديوان واخذ ينتظر عودتها بفروغ صبر

خلعت فرنشسكا نعليها وحملتها في يديها ثم وضعت قبعتها على

راسها وشرعت تفحص المكان بدقة لانها ايقنت ان انجيلو لا يتنازل مع شدة غرامه بها عن، فكرته الخبيثة ، فرأت ان الباب المفتوح في طرف الغرفة من الناحية الاخرى يتصل بممر خال من النوافذ ولكنها شعرت بتيار من الهواء يجرى فيه فقالت في نفسها لابد ان يكون هناك باب . فسارت بضع خطوات الى ان عثرت على سلم فلبست نعلها وهبطت درجاتها ثم اخذت تتلمس الطريق في الظلام الى ان وصلت الى سلم أخرى اجتازتها الى ان وصلت الى باب يتصل بطريق خلف الفندق

استقر رأى فرنشسكا في الحال على الخطة التى عولت على اتباعها فخرجت الى الشارع . وكانت تعرف المنعرج القصير الذي يتصل بالطريق العام فجدت السير اليه ثم انثنت الى اليمين وسارت في طريقها الى القاهرة

سمعت فرنشسكا ماقاله انجيلو عن خطورة الطريق وما به من اللصوص ، فاضطربت وخافت ولكنها لم تكن تخشي اللصوص اكثر من الخطر المحدق بها ، فجدت السير ما استطاعت . وكان حذاؤها الخفيف يمتليء بالرمل اثناء سيرها في الاراضي الرملية، وتشعر بالالم في قدميها اثناء سيرها على الارض الصلبة ، على انها احتملت ذلك كله وسارت تتعثر في ظلمة الليل وقلبها يخفق بشدة . ولم يكن هناك

قمر ينير طريقها ، ولكنها استطاعت بفضل النجوم التي كانت تتلألأ في السماء ، أن تتبين الطريق

التقت الفتاه فجأة برجل يحمل هراوة طويلة فاضطربت اضطراباً شديداً . وقد تبعها الرجل ليتبين امرها ، وهو لا يعتقد انها امرأة بيضاء تسير في مثل هذا الطريق بعد منتصف الليل . على انه لما وجد أن حواسه لم تخدعه حياها بلطاف باللغة العربية ،فردت عليه التحية بلغته فاخبرها انه خفير ، فاعطته بضعه قروش لكي يرشدها الى الطريق الموصل الى القاهرة ويخفرها الى هناك ، فاجابها قائلاً

— لا استطيع أن اتجاوز منطقتي يا سيدتي

— بالله افعل . اتوسل اليك ان تفعل . ساعطيك مبلغاً كبيراً من النقود

— لا يجوز لي مغادرة منطقتي هذه التي اخفرها ولكن في وسعنا اذا ما وصلنا الى نهايتها أن ننتظر حتى نرى خفير المنطقة التالية فيرافقك الى نهاية منطقته

— وهل يطول انتظارنا ؟

— لا ادري ، ولكن ليس هذا بذي بال ، لانه ليس للوقت حساب في الليل

— كم منطقة امامي قبل أن اصل الى القاهرة لانني أريد أن اقسم ما معي من النقود بالتساوي على الخفراء الذين سيرافقونني ؟

— هناك منطقتان اخريان غير هذه يا سيدتي ، ولكن ليس عليك أن تعطيهم نقوداً لان من واجبهم حمايتك . أما انا فانني رجل فقير مدين بمبلغ من المال لمرابي يهودي

لما وصل الخفير معها الى آخر منطقته انتظر الاثنان نحو ساعة قبل أن يأتي الخفير الآخر ، فاعطته فرنشسكا اكثر من ثلث نقودها وشكرته بعبارات رقيقة وشكرت الله في قلبها ثم سارت مع الخفير الثاني ولكنها سمعت بعد قليل صفيراً معيناً ، فقال الخفير

— هذه عصابة . يجب أن اختفي حتى يسيروا في طريقهم وخير لك ان تأتي معي

فسألته فرنشسكا قائلة

— اية عصابة ؟

— عصابة من اللصوص . انهم يعطون هذه الاشارة لكي افسح لهم الطريق فلا يمسوني باذى .

فقالت فرنشسكا بصوت خافت مضطرب

— آه يا الهي . هل يسلبون الناس ؟

— هذا لا يهمني . انهم يحسنون معاملتي

— ما هي مهمتك اذن ؟

— اقضي ليالي بعيداً عن فراشي لاتناول مرتب الحكومة واساعد الناس الذين يقعون في الضيق مثلك

اختفت فرنشسكا مع الخفير في بناء خرب الى ان أبتعد اللصوص بما كان معهم من الاسلاب ، واذ ذاك سمع الخفير صفيراً آخر فخرج من مكمنه مع الفتاة وسار بها الى طرف المنطقة الثالثة والاخيرة من الطريق ، وهناك انتظرا ايضاً الى أن وصل الخفير الثالث ، وكان اعلى رتبة من الخفيرين السابقين ، فسارت الفتاة معه فرأت بعد قليل منازل حقيرة من الطوب الاخضر تشبه منازل الارياف ثم تلتها منازل اخرى من طبقتين الى أن وصلت الى مسجد الظاهر ، وهو مسجد عتيق طويل ، خيل اليها أن لا نهاية لاسواره وهي سائرة بجانب الخفير في الظلام ، الى أن وصلت الى شوارع واسعة مضاءة بانوار ضئيلة ، ثم الى شارع كلوت بك ومنه الى الطريق الممتد حول الازبكية الى أن وصلت الى منزلها فأعطت الخفير ما تبقى معها من النقود ثم ايقظت البواب الذى وضع عنجريه على الباب فافسح الرجل لها الطريق دون أن يكترث لمعرفتها . على انها طلبت اليه أن ينير لها السلم لكي يرى مع من جاءت ، فاشعل البواب عوداً من الكبريت واضاء مصباحاً صغيراً من الزيت ثم فرك عينيه وقال

— آه . هذا انت يا ست ؟

ثم لاحظ ثيابها المعفرة فصاح قائلا

— ماذا أصابك يا سيدتي ؟

— في وسع هذا الرجل أن يخبرك . يجب أن اكتب اسمه لكي أكافئه على قيامه بواجبه خير قيام

أبرقت عينا الخفير عند سماع هـذا القول . ولم تكن الفتاة تدري ما قد يحدث في المستقبل ، ولكنها رأت أنها تستطيع بمعرفة هذا الرجل أن تعرف الخفيرين الاخرين لتبرهن على أنها لم تكن مع انجيلو

صعدت فرنشسكا الى شقتها ففتحتها بمفتاح كانت تحمله معها ثم دخلت وأيقظت امها . ولم يكن الفجر قد طلع بعد فاضطربت انوسنزا ، بالرغم من التجارب التي تحملتها في الخرطوم وام درمان ، وانزعجت عندما رأت ابنتها تعود اليها في ساعة متأخرة من الليل ، معفرة الثياب ونعلها من سيور

وكانت فرنشسكا تريد الذهاب الى فراشها لكي تكفي أمها ما يصيبها من الأرق والقلق والآلام ، ولكنها رأت أن واجبها يقضي عليها أن تحرص على اسم زوجها فارادت أن تشهد امها على ما أصابها فقالت بصراحة

— ذهبت مع انجيلو كما تعلمين الى المطرية بعد ظهر اليوم . وقد أمر الحوذي بالعودة قائلا إن في وسعنا الحصول على عربة

أخرى متى شئنا بسهولة . وكان يعرف أن هذا مستحيل او دبر دسيسة ليجعل العثور على عربة مستحيلا لكي يكرهني على المبيت معه في الفندق . وقد تمشينا معاً في كشك الحديقة ولما أخذ الندى يتساقط دخلنا الى غرفة خاصة ، لأن صاحب الفندق قال كذباً إنه ليس هناك غرفة عامة ، وبعد العشاء خرج انجيلو ثم عاد وقال إنه لم يعثر على عربة ،وأخيراً عرض على ما يقترحه الصقلي على فتاة تقع تحت رحمته . ولـكن شكراً لله

فشكرت انوسنزا الله في قلبها عندما رأت أن ابنتها ثابت الى رشدها . على انها لم تبح بما جال في خاطرها ثم تجاهلت اخلاق الشاب وما تعرفه عنه من النذالة والخيانة ، فسالت ابنتها قائلة

— هل انجيلو خير من غيره من الرجال ؟

— انه وغد لئيم يا اماه ، بل هو خائن مرائي لأنه لا بد أن يكون قد دبر هذه الدسيسة من قبل !

وكانت انوسنزا لا تزال تخفي عواطفها فقالت

— وكيف استطعت الهرب ؟

فقصت فرنشسكا عليها ما اصابها ، ولما أدركت المرأة الاخطار التي تجشمتها فتاة جميلة مثل ابنتها ، لا تستطيع الدفاع عن نفسها لكي تفلت من الفخ الذي نصبه لهـا صيادها ، توترت عضلات وجهها وقالت بغيظ

— يا له من وغد لئيم . لو كان لديك من يستطيع حمايتك بعدي لذهبت اليه وقتلته رمياً بالرصاص مثل الكلاب ، ولكن اذا اقدمت على هذا العمل قبض عليَّ وطالت قضيتي شهوراً وليس هناك من يحميك

— لا تدنسي يديك بدمه يا اماه . لن اراه بعد الآن . ولعمري سررت بهذا الحادث الذي فتح عيني ودلني على نذالته

— ليس في وسعك ان تحجبى عينيك عنه اذا التقيت به في الطريق ، ولكن هل تعدينني أن لا تتفقي معه على مقابلتك مرة اخرى ، وأن لا تراسليه ثانية ، وأن لا تفكري به ؟

— نعم اعدك بذلك ، ولكن قد لا استطيع أن ابعده عن افكاري . انني امقته مقتاً شديداً

فقالت الدونا انوسنزا

— لك أن تبقيه في افكارك لتمقتيه . والآن قبليني واهرعي الى فراشك ونامي ملء جفنيك

لم تكد فرنشسكا تجتاز عتبة الباب حتى نادتها انوسنزا قائلة

— ماذا اقول لذاك الوحش عند قدومه لانه سيأتي في الصباح ليسأل عما أصابك وليخبرني كذباً انه اصابك حادث ما ؟

— اقنعيه من اقواله وقولي انني لن التقي به بعد الان

كان انجيلو قد تأهب للظروف . ولم يكن هذا الحادث

بالشيء الجديد لديه فانتظرها نصف ساعة حتى يزيل وساوسها ولما لم يسمعها تلوي المفتاح في قفل الباب ، التف حول الفندق الى الباب الاخر ، وكان يعرفه من قبل ، فوجد أن الطائر قد أفلت ، ومع ذلك كان متأهباً لهذا الحادث أيضاً وزعم أنها ستتقهقر بلا مراء وتصير له عاجلاً او آجلاً ، وعلى ذلك ذهب الى فراشه مطمئناً ولما استيقظ من نومه في الصباح تناول طعام الفطور ثم استأجر حماراً عاد به الى القاهرة وقت الظهر

استيقظت فرنشسكا من نومها حول الظهر ، وبعد الغداء استأجرت عربة وذهبت مع امها الى الاهرامات وهي تقول في نفسها انها ستكون أقرب الى لامبرت، ورمال الصحراء تحت قدميها ، وعولت على أن تقدم في قلبها ذبيحة الندم بعد ظهر هذا اليوم الذي لا تمحى ذكراه . على أنها لم تدع هذه الافكار تؤثر في نفسها اثناء ركوبها العربة لأن قلبها كان يطفح ابتهاجاً وسروراً . ولا عجب فقد أطلق قلبها الآن من عقاله وصار حراً لعبادة زوجها

وكان الهواء يهب من ناحية الشمال فيلطف حرارة الشمس، فلما وصلت فرنشسكا وأمها الى الاهرامات جلستا في البقعة عينها التي تناولتا العشاء تلك الليلة مع لامبرت، واخيراً ركبتا العربة وعادتا وقد انتعشت فيها نفساهما بهواء الصحراء — الصحراء التي تربطهما بالزوج والاب

أخذت انوسنزا تهيء طعام العشاء بعد عودتهما الى المنزل ، على حين تجملت فرنشسكا وتزينت كما لو كان لامبرت معها ، ثم جلست تفكر الى أن فرغت امها من اعداد العشاء فجلستا تتناولان طعامهما بابتهاج مفرط وفرح زائد لم تشعر به احداهما منذ عودتهما الى القاهرة . ولا عجب فقد كانت فرنشسكا تشعر بانقباض وكآبة كلما ذكرت إعراض انجيلو عن زواجها وتمسك لامبرت بها وفوزه في النهاية عند ما اهانها انجيلو برفضه اياها ، ثم السنين الاربع التي قضتها في الزواج الفاتر مع لامبرت . أما الليلة فقد خلعت ثوب الطيش والجهل ونبذته جانباً وصارت مرة اخرى فرنشسكا الاولى التي اسرت قلوب جميع من كانوا يترددون على المطعم ، الا رجلاً واحداً هو الكبتن الطويل الذي صار الان سردار الجيش المصري في محاربة الدراويش

جلست فرنشسكا بعد العشاء تكتب خطاباً الى زوجها علاوة على رسالتها الاسبوعية التي كانت تكتبها كل يوم احد

الفصل الخامس والثلاثون

كتاب غرامي

« عزيز لامبرت — فأل حسن جميل ! صارت زوجتك لك وطوع يديك ، فقد زالت الغشاوة عن عيني فصرت الان عابدتك — انت — انت — انت دون سواك . سأعد الدقائق الى أن تعود اليّ ، ولن اعرف معنى الكآبة والانقباض لحظة واحدة في حياتي متى عدت اليّ . اتوسل اليك ان لا تخاطر بحياتك في القتال يا لامبرت لان زوجتك في حاجة قاسية اليك

« لا اطلب اليك أن تبتعد عن الاخطار لانني اعرف انك ستكون دائماً في اخطر بقعة اذا استطعت الوصول اليها ، ولكن لي أن اضرع واتوسل الى سان جورج ، قديس الحرب ، أن يلقي دائماً درعه امامك لكي تقي قلبي وقلبك من رماح « البجارة » . ان قلب زوجتك ليذوب اشفاقاً عليك من الاخطار التي تستهدف لها ومع ذلك لا اريد أن تكون أقل جشعاً مما انت في تجشم الاخطار والاهوال لان اعظم شيء في نظري أي لامبرت حبيبي ، هو أن اكون زوجة جندي شجاع لا يقل شجاعة وإقداماً عن

جنود صقليا القدماء الذين طهروا أوطانهم من ادران الاجنبي فصاروا احدوثة بين من خلفوهم من مواطنيهم . ما أحلى الزواج برجل شجاع يا لامبرت ، وما أجمل ان يرفع الانسان رأسه عالياً اينما ذهب عند ما يسمح قائدكم لضباطه بأن يرافقوا زوجاتهم في ساحة القتال كما يفعل الجنود الزنوج في الحرب . في وسعي أن التحق بك الآن اذا سمح لي ، فاشاطرك الزحف الى ساحات القتال خطوة خطوة . لا تظن أن التي قطعت خمسمائة ميل من الصحراء في ثمانية أيام ، لا تقتات الا على الخبز والماء ، وخوف البحارة يكاد يسحق قلوبنا كلما وقعت أعيننا على جمل سائر — لا تظن أن امرأة كهذه تخشى الحرب وهي الى جانب زوجها وسط جنود الارطة الحادية عشرة الابطال ، اوتهاب لقاء الأعداء

« اواه يا لامبرت ، لقد أغضبتك . لم أعطك قلبي كما كان يجدر بي ، لا لأنني لم أرد ذلك ، بل لأنني لم استطعه

« أما الآن ففي استطاعتي أن أهبك قلبي بأجمعه

«لقد جاءتني الرؤيا كما جاءت بولس الرسول وارتدّ اليّ بصري فأصبحت بصيرة . سأوفي جميع ما عليّ من ديون حبك اذا التقينا يا لامبرت . اطلب ربا دينك عليّ ، أي معبودي ، واجعلني أدفع لك ما تريد جزاء هجري لك كل هذه المدة الطويلة

« اواه ، كم أهواك يا لامبرت ! »

« والآن أرسل اليك لواعج غرامي بقدر رمال السودان التي أعرفها جيداً ، وسأكون لك ما دمت زوجتك العابدة

فرنشسكا

الازبكية القاهرة : ابريل — ١٨٩٦

* * *

لم تحدث وقائع تستحق الذكر في الأيام الأولى من تلك الحرب العظيمة ، فلم يجد ضباط الجيش اعمالا ذات شأن يقومون بها وهم في « ساراس » التي ليست الا قرية صغيرة عند طرف السكة الحديدية . ولم تكن هناك فرصة للاشتباك مع الدراويش بعد أن ارسلت أورطة من الجيش الى المراكز الأمامية في « عكاشة » لتتحين الفرص للقيام بعمل من هـذا القبيل . وقد شعر لامبرت بوطأة هذا الخمول أكثر من غيره من الضباط الآخرين . ولا عجب فقد كان عليه أن يطرد عنه الاشباح المخيفة التي كانت تقلقه دائماً بسبب سفره ومغادرة فرنشسكا قبل أن يستحوذ على فؤادها ، ولذا أخذ يكثر من التذمر والسخط حتى ملّ ضابطه الكولونيل جورج ترسبي إلحاحه وانتقاداته التي كان يبوح بها علانية قائلا

— افتحوا البلاد أولا ثم مدوا ما شئتم من السكك الحديدية

والواقع تاقت نفسه الى رؤية أشعة الشمس تلمع فوق أطراف الحراب والرماح ، والى سماع دوي المدافع ورؤية بريقها ولمعانها وهي

تقذف بحممها الى الأمام أثناء زحفهم للقاء الدراويش، فقد كانت له زوجة في وسعه أن يعترف بأنها ليست زوجة، والأدهى من ذلك أنه لم يستطع أن يستميل اليه قلبها، فلا عجب اذا أراد أن تشتبك حراب العالم مع رماحها، ويصغي الى دوي القنابل التي تخرج من الانابيب الفولاذية الحديثة الضخمة

وقف لامبرت أمام خيمته في نحو الساعة التاسعة صباحاً، وهو منقبض النفس، فجاء خادمه يحمل اليه خطاباً معنوناً بخط يعرف صاحبته ففض غلافه وهو مقطب الجبين، على أنه لم يكد يتلو ثلاثة سطور منه حتى ابتسم وافعم قلبه ابتهاجاً لم يعرفه منذ وطأت قدماه رمال الصحراء

قرأ لامبرت الخطاب وعلى أثر فراغه منه هرع الى خيمة صديقه الكولونيل فوجده مشتغلا بكتابة تعليمات الى ضابط في ارطته، ولكنه وقف أمامه يرقص ويهز الخطاب في يده قائلا

— انها تحبني يا جورج !

زعم جورج ان صديقه مسه شيء من الخبل فصرف الضابط ثم جاء الى صديقه وقال

— ماذا جرى يا لامبرت ؟ هل جننت ؟ دعني أنظر الى هذه الورقة التي كادت ترسلك الى دار المجانين

ناول لامبرت الخطاب الى صديقه الذي اتخذه موضع سره، فقرأ الكولونيل الخطاب ثم مد يده في الحال الى لامبرت ووضعها في يده. وقد مكثا على هذه الحال هنيهة لا يفوهان بكلمة الى أن قال الكولونيل في النهاية بلهجة الرزانة والجد

— هذا أعظم ما تتمناه في العالم ايها الصديق لامبرت

ثم تحول من الجد الى الابتهاج والفرح، شأن الرجال الذين يحملون أرواحهم على أكفهم، وقال مازحاً

— هذا نبأ سار مثل ضرب الخليفة عبد الله او القبض على عثمان دجنه. لا تزعجنا بعد الآن. انك اليوم رجل متزوج بمعنى الكلمة. ولعمري يقضي عليك واجبك نحو زوجتك ان لا تسأل الله في صلاتك ان يهيئ لك الفرصة لجز رقبتك كما كنت تفعل

حار الضباط والجنود في معرفة السر العجيب الذي قلب أطوار لامبرت رأساً على عقب وجعله كشعلة من الارواح بعد ان كان يخشى الاشباح، ولكنهم لم يعلموا من أمره شيئاً. اما جنوده فكانوا احسن حظاً من الضباط لأنهم وجدوا بينهم خادم لامبرت فأوقفهم على السر قائلا انه تلقى « خطاباً من ابنته »

الفصل السادس والثلاثون

طرد انجيلو

ذهب انجيلو بعد ظهر اليوم التالي الى منزل فرنشسكا فاستقبلته الدونا انوسنزا منفردة وأومأت اليه برأسها أن يجلس فجلس دون ان يشعر بخجل او حياء لأنه اقدم على هذه الزيارة متأهباً للزوبعة . على ان المرأة كانت خصماً عنيداً ماكراً فانتظرت حتى يبدأ هو الحديث

انتظر انجيلو ما استطاع ، وأخيراً وجد ان حيلته لم تنفعه شيئاً فقال ببرود

— متى وصلت فرنشسكا الى المنزل ؟

— ليلة أمس

كان انجيلو يعرف هذا الجواب من قبل ، ولكنه أراد ان يعرف في أي ساعة وصلت ، فقال

— اريد في أي وقت عادت ؟

— لا بد أن تعرف ذلك . لقد زعمت انك جئت بها الى باب المنزل في مثل هذه الساعة

فتردد انجيلو قليلا ثم قال

— كلا . انها غادرتني في المطرية ، وفي الحقيقة لا أدري كيف جاءت الى المنزل

— هل تعني ان تقول انك تركتها تعود بدونك في ساعة متأخرة من الليل ؟

— لم تكن لي في ذلك حيلة ، فقد تركتني وذهبت دون ان تخبرني بشيء

— يا للعجب ! ولكن لماذا فعلت ذلك إذا كنت قد استأجرت عربة لتذهب بكما الى هناك ثم تنتظركما لتعود بكما ؟

— كلا . لم تكن العربة هناك . ان الرجل الغبي . . . لقد أمرت الحوذي الجهالتي ان يعود ولم استطع بعدها الحصول على عربة أخرى

— ولكن العودة بدون عربة أعظم مشقة . ومن الخطر عليها جداً ان تعود منفردة . فهل أخبرتها بذلك ؟

— نعم فعلت . فقد اخبرتها ان من الخطر عليها وعليّ معاً ان نحاول العودة

— اذن لماذا فعلت ذلك ؟

فهز الشاب كتفيه وردد قولها قائلاً

— لماذا ؟

— اريد ان القي عليك سؤالاً دقيقاً وهو : ألم يكن في سلوكك معها شيء جعلها تستخف بخطر اللصوص الذين قد يلتقون بها في الطريق ؟

— أؤكد لك انني لم افعل بها شيئاً مطلقاً ولم احاول حتى تقبيلها

— اذن لماذا أغلقت باب غرفتها بالمفتاح وفرت من باب آخر ؟

— من اين لي معرفة السبب ؟ لم اكترث بعملها وسيان عندي اغلقت بابها او تركته مفتوحاً

— انجيلو . انك كذاب . انك تعرف ان السبب الذي لأجله اغلقت الباب في وجهك ثم فرت منك وهو ما عرضته عليها مدفوعاً بنذالتك وانت تعلم انها زوجة ضابط انجليزي

فضحك انجيلو ضحكة باردة ، فقالت انوسنزا

— كان في وسعك ان تتخذها زوجة لك لولا جبنك . وقد هربت من وجهك مخافة ان تنال منها بالقوة ما لم تستطع ان تناله برضاها . كان في وسع كل رجل جبان غيرك ان يعرض عليها العودة معها بعد ان علمت ان حيلة العربة لم تنفع في ارغامها على المبيت معك في الفندق

— ليس ثمة ما يدعوني الى المخاطرة بحياتي لكي اساعدها على تنفيذ غاية ضد غرضي ورغبتي . ان الطريق خطر بصرف النظر عن افلاتها من أيدي اللصوص

— اذا كان الطريق خطراً عليك فكم بالحري يكون خطراً عليها

— صحيح ، ولكن ترين انها ارادت العودة وانا لا أريدها

— يالك من نذل جبان كذاب ، انني اعرف كل شيء وانما اردت أن اعطيك الفرصة للدفاع عن نفسك . الان غادر هذا المكان ولا تعد اليه ثانية ، واذا حاولت مضايقة فرنشسكا في الطريق، فاعلم ان الموت يكون نصيبك . اذهب ايها الكلب السافل

فقال انجيلو

— وانا اقول لك انني ذاهب الى حيث لا يستطيع رجالك الوصول اليّ . سأذهب الى المعسكر الانجليزي فلا تستطيعين الوصول اليّ، ولكنني استطيع الوصول الى زوج ابنتك الجميل، وسأذهب متنكراً اليه فلا يعرفني ، وسيقتل هو مثل الكلب لا انا

ثم ضحك ضحكة ممقوتة وغادر المنزل

الفصل السابع والثلاثون

فرنشسكا في ميدان القتال

صاحت انوسنزا على اثر خروج انجيلو قائلة

— فرنشسكا . فرنشسكا . تعالى . اسرعي

ثم قصّت عليها مادار بينها وبين انجيلو من الحديث، فقالت الفتاة

— والان ماالعمل ياماه ؟

— ليس ثمة وقت يمكن تضييعه . لقد اصدرت جمعية «المافيا» منذ اثني عشر عاما امراً باعدامه اذا تعرض للامبرت فيجب أن تستصدر منها حكما جديدا باعدامه قبل مغادرة المدينة لمحاولته نقض أوامرها . اذا نفذ انجيلو وعيده في الحال ضاع الوقت ولكن ربما ظن اننا لا نعجل بالعمل أو ربما أضاع الوقت ... مع خليلة ... أو ... اعطني شالي ياعزيزتي

أدركت فرنشسكا أن والدتها تريد أن تتنكر حسب عادة الصقليات ، فجاءتها بشال اسود من الكشمير لفته المرأة حول رأسها ومنكبيها ثم غادرت المنزل متنكرة على هذه الحال واستقلت عربة أمرت

سائقها ان يجد السير دون أن تخبره الى المكان الذي تقصده ، ولكنها كانت ترشده الى الطريق بمروحتها

وصلت انوسنزا بعد بضع دقائق الى منزل مؤلف من طبقتين في الحي المعروف «بصقليا الصغيرة» في جوار حانوت اسكافي فنزلت لتسأل الرجل عن حذاء ابيض ولكنها اشارت اليه اشارة خاصة فقال الرجل

— اذا دخلت هذا المنزل وجدت زوجتي فتهتم بأمرك لانني مشغول جداً

دخلت انوسنزا المنزل واغلقت الباب خلفها ، فلم تجد زوجة الاسكافي ولكنها وجدت الشيخ بيبينو الذي تعوّد الجلوس على باب مطعم الدون زارو فاخبرته بقصة انجيلو فوعدها باتخاذ التدابير اللازمة في الحال ليصدر اليه أمر الجمعية بعدم مغادرة القاهرة وانذاره بالقتل اذا خالف الامر ، ثم اوصاها أن ترسل خطابا الى لامبرت تحذره من الشاب مخافة ان يكون الوقت قد فات

عادت الدونا انوسنزا بعد ذلك الى الاسكافي وقالت

— اخبرتني زوجتك أن ليس لديها الحذاء الذي أريده

لم يحاول الرجل أن يعرض عليها احذية اخرى لان هذا القول كان اصطلاحا بين اعضاء جمعية المافيا

كتبت فرنشسكا تلك الليلة خطابا آخر الى لامبرت يشف

عن الحب العظيم ايضاً ، حذرته فيه من انجيلو واخبرته بما يضمره له من الشر . فلما تلقى لامبرت هذا الخطاب عجب فى نفسه وقال لماذا لم ترسل اليه صورته حتى تسهل مراقبته . ولكنه استدعي جاويشاً من الجنود السودانية واخبره ان رجلا سيأتي لمحاولة اغتياله ، وان هذا الرجل سيكون متنكرا بلا ريب ، فعاد الجاويش وأوصى جنوده بتشديد المراقبة وعدم السماح لاحد من الاجانب بالاقتراب من البكباشي

***

تقوم حياة الصقلي على دس الدسائس والتنكر والمخاطرة . وقد وجدت فرنشسكا الان انها لا تطيق الحياة مع امها في القاهرة على حين ان زوجها وعاشقها المخذول يمثلان دورهما بعيداً عنها على ضفاف النيل . ولم تكن قد تحققت بعد ان انجيلو سافر فعلا لتنفيذ ماتوعد به حتي تستطيع ان تضع خطتها للعمل، على انها لم تجد مشقة في الوصول الى هذه الغاية فكتبت الى انجيلو في مكان عمله تدعوه الى مقابلتها فمرت بضعة ايام لم تسمع عنه في خلالها شيئاً، واخيراً تلقت منه رسالة برقية من حلفا قال فيها

— لا استطيع ان اترك لا مبرت

تحققت فرنشسكا اذ ذاك ان انجيلو نفذ الخطوة الاولى من وعيده ، فلم تتردد لحظة وذهبت الى رجل يوناني يشتغل بأرسال المؤن

الى الجيش بواسطة ابن له في المعسكر يستخدم كثيرا من العرب . وكان الرجل اليوناني متزوجا من سيدة صقلية تعرف سر زواج فرنشسكا بلامبرت ، فاخبرته الفتاة انها لا تطيق البعاد عن زوجها الذي ينتظران يقضي اعواما طويلة على ضفاف النيل بعيداً عنها ، وانها تريد ان تلتحق بخدمة ابنه ، متنكرة في زى صبي اعرابي .

فأجابها الرجل قائلا

— لا استطيع بالطبع أن اجيب سؤالك هـذا ما لم اقتنع تماماً بانك تستطيعين التنكر بحذق ومهارة

فقالت الفتاة

— سأفعل ذلك ياسنيور رودوكاناكي

حدث بعد ظهر اليوم نفسه ، أن كان عمانوئيل رودوكاناكي في فراشه يستريح بعد الغداء ، فجاء صبي اعرابي يسأل عنه ، فاخبره الاعرابي الذي يشتغل بشحن البضائع انه لا يأتى قبل ساعة ،

فقال الصبي

— حسن . ولكن هل لي أن انتظر حتى يعود ؟ لقد جئت احمل اليه رسالة من منزل الدونا انوسنزا

جلس الصبي ولم يلبث ان خاض في الحديث مع جماعة الاعراب الذين كانوا يشتغلون بتهيئة الصناديق لارسالها الي حلفا ، الى ان عاد عمانوئيل رودوكاناكي ، فقيل له أن صبياً ينتظره فقال

— من ابن ؟

— من منزل اتوسنزا

— هل جاء معه برسالة ؟

— كلا . ولكنه قال انه يريد ان يبلغك رسالة على انفراد

أمر الرجل بادخال الصبي ، فشاهد فتى عربيا وديعاً يحييه حسب عادة العرب و يسأله هل يسمع حديثهما أحد حتى يبلغه رسالته . فلما صرح اليوناني للصبي بالكلام تبين انه تلقى الرسالة بالاهمال المعروف عن العرب وانه نسي شيئاً كثيراً منها ولكنها كانت تتعلق بشيء قالت الدونا فرنشسكا من قبل انها ستفعله ولكنها الآن لا تستطيع عمله ، ثم اعتذر الصبي قائلا انه نسي الموضوع بالضبط

ايقن الرجل اليوناني ان الصبي مخطيء بلا مراء لان فرنشسكا كانت منهمكة في تنفيذ مهمتها ، فغضب لغباوة الصبي وأمره بغلظة أن يذهب و يبلغ الدونا فرنشسكا أن تأتي بنفسها ، ثم خرج الى الغرفة التي كانوا يهيئون فيها البضائع للشحن فأخبر رئيس الاعراب عن غباوة الصبي الذي جاءه ، فقال الاعراب انهم بالعكس آنسوا منه مهارة وذكاء ، وانه ساعدهم كثيرا في تهيئة الصناديق واعدادها للشحن

جاءت فرنشسكا نفسها بعد ساعة بملاحتها الفتانة ، فابتدرها رودوناكي قائلا

— لماذا ارسلت صبيا غبيا مثل هذا ؟

— لكي احاول خداعك . فقد كنت أنا ذاك الصبي

— هل كنت ذاك الصبي ؟

— نعم ، هل نسيت انني قضيت سبع سنوات في ام درمان وأن الصقلي ماهر في التقليد مثل القردة ؟

— حسن اذا كنت قد قضيت ساعة بين رجالي دون أن يرتابوا في قوميتك أو جنسيتك النسائية ، فانني اسمح لك بالسفر عن طيب خاطر

وهكذا وجدت فرنشسكا اليفانت ، نفسها في المعسكر الامامي لحملة السودان في قرية « عكاشة » في شهر ابريل سنة ١٨٩٦

كان اسكندر رودوناكي من طراز اليونانيين المخاطرين الذين ساعدوا الجيش المصري وسهلوا مهمة زحفة في مقاتلة الخليفة . وكان مثل غيره من اليونانيين في ذاك العهد ، يلبس بذلة أوروبية عادية وطربوشا . وقد استهدف غير مرة لغارات الدراويش ولكنه واصل القيام بمهمته دون أن يعبأ بشيء . وكانت له غاية فوق جميع غاياته الاخرى وهي ان يكون دائما برفقة القوة الامامية التي كانت تشمل عادة الاورطة الحادية عشرة السودانية التي كان فيها لامبرت اليفانت ضابطا برتبة بكباشي . وعلى ذلك لم يجد الفتى الاعرابي حسين — وهو الاسم الذي تنكرت به فرنشسكا — مشقة في الذهاب الى حيث تستطيع مراقبة انجيلو اذا جاء لاغتيال زوجها

— لكي احاول خداعك . فقد كنت أنا ذاك الصبي

— هل كنت ذاك الصبي ؟

— نعم ، هل نسيت انني قضيت سبع سنوات في ام درمان وأن الصقلى ماهر في التقليد مثل القردة ؟

— حسن اذا كنت قد قضيت ساعة بين رجالي دون أن يرتابوا في قوميتك أو جنسيتك النسائية ، فانني اسمح لك بالسفر عن طيب خاطر

وهكذا وجدت فرنشسكا اليفانت ، نفسها في المعسكر الامامي لحملة السودان في قرية « عكاشة » في شهر ابريل سنة ١٨٩٦

كان اسكندر رودوناكي من طراز اليونانيين المخاطرين الذين ساعدوا الجيش المصري وسهلوا مهمة زحفه في مقاتلة الخليفة . وكان مثل غيره من اليونانيين في ذاك العهد ، يلبس بذلة أوروبية عادية وطربوشا . وقد استهدف غير مرة لغارات الدراويش ولكنه واصل القيام بمهمته دون أن يعبأ بشيء . وكانت له غاية فوق جميع غاياته الاخرى وهي ان يكون دائما برفقة القوة الامامية التي كانت تشمل عادة الاورطة الحادية عشرة السودانية التي كان فيها لابرت اليفانت ضابطا برتبة بكباشي . وعلى ذلك لم يجد الفتي الاعرابي حسين — وهو الاسم الذي تنكرت به فرنشسكا — مشقة في الذهاب الى حيث تستطيع مراقبة انجيلو اذا جاء لاغتيال زوجها

وكان اسكندر واقفا على سر الفتاة ومن المعجبين بها ، يعبدها في قلبه ، فاستخدمها اثناء النهار في مكتبه ولم يأذن لاحد بالدخول عليها بدون اذن . ولما كان العرب يلفون رؤسهم دائما لوقايتها سواء من الحر أو البرد ، فقد استطاعت فرنشسكا أن تخفي وجهها بسهولة دون ان تثير شكوك احد

لم يكن انجيلو قد وصل بعد ، وعلى ذلك قضت الفتاة يومها في مراقبته . وكانت وظيفتها الاسمية مراقبة الاعمال مراقبة عامة وتدوين البضائع التي تصرف في دفتر عام ، فكانت تستطيع والحالة هذه التنقل أو الجلوس مدة طويلة كما تريد

كانت قرية « عكاشة » تبدو كأنها نهاية كل شيء ، فكان بها طرف السكة الحديدية التي دمرها الدراويش بعد ارتداد القوة التي ارسلت لامداد غردون . وقد اصلح الجنود الحصن القديم والمخازن التي كانت تستخدمها التجريدة الاخيرة ، فنزلت فرنشسكا في احد هذه المخازن . وكانت القرية ضعيفة بموقعها بحيث لو كان الدراويش في « فركة » بقيادة رجل مثل عثمان دجنة ، لدفع المصريون ثمنا كبيرا للاستيلاء عليها لانها كانت محاطة بتلال مدرجة ، والارض الواقعة بين هذه التلال والحصن وعرة ، تتسلط عليها صخور مرتفعة لا يمكن تسلقها تقريبا ، وتتخللها طرق خفية يستطيع العدو التسرب منها

وكانت مهمات الجيش ترسل من حلفا بطريق الصحراء أو

وكان اسكندر واقفا على سر الفتاة ومن المعجبين بها ، يعبدها في قلبه ، فاستخدمها اثناء النهار في مكتبه ولم يأذن لاحد بالدخول عليها بدون اذن . ولما كان العرب يلفون رؤسهم دائما لوقايتها سواء من الحر أو البرد ، فقد استطاعت فرنشسكا أن تخفي وجهها بسهولة دون ان تثير شكوك احد

لم يكن انجيلو قد وصل بعد ، وعلى ذلك قضت الفتاة يومها في مراقبته . وكانت وظيفتها الاسمية مراقبة الاعمال مراقبة عامة وتدوين البضائع التي تصرف في دفتر عام ، فكانت تستطيع والحالة هذه التنقل أو الجلوس مدة طويلة كما تريد

كانت قرية « عكاشة » تبدو كأنها نهاية كل شيء ، فكان بها طرف السكة الحديدية التي دمرها الدراويش بعد ارتداد القوة التي ارسلت لامداد غردون . وقد اصلح الجنود الحصن القديم والمخازن التي كانت تستخدمها التجريدة الاخيرة ، فنزلت فرنشسكا في احد هذه المخازن . وكانت القرية ضعيفة بموقعها بحيث لو كان الدراويش في « فركة » بقيادة رجل مثل عثمان دجنة ، لدفع المصريون ثمنا كبيراً للاستيلاء عليها لانها كانت محاطة بتلال مدرجة ، والارض الواقعة بين هذه التلال والحصن وعرة ، تتسلط عليها صخور مرتفعة لا يمكن تسلقها تقريبا ، وتتخللها طرق خفية يستطيع العدو التسرب منها

وكانت مهمات الجيش ترسل من حلفا بطريق الصحراء أو

وجده جيداً سمح لانجيلو بمقابلته . وقد وقع اختيار الصقلي على البارود لأنه كان يعلم من جهة ان الخليفة في حاجة شديدة اليه ومن جهة اخرى وجد أنه أخف انواع الذخائر التي يستطيع تهريبها

لما دخل انجيلو على الخليفة لم يجد معه أحداً غير أخيه يعقوب . وكان الخليفة أكثر دهاء من المهدي فأراد أن يستخدم كل اداة تقع في يده لمحاربة اعدائه . فلما جاء انجيلو مع احد غلمانه الاربعة والعشرين — وهم من الفتيان الاحباش الذين كان يستخدمهم الخليفة في قضاء مهماته — أشار اليه الخليفة ان يجلس على الارض فجلس مطرقاً كما أوصاه الجلابة بذلك من قبل

أخيراً حيي الخليفة انجيلو ، ثم قال

— لست اعرابيا ولكنك رجل من البيض

لم يجرأ انجيلو على اخفاء هذه الحقيقة فقال

— انك يامولاي الرجل الوحيد الذي اكتشف هذه الحقيقة ، لك عين ثاقبة تخترق كل ستار فلا فائدة من محاولة خداعك

وكان الخليفة يحب التملق في كل وقت ، خصوصا ما يتعلق منه بحذقه وفراسته ، وعلى ذلك قال

— من المستحيل ان يخدعني أحد

— ولكن كيف اكتشفت سري يامولاي ؟ ألا ترى انني اجيد التكلم بالعربية

فقال الخليفة

— نعم تحسن التكلم بها ، ولكن اذا كنت تريد ان يظن الناس انك من عرب السودان فلا تبتسم كثيراً مادمت تغسل اسنانك بالفرشة لا بالسواك

حفظ انجيلو هذه الملاحظة في عقله جيداً وعول على ان يتجنب الضحك ما استطاع

سأله الخليفة بعد ذلك قائلا

—لماذا اتيت الي مع انك رجل ابيض؟ لم يأت الى عاصمة بلادي رجل ابيض ثم عاد منها الا هاربا مخاطراً بحياته

— انك لا تبقيني يا مولاي حيث لا فائدة تجنيها مني . قد يكون لديك جواسيس بقدر مالديك من الجنود في جيشك ولكن اذا لم يكن بينهم احد من البيض فانه لا يحسب لهم حساب . فمن اين تعرف مثلا عدد الجنود الذين يقودهم القائد الانكليزي ؟

أراد الخليفة ان يكون اكثر حذراً فلم يعبأ بقوله هذا وسأله قائلا

— لماذا اتيت ؟

لأعرض عليك خدمتي ضد الانكليز

— ومن اين لي أن أعرف انك لست جاسوساً للانكليز ؟

— هذا أمر هين يامولاي . انني جاسوس وقد اردت ان اعطيك معلومات عن حركاتهم

— ولكن كيف تحصل على هذه المعلومات ؟

— انهم يزعمون انني خادم احد رجالي الذين يتعهدون بتوريد المؤن الى الجيش .

— وماذا تحمل الي من الاخبار الآن ؟

— جئت لاقول لك انهم غير مازحين في حركتهم هذه . فقد وصلوا في زحفهم الى « عكاشة » وسيزحفون على دنقله عما قريب

— كم عدد جنودهم هناك ؟

— نصف لواء من المصريين في عكاشة ولواء منهم في « سرس » وستصل بعض الجنود الانكليزية الى وادي حلفا

— من يتولي قيادتهم ؟

—السردار. وهو الان في حلفا ولكنه سيذهب الى عكاشه عند ما تتأهب الحملة للزحف .

نظر الخليفة الى يعقوب . فهز رأسه كما لو أراد ان يقول ان هذه الاقوال تعزز الانباء التي وصلتهم ولكنها أوفى

قال الخليفة

— وماذا تريد مقابل هذه المعلومات ؟

— اريد الانتقام . فقد اهانني الانكليز وسلبوا مني فتاة

ارسل الخليفة في طلب امين بيت المال وأمره أن يعطي انجيلو صرة من الريالات الفضية ثمنا للبارود ، ثم أمر الحراس أن يأتوا اليه

بانجيلو كلما جاء الى ام درمان . واخيرا سأل الخليفة الشاب عن موعد سفره فلما علم منه ان الابل لاتستطيع السفر قبل مساء اليوم التالي امر بارساله الى السجن لغرضين: الاول ان يكون انجيلو في مكان مأمون والثانى أن يكون تحت تصرفه في كل وقت الى أن يغادر المدينة

لما وصل انجيلو الى السجن وضعه ادريس في السلاسل، فاستسلم الشاب لما اصابه وأذعن لوضع القيود في قدميه ولو انه قام بمثل هذه الخدمة الجليلة للخليفة . وقد اضطر الشاب الى الخضوع لانه لم يجد فائدة في مقاومة ادريس ولانه رأي الدون زارو معه في السجن فخشي أن يعرفه ويفشي سره بالرغم من اخفاء وجهه . وكان انجيلو يعرف نتيجة افتضاح امره ولذا التصق لسانه بحلقه ولم يفه بكلمة

وكان الخليفة تلقى انباء اقلقته، وهي أن فصيلة من الجنود السودانية لايتجاوز عددها سبعمائة جندي اجتازت الصحراء من سواكن الى النيل دون أن تجرأ عصابة واحدة من عصابات عثمان دجنة على مقاومتها ، فأراد ان يجرب انجيلو في هذه المسألة فاستدعاه من السجن عند منتصف الليل وأمره أن يتحرى حقيقة الامر

نصح انجيلو الخليفة عند انصرافه أن يرسل رجاله لاغتيال السردار قائلا انه لا يكترث بسلامته الشخصية ولكن الخليفة رفض ذلك مدفوعا بعامل الغرور والغطرسة قائلا

— كلا . لانني أريد أن آخذه حيا

الفصل الثامن والثلاثون

زارو يحاول الهرب

لم يبد شيء يدل على مهارة الخليفة عبد الله بصفته حاكما شرقيا مستبداً ، اللهم الا الطريقة التي تغلب بها على دسائس الخونة الذين كانوا يحيطون به . ولم يكن في ممتلكاته كلها من يستطيع الاعتماد عليه غير اخيه يعقوب وابنه عثمان والسجان ادريس والبجارة . على أن الناس كانوا يهابونه بعد سقوط الاشراف فتحولوا عن دس الدسائس لاسقاطه وشرعوا يدبرون وسيلة لخلاصهم . نعم لا يستطيع الاعرابي أن يمسك لسانه عن التحدث بالخيانة ولكنه بطيء في تحويلها من حيز الفكر الى حيز العمل

وكان الدون زارو يعرف هذه الحقائق جيدا ، ويعرف كيف يدس الدسائس بمهارة وحذق . وقد عرف الخليفة عنه هذه الحقيقة فأراد أن يضعه رئيسا للبوليس ، ولكن الرجل فضل السجن على تضحية ارواح الابرياء . وقد اعترف له الكثيرون بهذا الفضل وسعوا لتهيئة الفرار له جزاء مروءته وحرمان الخليفة من استخدام مواهب رجل كهذا للتنكيل بالناس . غير انه لما كان من المستحيل

أن يهرب مادام في «السايرِ» مكبلا بالحديد ، فقد أخـذ اصدقاؤه يمهدون له السبيل ، فوجدوا فرصتهم هذه فيما آنسوه من قلق الخليفة من جراء زحف الجيش المصرى

وكان الخليفة عبد الله بعيد النظر ، فادخر ما كان يصله من الذخائر بطريق التهريب من الخارج استعدادا للقاء المصريين واستخدم ما يصنع في بلاده من المهمات الحربية الغير متقنة الصنع ، في حروبه الداخلية . على انه لاحظ مع كل هذا انه في حاجة الى كميات جديدة من ملح البارود ومعدن الرصاص . وكانت هناك بقعة واسعة في جوار المدينة يكثر فيها ملح البارود ولكن لم يكن لديه غير عدد قليل من رجال القبائل الذين لهم خبرة باستخراجه بطريقة غير فنية . اما معدن الرصاص فكانوا يستخرجونه من ارض الخرطوم واسوار الحصون بكثرة ، وهو الرصاص المتخلف من المعارك العديدة السابقة

وحدث ان كان هناك رجل يدعى «حمد الله» يتولى رئاسة العمال الذين يشتغلون فى مصانع ملح البارود ، فحث الخليفة على أن يرسل الدون زارو الى هذه المصانع ليشتغل بها ، ولم يكن غرض الرجل من ذلك الا اخراج الصقلي من السجن واطلاقه من قيوده الثقيلة ، فلبي الخليفة الطلب في الحال . وجاء الحراس الى الدون زارو وكسروا القيود الثلاثة الثقيلة التى تكبل رجليه ووضعوا بدلا منها قيوداً خفيفة تتصل بسلسلة قصيرة تسمح له بالمشى ولكنها تمنعه كل حركة سريعة

وقد عد الدون زارو هذا العمل الحرية بعينها ، ولا عجب فقد قضى شهوراً عديدة لا يستطيع التحرك بدون مساعد . وقـد أرسل الدون زارو اولا الى حلفايا ، على الضفة الغربية من النيل الازرق ثم ارسل بعد ذلك الى الترسانة في الخرطوم ليشتغل بها . وكان السبب في هذا الانتقال ان حمدنا الله كان يعلم ان الدون زارو لا يعرف شيئًا عن صناعة ملح البارود ، فخشي ان يبلغ الدراويش الذين لهم خبرة باستخراجه في حلفايا — الخليفة . هذه الحقيقة

مكث الدون زارو شهوراً لا يجرأ على مفاتحة اصدقائه الذين أخذوا على عاتقهم السعي لانقاذه واعداد وسائل الهرب له ، الى ان جاءه ذات يوم رجل اعرابي يدعى عبد القادر من قبيلة العبابدة . وكان معروناً بتهريب البارود ولديه إبل كثيرة . على أنه كان على اتفاق مع ولاة الامور في الجيش المصري فاعطوه كمية من البارود الغير جيد لكي يستطيع اغراء الخليفة على الدخول الى الترسانة في ام درمان ليقف على حالتها . ثم جاء معه أيضـاً بكمية من ملح البارود وادعى أنه سمع بصناعة هذه المادة في ترسانة الخرطوم ، وقال إنه يريد التطوع لاسداء نصائحه

ولما كان العرب الذين يتولون صناعة ملح البارود اصدقاء في الباطن للحكومة المصرية ، فقد بذلوا أقصى جهدهم لاقصاء عبد القادر ،

الأمر الذي زاد الخليفة إصراراً على أن يزور الرجل الترسانة . وقد أيده الدون زارو في ذلك لأنه كان واثقاً من أنه لا يوجد أعرابي واحد من العبابدة يعرف شيئاً عن صناعة البارود

دخل عبد القادر الحظيرة الكبيرة التي كان يشتغل الدون زارو بها مع كثير من العبيد ، متظاهراً بالغضب عند رؤية مثل هذه الاعمال العظيمة ، قائلا ان هذه المهارة من شأنها ان تحط من قيمة أعماله بصفته مهرباً لملح البارود ، ثم أصر على أن يرافقه الدون زارو الى المخزن الذي وضع فيه المواد المصنوعة قبل نقلها الى ام درمان . وفعلاً دخل الاعرابي الحظيرة وأمر انصقلي ان يتبعه ، ولكنه بدلا من أن ينظر الى ملح البارود المكدس على الجانبين نظر الى الباب الذي أغلقه وراءهما ثم قال همساً

— أردت أن أثق من أنه لم يدخل معنا أحد ، والان اعلم انني رسول من لدن زوجتك

فقال الدون زارو برزانة

— لست متزوجاً

— نعم لست متزوجاً هنا ، ولكنك متزوج بامرأة ايطالية في القاهرة . أما الدليل الذي أقدمه اليك برهاناً على انني رسولها فهو ان ابنتك ولدت في اليوم الذي اتمت فيه زوجتك السابعة عشرة من عمرها

— هذا صحيح ، الآن علمت أنك قادم من لدنها

— لقد كلفتني أن أخبرك أن القنصل الايطالي اتفق معي على أن أحملك على إبلي عند عودتي الى بربر

— انني مستعد لمرافقتك ، فمتى نزمع السفر ؟

— بعد ثلاثة أيام أو أربعة عند ما يعطيني الخليفة ثمن البارود وملح البارود

— ولكن كيف ألتقي بك ؟

— لم يستقر الرأي على ذلك بعد . وهذه مشكلة شاقة لان الجيش المصري يزحف الآن على الضفة الشرقية من بربر ومعه كشافة من العرب والجواسيس ، على حين يعسكر الخليفة بجيشه خارج ام درمان في الشمال مع كشافته وجواسيسه الذين نشرهم مثل خيوط العنكبوت على الضفة الغربية ، فمن المتعذر والحالة هذه الافلات منهم . وفوق ذلك من المتعذر ان تعبر النيل الازرق او النيل الابيض دون أن يراك أحد . واذا اكتشف أمرك قضى عليك لأنه لا يسمح لك بمغادرة الترسانة بدون اذن

فقال الدون زارو

— لا يتعذر عليّ عبور النهر كما تظن لانه يوجد شيخ بحار انقذت حياته مرة ، ولهذا الرجل شقيق بلحية سأتنكر في زيه .

وسأذهب الى المنزل الذي كنت اقطنه في عهد غردون ، وهناك اختفي في ممر سري الى ان يذهب الجميع الى فراشهم

— وماذا تفعل بالقيود التي في رجليك ؟ انها تفشي سرك حتى لو فرض واستطعت عبور النهر .

— سأحمل معي مطرقة الى الممر السري وهناك اكسرها

— ثم بماذا يعتذر صديقك إذا سأله أحد عن سبب عبوره النهر في الليل ؟

— انه يشتغل بصيد السمك في الليل ، لأنه يشتغل في الترسانة أثناء النهار

— هل يشتغل معك ؟

— نعم برياستي

— اذن في وسعك ان تتفق معه في سلام . هذا حسن

— ثم انت ياعبد القادر . أين تقابلني ؟

— هذا أمر متعذر ، ما لم يرسلني الخليفة للتجسس على حركات الجيش المصري

— وهل يفعل ؟

— من يدري أطوار الخليفة ؟ انها مثل الرياح . والان يجب أن أخرج مخافة ان يتحدث الناس ببقائي هنا كل هــذه المدة . املأ هذا الوعاء من ملح البارود لأحمله الى الخليفة

* * *

عاد عبد القادر في اليوم التالي وقال

— قابلت الخليفة وقد حمله بعضهم على الاعتقاد بأنني أحمل في قلبي الغيرة منك لأنك استطعت ان تصنع ملح البارود ، ولذا أرسلني برسالة الى القائد محمود على امل ان أقع في أيدي المصريين فيحكمون علي بالاعدام كمهرب للبارود

— ومتى تسافر ؟

— غداً بعد الظهر

— ولكن أين اقابلك ؟

— في حلفايا . سأذهب اليها بطريق الشاطيء الشرقي

— وأين نلتقي ؟

— توجد صخرة على شكل هرم على مسيرة ساعة من حلفايا ، لا يتردد عليها أحد . فاذا ما وصلتُ الى هذه البقعة سالقي شحنة من الصمغ على الارض يستغرق جمعها ثانية مدة طويلة ، واذ ذاك سأقرر المبيت هناك ثم نستأنف السير قبل الصباح بساعتين ، ففي وسعك ان تلتحق بنا قبل ذلك

— ولكن كيف أعرف الطريق من الشاطيء الى الصخرة في الظلام ؟

— اذهب الى الشاطيء الشرقي المقابل للطرف الجنوبي لجزيرة « توتي » بعد منتصف الليل بساعة فسأكون هناك . واذا كان كل شيء قد تم في هدوء وسلام ، ناديت البحار ان يحملني بزورقه الى الجزيرة اذا استطاع . ولكن ما اسمه ؟

— محمد علي

— ستعرف انني ذلك الشخص لانني أعرف اسمه . وبعد ذلك سيأتي البحار بك الى الشاطيء ، ولكن بدلا من ان يأخذني معه في زورقه أسير معك ونأتي معاً الى المكان الذي تنتظرنا فيه الابل

وكان الدون زارو يتلهف للوقوف على انباء جديدة عن ابنته وزوجته ، فاخبره عبد القادر انهما يعيشان معاً في صحة جيدة ، ولم يقل اكثر من ذلك . ولكن الدون زارو رأي في هذا الكفاية وان عليه ان يلزم جانب الصمت الان قائلا في نفسه أنه سيلقي على الاعرابي ما يشاء من الاسئلة بعد يوم واحد ، وانه لا يمضي اسبوع او اسبوعان حتى يعود اليهما ثانية . وعلى ذلك كبح جماح عواطفه ، على حين أبدى عبد القادر بعض ملاحظات تنم على الغيرة ثم عبر النهر الى حلفايا ليتفقد جماله

قضي الدون زارو بقية ذلك اليوم واليوم التالي كأنه في عالم اخر . ولا عجب فقد حانت اللحظة التي علل بها النفس زمناً طويلا ، وزعم انه قابل الخليفة وشقيقه يعقوب وادريس السجان لاخر مرة ،

وانه يحمل القيود في رجليه لاخر يوم ، ثم لا تنقضي أيام قليلة من حياته حتى يكون قد عاد الى احضان زوجته وابنته في مدينة القاهرة الآمنة الهادئة ، وعلى ذلك ذهب الى فراشه تلك الليلة فرحاً مطمئناً ونام على عنجريبه في دار المرسلين . ثم قضى اليوم التالي في تعطيل الآلة التي كان يستخدمها في صناعة الخرطوش ، وفي الليلة التالية ذهب الى فراشه مبكراً على أمل أن يحمل رفاقه على الذهاب الى فراشهم مبكرين كذلك . وهو لا يقصد النوم بلا ريب . وكانت رياح الشمال تهب باردة اثناء الليل ومع ذلك لم يأخذ معه غير عباءة عربية وجد نفسه مكرهاً على ارتدائها لاخفاء السلاسل التي بين رجليه

انسل الدون زارو من دار المرسلين قبل منتصف الليل بساعتين دون أن يشعر به أحد وهو يحمل الادوات التي سرقها من الترسانة لتكسير قيوده التي لفها بخرقة من القماش لكي لا تحدث صوتاً . وكان قد ذهب الى منزله القديم بضع مرات من قبل ، فاصلح الممر السري الذي حفره في الحديقة من قبل ، فلما وصل اليه كسر الحلقات الصغيرة بمطرقة ثقيلة وترك الحلقتين الكبيرتين حول قدميه . ولما حان الوقت المعين زحف من الممر السري الى شاطيء النهر بعد أن ترك السلسلة والادوات التي كسرها بها خلفه ، فوجد محمد علي ينتظره في زورقه الحقير العتيق الذي كادت المياه تغمر مؤخرته ،

ولكن كان النهر في هذا الفصل من السنة منخفضاً والتيار ضعيفاً وعلى ذلك استطاع البحار ان يذهب بزورقه الى طرف الجزيرة ثم الى المكان المعين . واتفق أن مرا بزورق من زوارق الحراس ولكن كان « الريس » يعرف محمد علي ويعرف أن له شقيقاً فسمح لهما بمواصلة السير ، ولو أنه ارتاب في أمر هذا الشقيق فيما بعد لانه لم يره يشتغل بالصيد من قبل

وكان الدون زارو يشعر بقلق شديد كل هذه المدة لانه كان واثقاً بان اقل ارتياب من جانب « الريس » يقضي عليه قضاء مبرماً . على انه لم تمض مدة وجيزة حتى ابتعد زورق الحراس عنهما فايقن الدون زارو أنه فاز بحريته ، وأن له أن يستنشق هواء الحرية باطمئنان . والواقع نظر الصقلي الى اشجار النخيل الجميلة وهي قائمة بين النيلين ، والى حدائق الخرطوم واشجارها التي اعتنى بها رجال الخليفة للانتفاع بثمارها

اجتاز الزورق العتيق النهر في مدة طويلة . على انهما وصلا في النهاية الى المكان المعين و بعد هنيهة جاء شخص ونادي محمد علي فوثب قلب الدون زارو اذ ذاك ابتهاجاً واراد أن يلقي بنفسه في النهر ثم يخوض أو يسبح الى الشاطيء ولم يطق الانتظار ريثما يصل الزورق بهما الى بقعة يمكن النزول فيها الى البر . على أنه بلغ في النهاية غايته فوثب الى الشاطيء . وكانت رجلاه لا تزالان ضعيفتين من

جراء المدة الطويلة التي قضاها مكبلاً بالقيود والسلاسل ، فرقد على الرمل حيث سقط ، وعندئذ احس بالخوف يكاد يسحق قلبه اذ سمع الاعرابي عبد القادر يأمر محمد علي البحار أن يعود به ثانية ثم رآه يتحول اليه ويخاطبه قائلا

— يجب أن تعدل عن الهرب في هذه المرة الى أن اعود اليك ثانية يا سليمان

فبكى الصقلي الذي استخف بالموت مرات عديدة كالطفل ، فقال عبد القادر

— لا تبك يا سليمان ولا تظن انني خدعتك . لقد تأجل هربك الى وقت آخر ، هذا اذا استطعت العودة ثانية دون أن يراك أحد

— ولكن لماذا لا تستطيع أن تأخذني معك ؟

— لانه ليس لدى إبل

— ليس لديك إبل ؟

— نعم . فقد دبت الغيرة في قلوب الدراويش بسبب الكمية التي جئت بها من ملح البارود ، فزعموا أنها ستقضي على مهنتهم الخاصة بصناعة هـذه المادة ولذا ابلغوا الخليفة أن لدي إبلا جميلة فأخذها لجيشه فاضطررت انا ورجالي الى العودة بطريق النهر .

وقد دفع الخليفة ثمناً كبيراً لانه يريد أن احمل اليه كمية اخرى من البارود ، ولما كنت ساعود مع رجالي في زورق من زوارقه ، فانني لا استطيع أن آخذك معي

— اذا كنت لا تستطيع أن تأخذني معك فاخبرني ما تعرفه عن زوجتي وابنتي

— اذا كنت مجنوناً يا سليمان فانني لست كذلك . هل نسيت ان كل لحظة نقضيها هنا معاً نعرض فيها حياتنا للهلاك ؟ لقد جئت الى هنا مخاطراً بحياتي لكي اخبرك بما جرى . ولا ريب انهم يقتلونك اذا وجدوك في الضفة الاخرى من النهر بدون قيودك . ان زوجتك وابنتك بخير . لقد سمعت من الجواسيس انك تشتغل بصناعة ملح البارود فجئت معي بكمية منه لكي استطيع مقابلتك

فتأوه الدون زارو بصوت عال ، فقال الاعرابي

— اسأل الله أن يحفظك يا سليمان

ثم دفعه نحو الزورق وساعده على الركوب ثانية .

علم البحار أن الدون زارو قد اخفق في محاولة الهرب ، ولكنه رأى أن هذا الفشل لم ينجم عن خطأ ارتكبه عبد القادر ، وان ليس عليه الان الا أن يعود بالدون زارو قبل أن يكتشف سرهما أحد

راى « الريس » زورقهما عند عودتهما ، ولما شاهد فيه

الشخصين اللذين رآهما من قبل تنفس الصعداء وذهبت عنه وساوسه ، فسار الزورق بهما بسلام دون أن يعترضهما احد

اعطى الدون زارو صرة النقود التي حملها ثمناً لهربه ، الى البحار لانه رأى أن الرجل يستحق المكافأة بعد أن قام بمهمته بامانة واخلاص . وقد قضى المسكين بقية تلك الليلة كأنه في جحيم ، لان الافكار التي خطرت بباله عما كان يصنعه الان لو لم يحرم عبد القادر من ابله — كانت تنهش قلبه كالحيات اثناء الساعات التي قضاها في العودة خفية الى الممر السري وفي طرق الحلقات التي فتحها عنوة لاغلاقها ثانية واعادة السلسلة الحديدية الى ما كانت عليه ، ثم العودة بعد ذلك الى غرفته وإزالة كل أثر يدل على أنه حاول الهرب . وكان في حمل الادوات التي سرقها من الترسانة لكسر قيوده ، خطر قد يكلفه حياته كما كانت هناك أخطار أخرى تتهدده من جراء اللصوص الذين كثر عددهم في الخرطوم بسبب الجوع أو من جراء الحراس الذين وضعوا لحماية الناس من هؤلاء اللصوص ، فانهم اذا شاهدوا قيوده أرسلوه الى السجن حيث يبقى الى أن يبلغ الخليفة خبر القبض عليه . على أن الدون زارو تجنب كل هذه الاخطار وافلت منها بالحظ العظيم الذي لا يناله عادة الا كل رجل كره الحياة

لم يكد يصل الدون زارو الى الغرفة التي زعم منذ ساعات

قليلة انه فارقها الى الابد ، حتى أصابته نوبة قاسية من الغضب والشقاء . وقد اشتد خوفه في الصباح عند ما لاحظ الآثار التي ظهرت في الحلقات التي فتحها ثم قفلها ثانية . والواقع لاحظ مدير الترسانة أن القيود قد عبث بها ، وأن الرجل حاول الهرب فخشى أن يصيبه اذى ولذا ابلغ حاكم الخرطوم الامر . وكان الحاكم لحسن الحظ صديقاً للدون زارو فاراد أن يكفيه شر غضب الخليفة فأمر باستبدال هذه القيود بقيود اخرى اثقل منها ثم أركبه على حمار وارسله الى الساير مع رسالة الى ادريس قال فيها أن ليس من الحكمة ابقاء الدون زارو في الخرطوم لان كثيراً من سماسرة الجيش المصري يأتون الى المدينة الان خفية

أحسن ادريس معاملة الدون زارو قائلاً في نفسه انه اذا كان الجيش المصري يزحف حقًا فمن الحكمة الالتجاء الى اللين والرفق. وقد اصاب الرجل فيما ذهب اليه إذ وقع بعد ايام قليلة حادث ابتهج له ادريس وسرّه ما أظهره من بعد النظر و إصالة الرأي

الفصل التاسع والثلاثون

معركة المطبرة

كانت هناك انباء على اعظم جانب من الاهمية ، ولكن من يستطيع حملها الى الخليفة ؟ فقد كان من عادة عبدالله السيئة أن يلقى تبعة كل نبأ سيء على عاتق من يجرأ على حمله اليه ، فيلقيه في السجن حتى يموت جوعاً اذا لم يقض باعدامه باية وسيلة اخرى سريعة . والواقع لم تكن هناك غير خطوة واحدة بين حضرة الخليفة والسجن. فكان من المحتمل جداً أن يجد أعظم وزير يثق به الخليفة ، نفسه في السجن في طرفة عين اذا ما نزع منه ثقته ، كما أنه كان من المحتمل كذلك أن يجد من تكدست القيود بين رجليه ، نفسه في الغد وقد تمتع بثقة الخليفة التي لا حد لها ولا نهاية

أما الرجل الوحيد الذي لم تتزعزع فيه ثقة الخليفة يوماً واحداً فهو ادريس الساير الذي كان ينفذ أوامره في الاسرى كما هي . وعلى ذلك كان الناس في بعض الاحيان يخطبون ود السجان كما يخطبون ود الخليفة ورضاه . وقد تعلم ادريس من خبرته الطويلة كيف ينقل الاخبار الغير السارة الى الخليفة بصورة يقبلها ، ولكن كانت قد وردت الآن انباء لا يستطيع حتى ادريس نفسه نقلها اليه

وكان محمود واحداً من القواد القليلين الذين وضع الخليفة فيهم ثقة غير محدودة . وكان وحشاً قاسياً ينفذ أوامر سيده مهما بلغت من القسوة والوحشية فهو الذي أباد قبيلة الجعليين ، على حين لم يكن منافساً خطراً للخليفة

وكان الخليفة امر قائده محمود بالانتظار في «المتمة» ومضايقة الجنود المصريين اثناء عبورهم النهر . واذا استطاع مهاجمتهم بقواته فعل ، والا كان عليه الثبات بجيشه على الضفة الغربية دائماً ثم الارتداد تدريجاً الى « كرري » خارج أم درمان حيث توجد نبوة قديمة تقول إنه ستدور هنالك المعركة الحاسمة

وكانت فكرة الخليفة صحيحة من الوجهة الحربية الفنية ، فقد كان في وسع القائد محمود أن يرتد بجيشه وينضم الى الجيش العظيم المرابط في أم درمان اذا هاجمته قوات تفوق جيشه قوة وعدداً وهزمته أو تهددته . على أن القائد محمود لم يعمل بنصيحة الخليفة وخالف امره وعبر النهر الى الضفة الشرقية ، فتجاوز الخليفة له عن هذه الغلطة ولكنه امره بان لا يقيم الاستحكامات والحصون ولا ينتظر هجوم الجيش المصري بل يتخذ خطة الهجوم مع عثمان دجنه الذي اوقع الرعب بغاراته في قلوب جميع سكان المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الاحمر . ومن المحتمل أن الخليفة لا يجهل — بالرغم من خداع شعبه — أن القائد محمود لا يستطيع الثبات في وجه

والحفر لحماية رجالهما من المدافع . ولم يكن يخطر ببالهما أن الجيش المصري يجرأ على مهاجمة جيش مؤلف من نحو عشرين ألف جندي ، لان الدراويش تعودوا مهاجمة الاعداء وهم يرابطون وراء الاسوار والزرائب . على أنه حدث في صباح يوم ٧ ابريل ، أن سمع الدراويش فجأة دوي مدفع تلاه سقوط وابل من القنابل . فأظهروا في بداية الامر استخفافاً كعادتهم ولم يعبأوا كثيراً بالقذائف التي كانت تتناثر حولهم ، ولكن سرعان ما أصدر امراؤهم اليهم الاوامر بالالتجاء الى الحفر والخنادق . على أنها كانت قليلة الفائدة إذ كان في الامكان اخراجهم منها بنيران المدافع وحدها . أخيراً كفت نيران المدفعية فجأة بعد أن استمرت ساعة ثم سمع صوت الابواق ، وعلى اثر ذلك شوهدت جنود المشاة تزحف بمجموعها . ولم تكن في هذه المرة من الجنود السودانية أوالمصرية بل كانت من الجنود الانكليزية . وكان القائد محمود في كوخه وسط المعسكر ، فقال عثمان دجنه إن الله ذهب بعقول هؤلاء الانكليز وألقاهم في أيدي المؤمنين لاهلاكهم ، لان نيران المدفعية لم تدمر غير جزء يسير من الزريبة ، وكان في وسع حملة الحراب أن يفتكوا بهم أثناء تعثرهم باستحكاماتنا . على أنه قال إن الانكليز لا يجرأون على مهاجمتهم اذا اقتربوا منهم وأخبر الامراء أن يبلغوا رجالهم أنه ليس

والحفر لحماية رجالها من المدافع . ولم يكن يخطر ببالهما أن الجيش المصري يجرأ على مهاجمة جيش مؤلف من نحو عشرين ألف جندي ، لان الدراويش تعودوا مهاجمة الاعداء وهم يرابطون وراء الاسوار والزرائب . على أنه حدث في صباح يوم ٧ ابريل ، أن سمع الدراويش فجأة دوي مدفع تلاه سقوط وابل من القنابل . فأظهروا في بداية الامر استخفافاً كعادتهم ولم يعبأوا كثيراً بالقذائف التي كانت تتناثر حولهم ، ولكن سرعان ما أصدر امراؤهم اليهم الاوامر بالالتجاء الى الحفر والخنادق . على أنها كانت قليلة الفائدة إذ كان في الامكان اخراجهم منها بنيران المدافع وحدها . أخيراً كفت نيران المدفعية فجأة بعد أن استمرت ساعة ، ثم سمع صوت الابواق ، وعلى اثر ذلك شوهدت جنود المشاة تزحف بمجموعها . ولم تكن في هذه المرة من الجنود السودانية أو المصرية بل كانت من الجنود الانكليزية . وكان القائد محمود في كوخه وسط المعسكر ، فقال عثمان دجنه إن الله ذهب بعقول هؤلاء الانكليز وألقاهم في أيدي المؤمنين لاهلاكهم ، لان نيران المدفعية لم تدمر غير جزء يسير من الزريبة ، وكان في وسع حملة الحراب أن يفتكوا بهم أثناء تعثرهم باستحكاماتنا . على أنه قال إن الانكليز لا يجرأون على مهاجمتهم اذا اقتربوا منهم وأخبر الامراء أن يبلغوا رجالهم أنه ليس

هنالك هجوم ، قائلا انه يعرف الانكليز جيداً ، فانهم سيطردون الانصار من مراكزهم بقوة مدفعيتهم ثم يعودون الى حصونهم وعندئذ سيداهمهم الدراويش ويفتكون بهم كما فعلوا من قبل . ثم أوصى الامراء أن يتركوا رجالهم في الخنادق الى أن يقترب الانكليز من الزريبة ، لأن هذه خدعة اراد القائد الانكليزي بها إكراههم على الخروج من مراكزهم ليحصدهم بنيران مدافعه . على أن عثمان دجنه اخطأ في زعمه هذا وخانه دهاؤه وخداعه ، فقد شاهد البغال تسير مسرعة وهي تجر وراءها مدافع الميدان ، ثم سمع الابواق تدوي وعلى اثرها شاهد المشاة وقد ظهروا في صف طويل . وعندئذ نادي الامراء رجالهم من الحفر والخنادق ولكنهم لم يكادوا يصطفون في الزريبة حتى كان الجنود قد حملوا عليها واخذوا يشقون لانفسهم طريقًا فيها بآلات خاصة جاؤا بها معهم لهذا الغرض ، ولكن قتل الرجال الذين كانوا يفتحون الطريق كلهم تقريبًا

فسأله الدون زارو قائلا

— ألم تطلقوا عليهم نيرانكم عند زحفهم عليكم ؟ لقد كنتم خلف الزريبة فرأيتم بلا ريب عزمهم على مهاجمتكم قبل وصولهم اليكم بمدة طويلة

فقال الاسير

— رأيناهم دقيقتين او ثلاثا فقط ، فاطلقنا بنادقنا عليهم بشدة

هناك هجوم ، قائلا انه يعرف الانكليز جيداً ، فانهم سيطردون الانصار من مراكزهم بقوة مدفعيتهم ثم يعودون الى حصونهم وعندئذ سيداهمهم الدراويش ويفتكون بهم كما فعلوا من قبل . ثم أوصى الامراء أن يتركوا رجالهم في الخنادق الى أن يقترب الانكليز من الزريبة ، لأن هذه خدعة اراد القائد الانكليزي بها إكراههم على الخروج من مراكزهم ليحصدهم بنيران مدافعه . على أن عثمان دجنه اخطأ في زعمه هذا وخانه دهاؤه وخداعه ، فقد شاهد البغال تسير مسرعة وهي تجر وراءها مدافع الميدان ، ثم سمع الابواق تدوي وعلى اثرها شاهد المشاة وقد ظهروا في صف طويل . وعندئذ نادي الامراء رجالهم من الحفر والخنادق ولكنهم لم يكادوا يصطفون في الزريبة حتى كان الجنود قد حملوا عليها واخذوا يشقون لانفسهم طريقاً فيها بآلات خاصة جاؤا بها معهم لهذا الغرض ، ولكن قتل الرجال الذين كانوا يفتحون الطريق كلهم تقريباً

فسأله الدون زارو قائلا

— ألم تطلقوا عليهم نيرانكم عند زحفهم عليكم ؟ لقد كنتم خلف الزريبة فرأيتم بلا ريب عزمهم على مهاجمتكم قبل وصولهم اليكم بمدة طويلة

فقال الاسير

— رأيناهم دقيقتين او ثلاثا فقط ، فاطلقنا بنادقنا عليهم بشدة

ما استطعنا . وقد سقط عدد كبير منهم ولكنهم جثوا على ركبهم فظننا أنهم كفوا عن الهجوم ولكنهم صبوا رصاصهم علينا فامتلأت خطوطنا بالقتلى والجرحى ، وبينما كانت نيرانهم تنصب علينا استأنفوا الزحف ثانية . ولما بدأنا اطلاق نيراننا عليهم ثانية جثوا مرة أخرى وصبوا علينا نيرانهم ، وبهذه الوسيلة استطاعوا الوصول الى الزريبة حيث قتلنا عدداً كبيراً منهم ونحن نضحك منهم لأنهم كانوا يجهلون أن القائد محمود أقام حاجزاً من الخشب وحفر ثلاثة خنادق عميقة انشأ وراءها حفرة لكل رجل ودابة لحمايتهم من رصاص البنادق والمدافع . وقد كمن حملة الحراب والبنادق في هذه الحفر للانكليز لمباغتتهم اذا ما عثروا بهم . على اننا لم نكن نقاتلهم حسب عادتنا . فقد تعود البجارة مهاجمة خصومهم ومقاتلتهم مقاتلة الفاتحين . وكان رصاصنا يطيش في الهواء ولم نستطع استخدام حرابنا الا عندما التقينا بهم وجهاً لوجه . وقد سقط كثيرون منهم قتلى ولكنهم كانوا بالرغم من ذلك كله يواصلون الزحف فاضطر رجالنا في النهاية الى الفرار من بين الاحراج الى ضفة النهر ، وكان مجراه جافاً تقريباً في ذاك الوقت . وكنا نطمع في الافلات من هذا الطريق قبل أن يدركونا ولكن كان الجنود المصريون يرقبون ما يجرى من بعيد فداهمونا على حين غرة ووصلوا الى الشاطئ قبل أن نصل اليه ، وأخذوا يحصدون رجالنا مثل سنابل القمح ، فلم ينج

غير فرساننا لأنهم لم يشتركوا في القتال وسار بهم عثمان دجنه عند ما علم أننا خسرنا المعركة

فقال الدون زارو

— اذن قضى على جيش القائد محمود ؟

فابدى الاسير اشارة تدل على فناء الجيش تماماً ، فقال الدون زارو

— ولـكن يبقى عادة كثيرون يستطيعون الفرار بعد انتهاء المعركة ، فاين ذهب هؤلاء ؟

— ذهبوا شرقاً الى بلاد عثمان دجنه ، ولـكن عددهم قليل وليس معهم بنادق

— ومحمود ، ماذا أصابه ؟ هل اشترك في المعركة ؟

— أصدر أوامره ثم ذهب الى كوخه في زريبة صغيرة حيث باغته الانكليز وأخذوه أسيراً

— من حسن حظكم أن الخليفة أرسلكم إلى السجن بدلاً من قتلكم لحمل مثل هذه الانباء السيئة اليه

فقال الاسير

— لم يشأ أن يسمع انباءنا وقال إننا جواسيس نحمل قصة خرافية عن وقوع معركة لنبلغ الانكليز كم بندقية لديه

فقال ادريس

— سأجلده خمسمائة جلدة يا سليمان (الدون زارو) لـكي أحمل هذا الكلب على قول الصدق

— ولـكنه قال الصدق

وكان ادريس يعرف أن قصة الرجل صحيحة في جوهرها ، ولـكنه أراد أن يكرهه على اعطاء تفاصيل اخرى بتعذيبه فقال

— هذا مستحيل

— لا فائدة من جلد الرجل يا ادريس لأنك لا تستطيع ان تقف منه علي اكثر من ذلك

فتظاهر ادريس بالاقتناع وقال

— لقد قضى على جيش محمود بلا ريب ، ولـكن من يجرأ على أن يحمل هذا النبأ الى الخليفة غير رجل كتب عليه الموت جوعاً في الساير ؟

فقال الدون زارو

— سأخبر الخليفة اذا جعلته يرسل في طابي

لم يكن الدون زارو جندياً ، وقد قضى حياته كلها الى ان قدم السودان ، يتجنب المشاحنات بابتسامة الاذعان والخضوع ، فأيقن الآن ان الخليفة سيأمر بضرب عنقه على أثر فراغه من قصته هذه . على أنه كان قد ملّ مداهنة طاغية لا يلين له عود الا بالتملق

والـكذب والنفاق ، فصمم على أن يواجهه بالحقيقة المؤلمة في هذه المرة التي اتيح له فيها الفوز عليه

وكان الخليفة يرجو في قلبه أن يتمكن القائد محمود من كسر الجيش المصري ، أو على الاقل من جعله مثل ثعبان مقصوم الظهر ، ويقول في نفسه انه ربما استطاع المصريون زحزحة جنوده من الميدان وقتل بضعة الاف منهم ، ولكنهم سيضطرون في النهاية الى العودة ثانية الى اسوان ثم الى القاهرة

هذا ما زعمه الخليفة ، فلم تخطر بباله كارثة كالتي وقعت على العطبرة . ولا عجب فانه لم يشاهد من قبل الجنود المصرية والانكليزية وهم يقاتلون ، ولا خبر نيرانهم الساحقة ، ولا شهد صفوفهم المتراصة . أما الدون زارو فكان يعرف هذه الحقيقة وفي وسعه أن يصفها للخليفة عبد الله كما هي ، واذ ذاك تتاح له الفرصة للتمتع بساعة واحدة من الفوز على غريمه قبل أن يهوى رأسه و يسقط فوق رمال أم درمان

الفصل الاربعون

— زارو والخليفة —

قال ادريس ، وقد دهش من جرأة الدون زارو

— حقًا إنك مجنون . ومتى تريد الذهاب يا سليمان ؟

— سأذهب على اثر فراغي من كتابة خطابين الى زوجتي وابنتي اودعهما فيهما . هذا اذا اقسمت لي انك تعطيهما الى من يسلمهما اليهما

فقال ادريس

— اقسم لك بذلك يا سليمان . انني اعرف كثيراً من جواسيس العدو ، وهم يأتون ويذهبون كل يوم ليبلغوا قائد الجيش المصري الخطط التي يضعها الخليفة

ولما لم يكن يجرأ أحد على الكتابة في أم درمان خارج بيت المال ، فقد احتال ادريس حتى حصل على أدوات الكتابة ، ثم أرسل الكاتب اليوناني في بيت المال الى منزله وعندئذ ادعى أن أحد أولاده مريضاً وطلب الى الدون زارو زيارته، وهي الحيلة التي كان يلتجيء اليها دائماً كلما أراد أن يتكلم مع الصقلي على انفراد

أملى الدون زارو الخطاب التالي الى زوجته :

« زوجتي العزيزة انوسنزا »

« أرسل اليك هذا لتوديعك ولكى أخبرك اني لا أحمل لك في قلبي ضغينة لما فعلته ، ولو انني كنت أود أن يكون سلوكك غير ذلك . لقد عشنا سعيدين في كل يوم من أيام حياتنا الزوجية ، وكنت لي زوجة مخلصة . على انني الآن في عداد الأموات بالنسبة اليك ولا يمضي يوم حتى أفارق هذا العالم . وكنت قد عللت النفس بأن أكون معك في هذا الوقت ولكن جمالي سرقت . ولما كنت لا استطيع الافلات الآن وسيقتلني البجّارة عند وصول الجيش المصري ، فقد مللت الحياة وعولت على أن أقوم بعمل سيقتلني الخليفة لأجله

« الوداع . اسأل الله ان يحفظك ويحميك — زوجك

زارو لنتيني

« سيرسل هذا الكتاب اليك بواسطة ادريس ،سجان الساير فاخبري بارنج والقائد الانكليزي أنه بذل أقصى جهده لحماية الاسرى الاوربيين »

ثم أرسل الى ابنته فرنشسكا الخطاب التالي

« الوداع ، أي فرنشسكا عزيزتي ووحيدتي ، ستدركين ما أنا قادم عليه ، فقد وصلت الينا الانباء هنا في السجن بأن الجيش

المصري مع القوات الانكليزية قضى على جيش محمود وعثمان دجنه في معسكرهما على نهر العطبرة ، وهذه الحقيقة يعرفها جميع سكان أم درمان عدا الخليفة الذي لا يجرأ أحد على أن يبلغه هذا النبأ السيء لانه يقتله لا محالة ، ولكنني سأحمله اليه بنفسي . لقد ضاعت كل فرصة للهرب ، واظن أن الدراويش سيقتلوننا عند قدوم الجيش . ولما كنت مكبلاً بالحديد في الساير فانني لا استطيع ان اضرب الخليفة ضربة واحدة ولكنني سأجعله يرتجف في قصره واجازيه على السنين العديدة التي قضيتها في الاسر والعبودية ، وجلده إياي حتى كاد يخمد أنفاسي يوم دخوله الخرطوم ، وعلى المساوئ والفظائع التي ارتكبها ضد البشر ، فاصرخ في وجهه بتلك الانباء المهينة عن اندحار جيشه وقدوم الجيش المصري للقضاء عليه وعلى ملكه واعماله

« لم يجرأ أحد على مواجهته بالحقيقة منذ وفاة المهدي، ولكني ساعلنها له واحمله اعظم مذلة لحقته ويكون عملي هذا انتقامي منه

«أي فرنشسكا . أن والدك ليفخر بك و بجمالك و بشجاعتك فانت حقاً من سلالة اسرة لنتيني التي طردت شارلس ملك انجو من صقليا ، فارسل اليك دعواتي وبركاتي وأسأل الله حمايتك . هذه آخر صلاة يقدمها والدك التعس — زارو لنتيني »

ثم كتب الملاحظة السابقة عن ادريس وحمايته للاسرى الاوربيين . ولما فرغ الرجل من كتابة الخطابين امره أن يقراهما لادريس واشار الى توصية بارنج بصفة خاصة كضمان لارسال الخطابين . فسر ادريس من هذه التوصية وقال

— هذا حسن . سارسل الخطابين في الحال

أرسل ادريس في الوقت نفسه رسالة الى القصر قال فيها إن الاسير سليمان يطلب المثول بين يدي الخليفة لان لديه نبأ جليل الشأن يريد أن يسرّه اليه

زعم الخليفة أن ادريس يشير الى جاسوس من الاسرى في السجن ، فارسل في طلبه في الحال . وكان الدون زارو لا يزال مكبلاً بالقيود الثقيلة التي أرسل بها من الخرطوم فاركبوه حماراً كعادة الاسرى المكبلين بالقيود الثقيلة اذا ارادوا نقلهم من مكان الى مكان . وقد ودع ادريس الدون زارو وتمنى له حظاً حسناً وهو لا يظن أن ستقع عيناه عليه مرة اخرى

وصل الدون زارو الى القصر راكباً حماره ، فوجد اثنين من « الملازمين » في انتظاره ، على حين ذهب غلام من غلمان الخليفة وابلغ سيده خبر قدوم الدون زارو ، فأمر بادخاله عليه في الحال فرفعه الملازمان عن ظهر الحمار وحملاه الى حضرة الخليفة

وجد الدون زارو الخليفة جالساً على عنجريبه في غرفة بسيطة

والى جانبة شقيقه يعقوب . وكان معهما الامراء والموظفون من البجارة الذين كانوا ينصحون الخليفة دائماً بقتل الاسرى البيض لكي لا يشتغلوا بالتجسس أو يحاولوا الهرب . على أن الدون زارو لم يشعر بذاك الوجل الذي دب في قلبه عند ما اخبره الاعرابي عبد القادر أن ليس لديه إبل يحمله عليها . ولا عجب فقد كان مصمما على الوقوف في وجه الخليفة ، واثقاً أن الموت العاجل سيكون نصيبه اذا هو اثار غضبه الي الحد الكافي

قابل الخليفة الدون زارو بلين قائلا

— طلبت التشرف بالمثول بين يدينا ، فماذا لديك من الانباء الهامة ؟

فقال الدون زارو

— انك يا مولاي على صواب دائماً . . .

لم يزد الدون زارو على قوله هذا كلمة ، اذ سمع اصواتاً في الممر الخارجي بين غرفة الحراس وغرفة الاستقبال ، تدل على قدوم رجل لا يعبأ بالانظمة التي يتبعها الناس دائماً في الدخول على الخليفة ، فانتظر ليرى من القادم فشاهد بعد قليل عثمان دجنه ، شيخ قبيلة الهدندوة والزعيم الذي يتمتع في شرق النيل بسلطة اعظم من سلطة الخليفة نفسه

وكان الخليفة يمقت عثمان دجنه في قلبه لاستقلاله وعدم ظهوره

بمظهر الخضوع والطاعة ، ولـكنه كان لا يجهل من جهة اخرى قيمة مساعدته له ، فتجنب وقوع منافسة بينه و بين رجل كهذا ، ولو أنه كان يعتقد أن عثمان دجنه لا يستطيع ان يكون مزاحماً له لان البلاد التي يعمل فيها فقيرة لا تحتمل قوة السلطان الذي يبسط نفوذه على أم درمان والمديريات الغنية في الغرب والجنوب ، وأنه من البدو الذين اشتهروا بشن الغارات وانه قائد لا يباري في مضايقه الانكليز الذين يمقتهم مقتاً شديداً بالإنقضاض على قواتهم المتطرفة

لما دخل عثمان دجنه على الخليفة حياه باحترام ولو أنه لم يفقد ذاك المظهر الذي يظهر به عادة من يشعر بقيمة نفسه . وبعد أن تهادلا التحية سأله عبدالله قائلاً

— ماذا تحمل الينا من الانباء ، وكيف حال المؤمنين ؟

فاجابه عثمان دجنه قائلاً

— مولاي . قدتهم الى الجنة

ادرك عبد الله معنى قوله هذا ، فغضب غضباً شديداً . وكان يعلم أنه سيسمع أنباء سيئة لانه كان دائماً يوجس خيفة من نحو تقدم الجيش المصري ، ولكنه كان يعلم من جهة اخرى أن عثمان دجنه منع تقدم الانكليز في المديريات الشرقية وصدهم بعيداً عن اسوار سواكن ، فكان يرجو أن يسمع انباء سارة بعد انضمام جيش محمود الى عصابات عثمان دجنه

قال عبدالله بغضب

— اذا كنت قد قدت المؤمنين الى الجنة ، فلماذا لم تذهب معهم ؟

على أن عثمان دجنه اظهر رياء عظيما فقال

— لم تكن هـذه ارادة الله ، اذ لا بد أن تكون لديه اعمال أخرى تنتظرني ، فاذا ما انتهت هذه الاعمال دعاني اليه

قال الخليفة بلهجة الغضب

— كيف قدتهم الى الجنة في هذه المرة ؟

— حملتهم على الاستخفاف بالاعداء الذين جاؤا معهم ببواخر كبيرة ومدافع ضخمة فاحتقروا القذائف التي كان الاعداء يقذفونها من مدافعهم و بالبرق الذي كانوا يرسلونه يجري على الارض ، الى أن جاء جيش كبير منهم فوثب رجاله على الزريبة واحاطوا بالانصار فقتلوا كل رجل منا بمائة رصاصة . أما الفرسان البجارة فلم يستطيعوا الاحاطة بهم فانقذتهم لك يا مولاي

وكان الخليفة يعرف عثمان دجنه جيداً فاستخلص الحقيقة من قوله هذا ، وعلم ان جيش محمود اندحر ولم ينج غير الفرسان وعثمان دجنه ورجاله ، فقال

— لقد عصى القائد محمود الاوامر التي بعث النبي بها اليه على لساني فكان جزاؤه ما حلّ به و بجيشه

انتهز الخليفة هذه الفرصة فأخذ يصلي ، فلما فرغ سأله عثمان دجنه قائلاً

— هل تسمح لي بالانصراف لكي اسد الطرق على الاعداء ؟

وكان الخليفة يعلم أهمية هذا القول و يعلم أن ليس بين قواده من هو اكفأ من عثمان دجنه في مضايقة الانكليز واقامة العراقيل في سبيلهم ، فقال

— نعم اذهب ، ولكن لا ترسل أحداً من رجالي الى الجنة لاننا سنحتاج اليهم في كرري

وكان المهدي قد تنبأ بوقوع معركة طاحنة في سهول كرري شمال أم درمان ، ولذا قضى الخليفة عبدالله شهوراً في التأهب والاستعداد للقضاء على اعدائه في معركة حامية هائلة

خرج عثمان دجنه فتحول عبدالله الي الدون زارو وقال

— هات ما عندك يا سليمان من الانباء التي جئت تلقيها على مسامعنا

فاجابه الدون زارو قائلاً

— جئت لكي اخبر مولاي أن جيش محمود انهزم ، وأن القائد محمود وقع اسيراً ، وأن ...

أدرك الخليفة أن الدون زارو يعرف كثيراً من الحقائق التي لا يريد أن يقف عليها الحاضرون فقاطعه قائلاً

— اعرف كل شيء . إن النصر العظيم الذي احتفلنا به انما كان ابتهاجاً باستخفاف الانصار بالاعداء و بالبرق الذي كانوا يطلقونه من مدافعهم العديدة . وقد دارت بعد ذلك معركة اخرى تغلب الاعداء فيها بكثرة عددهم وقوة بنادقهم الحديثة وقتلوا الانصار الذين كانوا بقيادة محمود، والان أراك ياسليمان رجلا صادقاً اميناً وشجاعاً . ولعمري لا أعرف في السودان كله رجلا يجرأ على أن يخبرني بما اخبرتني به غير عثمان دجنه الذي غادرنا الآن . فاشكرك ياسليمان لانك لم تشأ أن يخدعني الرسل الجبناء ، ولكنني أرى من جهة أخرى أن رجلا شجاعاً مثلك خطر عظيم ولذا عليك أن تعود الى الساير وتحمل ثلاثة قيود اخرى ثقيلة

وهكذا تلقى الخليفة عبدالله انباء معركة العطبرة

الفصل الحادي والاربعون

الجيش المصري في بربر

لو استطاعت روح الدون زارو ان تغادر جثمانه ساعة واحدة في فجر يوم ١١ ابريل سنه ١٨٩٨ ، وتتجه نحو بربر لصعدت الى ربها مبتهجة مسرورة لانتهاء السنين التى انقضت في الاسر والاهانة والتعذيب ، ولرأت مشهداً من مشاهد النصر الرومانية ، قوامه ذاك الضابط الطويل الذي كان يتناول طعامه دائماً في مطعمه منذ أربعة عشر عاماً . فقد اراد السردار ان يحسن معاملة الجعليين الذين التجأوا الى الجيش المصرى بعد فوات الفرصة وان يحمل صدى المعركة الى آذان الحاكم بأمره في أم دومان . وقد طلبت حامية بربر أن تشترك في هذه الحفلة الباهرة ، وفعلا قضى رجالها الليل خارج باب المدينة الجنوبي بعد أن طهرت المديرية كلها من الدراويش ، وفي اثناء الليل ضربت خيمة واسعة عند مدخل السوق في جوار باب المدينة الشمالى حيث نصبت منصة لمحاكمة زعماء الدراويش

ركب السردار وقائد الجيش والضباط ، تحف بهم الفرسان ، الى ابواب المدينة بعد شروق الشمس بساعة ، فحيتهم مدافع بربر وأدى الجنود المصريون الذين استولوا على المدينة ، التحية العسكرية

وزغردت نساء الجعليين اللائي جئن يشهدن الجيش وهو يسير من تحت اقواس النصر

وقد زيّن المصريون المنتصرون شوارع المدينة الكبرى والسفن بالاعلام والورق الملون وغير ذلك من الاعمال التى دلت على فرحهم وابتهاجهم ، فسار السردار وأركان حربه وحرسه الى أن وصلوا الى المحكمة فترجلوا عن جيادهم وجلسوا في مقاعدهم ، على حين اصطف الحرس على الجانبين

كان هذا الموكب هو الاول . اما الثاني فكان مؤلفا من الجنود المصرية والانكليزية والسودانية التي جاءت رافعة لواء النصر والفوز . وكان القائد محمود ، قائد جيش الخليفة في معركة العطبرة وقاتل الجعليين واعظم قواد المهدية ، يسير بين الموكبين بلا حراس مثل أسير عادى لكي يرى سكان بربر والقبائل التى تقطن بين الشلالين دليلا حسياً على أن جيش الخليفة سحق وقائده أسر ، وكان الهواء يلعب بلحية القائد محمود وهو سائر كأنما أراد أن يشترك هو أيضاً في الفوز الذي اصابه اعداؤه ، محمود الشيخ الذي القى الرعب والهلع في قلوب سكان وادي النهر المعظم . وكان الجنود الزنوج يسيرون بين جنود الجيش المصري ، وكانوا خليطاً من قبائل مختلفة — من الدنكة والشلوك والجعليين والعبابدة والكبابش والبشارين — شاهرين

بنادقهم يحيط بهم السكان من مواطنيهم على جانبي الطريق . وكان
قائدهم يسير في طليعتهم وقد لفحت حرارة الشمس وجهه ، يليه
البكباشي اليفانت لامبرت والقائمقام جورج ثرسبي صديقه

كانت بين الجموع المحتشدة عينان تراقبان وجه البكباشي ، هما
عينا صبي اعرابي مليح الوجه ، في وسعه أن يرسل الدم حاراً الى
وجه الضابط فيزيده حمرة ، فقط لو علم هذا من هو صاحب تينك
العينين اللتين تنظران اليه بعطف وحنان . على ان الضابط كان
يحدق النظر الى الأمام لانه أراد ان يقوم بمهمته، لأنه خشي ان تلهيه
أعمال الوطنيين وحركاتهم الغريبة ، فقد كانوا يعدون هذا اليوم
اعظم يوم في حياتهم . ولا عجب فقد قضى الجيش المصري في المعركة
الاخيرة على جيش الخليفة فجاءت القبائل من رجال ونساء تستقبل
منقذيها الابطال الذين أبلوا بلاء حسنا في المعركة الاخيرة

على هذا النظام صار الجيش تتقدم كل فرقة منه موسيقاها الى
ان وصل الجنود على اختلاف اسلحتهم من مشاة وركبان ومدفعية
الى سوق المدينة حيث جلس القائد تحيط به اجناس مختلفة من
المصريين والزنوج والانكليز

كانت هذه الساعة بداية عهد جديد، لان الجيش المصري
صار، بعد اربعة عشر عاما قضاها في التدريب على القتال–قوة لاتبارى
احسن قوة لدى الخليفة . والواقع كان الابتهاج عاما لاسيما بين الجنود

السود الذين كان الخليفة يعاملهم معاملة الارقاء فرأوا اليوم انفسهم
يدخلون بربر فاتحين

وكان بين الجنود السود رجال قاتلوا مع الخليفة وضده . ولم يكن
بين هؤلاء جندي واحد يشك فيما سيصيب الجيش الجرار المؤلف من
مئة الف جندي من البجارة والمجاهدين ، اذا ما خرج من أم درمان
للقاء الجيش المصري مع الجنود البيض في وسطهم

كاد الفوز الذي اصابه الجيش المصري يضيع بالنسبة الى
الارطة الحادية عشرة السودانية بقتل ضابطها البكباشي لامبرت، فقد
كان يميل الى ترك زملائه بعد العشاء والسير على شاطيء النهر الى
مكان منعزل حيث اعتاد الجلوس يدخن سيجارة بعد اخرى وينظر
بتراخ الى النجوم المتلألئة في السماء واشجار النخيل والخرائب والنهر،
يفكر في ذلك الوجه الجميل الذي لاتبرح صورته من مخيلته لحظة كلما
كان بعيداً عن ساحة القتال . وكان الضابط يشعر بارتياح لما اصابه
حتى الآن ، لانه اذا لم يكن قد حظي الى الآن بحبها كله وما كان
يجب ان تمنحه اياه ، فقد اعطته زمام حياتها بذلك الخطاب وصارت
في يده اسيرة ، طالما ظل جنديا يحارب في ساحة الحب والغرام .
وكان لامبرت يقول في نفسه انه لا يمضي عام أو أقل حتى يكون
الخليفة قد خضع، ورفرف لواء السلام على ربوع السودان وبعد ذلك
يستطيع ان يعيش مع فرنشسكا ، سواء عسكرت ارطته في القاهرة أو

في الخرطوم بالرغم من الاوامر التي اصدرها السردار وحظر فيها الزواج على ضباطه . وفعلا كثيراً ما كان ينسى السردار وأوامره ويتصور المنزل الصغير الذي سيقطنه مع زوجته في مصر او في السودان . وكان لامبرت يرى في كل تصوراته انه فاز بعطف فرنشسكا وان الباقي سيأتي، ويعد نفسه مجاهدا في سبيل غرامه، يحارب لينزع ذلك القلب الصغير من يد عدوه ويأخذه لنفسه

أخذ لامبرت يذهب ويجيء منفرداً فوق شاطيء النهر الرملي ، وهو يشعر بابتهاج عظيم، ويتمتع بهواء بلاد النوبة الرقيق، ويصغي الى ما حوله من الاصوات الخافتة وخرير مياه النهر

لم يفكر لامبرت بالمعركة الباهرة التى انتهت ، بل كان جل همه في المعارك المقبلة التى كان يعدها جزءاً لازما من المهمة التي يجب ان يقضيها قبل العودة الى فرنشكا — وهكذا استمر في تأملاته وافكاره

على ان لامبرت لم يكن في عزلته هذه منفرداً ، إذ كان هناك رجل اعرابي في شركة تراديتور التي تورد الاطعمة للجيش ، يراقبه ويهتم بحركاته اهتماماً عظيما

وكانت اشجار النخيل والسنط ترى بكثرة في المنطقة المجاورة للمعسكر خصوصاً في جوار غدير جميل اقيم بجانبه مزار لأحد الاولياء ، انعكست قبته البيضاء في المياه ، فلما وقع نظر لامبرت على هذه القبة

ذكر مزار القديس المشهور في واحة المرج ، في جوار هليوبوليس ، وهو المكان الذي زاره مرة مع فرنشسكا

آه ، فرنشسكا ثانية !

تمنى لامبرت في هذه اللحظة ان يجد نفسه في بلدة المرج ثانية لكي يستطيع السير الى فرنشسكا مشيًا على الاقدام ، ثم لم يلبث ان اطلق لافكاره العنان، فأعاد في نفسه ذكري حوادث ذلك اليوم الذي قضاه مع حبيبته في تلك البقعة ، وذكر زيارتهما لهليوبوليس — هليوبوليس القديمة التي زهت في عهد الفراعنة ثم تهدمت اسوارها القديمة عدا مسلتها التي شيدها الملك « اتسرتسن » فرعون مصر ، وعين شمس ، بما يحيط بها من الاشجار الطويلة

كان لامبرت كثير التأملات والافكار لان ذكرى المرج جعلته يعيد في أفكاره جميع حوادث ذلك اليوم الذي قضاه برفقة فرنشسكا المحبوبة . فكان واقفا بجسمه تحت الاشجار، ينظر الى الغدير والقبة ولكنه كان يرى بعيني فكره المرج وفرنشسكا

كان الضابط غارقا في افكاره على هذه الحال فلم يسمع وقع اقدام على الرمال البيضاء اللامعة ، فاستطاع الاعرابي الذي يشتغل في خدمة تراديتور ان يقف خلفه ، رافعا يده بمديته الطويلة يبحث عن خير مقتل في جسمه ، وهو يلعن في قلبه المعسكرات التى لا يستطيع

ان يطلق فيهـا مسدسه دون أن يثير القلق والاضطراب ، ثم رفع المدية عالية في الهواء بعزم وثبات

على انه لم يكد يستجمع قواه و يسدد ضربته حتى سقط على الارض فجأة والى جانبه حيوان ضخم كالفهد

سمع لامبرت صوت جسمين ثقيلين يسقطان على الارض بجانبه فالتفت خلفه فرأى اعرابيًا ، وكلـبًا رماديًا ضخم الجسم فوقه ، وقد كشر عن انياب كالذئب . وكان الكلب يزمجر بوحشية وقد وقف شعر عنقه كالشوك بحالة مروعة

وبينا كان لامبرت ينظر الى الكلب والرجل اذ تقدم فتى اعرابي الى الامام والتقط المدية التي سقطت على الرمل من يد الاعرابي ثم عاد مسرعًا وصفر للكلب فتبعه وغادر فريسته ملقى على الارض فمال لامبرت فوق الرجل وسأله بالعربية قائلا

— هل اصابك اذى ؟

ولكن الرجل تظاهر بعدم الفهم واخذ يرطن بلهجة عرب سينا التي لا يفهمها لامبرت، فتركه وعاد الى خيمته قلق الفكر من جراء هذا الحادث الذي وقع على مشهد منه . وبعد قليل قام الاعرابي فلحق به وسار في حمايته الى ان اقترب من المعسكر فابتعد عن لامبرت فجأة وذهب الى المكان الخاص بالمؤن

اما الفتى الاعرابي فقـد اختفى مع كلبه على اثر التقاط المدية

مباشرة . وقد زعم لامبرت ان هذا حادث عادي وظن ان الصبي خشى ان يقع في مشكلة بسبب وثوب كلبه على الرجل فاختفى معه في الحال . على حين كان يجهل تماماً ان الرجل كان يقصـد اغتياله وانه لم يفلت من الموت الا بفضل الفتى الاعرابي وكلبه

كان لامبرت يحلم بزوجته فرنشسكا في مدينة القاهرة البعيدة — فرنشسكا الملاك الحارس الذي كان بجانبه قبل انقاذ حيـاته ببضع دقائق . وقد كان غرضها الوحيد منذ شهور مضت ان تسهر علي وتتولى حراسته ، فتكلل نجاحها عند ما جاءها اسكندر رودو وكانا كـ بكلب ارمنتي ضخم لحراستها اثناء نومها منفردة في خيمتها . وق بذلت فرنشسكا اقصى جهدها حتى جعلت الكلب صديقا حميما فكان يطيع اقل اشارة منها ، ولولا ذلك لما استطاعت ان ترده ع

قتل الاعرابي

كان لامبرت يجهل ان الاعرابي الذي اراد اغتياله هو غر انجيلو، كما أن انجيلو كان يجهل ان خطيبته التي خانها هي التي افسد عليه دسيسته ، على حين كان الاثنان يجهلان الصبي الذي عاد كلبه الى خيمته وتحول في عزلته الى امرأة متوترة الاعصاب حاجة قاسية الى اذراف الدموع لتخفيف آلامها

وجدت فرنشسكا مشكلة عويصة اخرى، فقد ارادت ان انجيلو ان امره اكتشف دون ان يعرف شيئًا عنها . فرأت ان

تستطيع الكتابة اليه لانه يعرف خطها ، ولاترسل اليه تلغرافا دون ان يكتشف امرها احد، واخيراً استقر رأيها على أن تعهد بالمهمة الى اسكندر رودوكاناكى . فاخذت عليه عهدا ان يكتم الامر عن ولاة الامور في الجيش ، وأن يبلغ الاعرابي ان امره أكتشف ثم يحمله على مغادرة المعسكر قبل مضى اربع وعشرين ساعة والا فضح سره

فسألها رودوكاناكي قائلا

— لماذا لم تدعي الكلب يفتك به ؟ انه كان يستحق ذلك وأكثر

فلم تخبره ان السر فى ذلك انها كانت تهواه من قبل وانما قالت

— لم اشأ ان يقتل الرجل المسكين بعد ان حلت بينه وبين تنفيذ جريمته

وكانت هناك منافسة شديدة بين شركة تراديتور وشركة رودوكاناكي . وكان انجيلو يعرف اسكندر بلا ريب ، اما اسكندر فكان يجهل ان الاعرابى هو منافسه انجيلو فعامله كما يعامل أي اعرابي اكتشف اثناء ارتكاب جريمة

ارسل اسكندر رسالة الى الاعرابي (انجيلو) يدعوه فيها الى الحضور بعد ثلاث دقائق اذا اراد الافلات من الموت فلما لبي الدعوة في الحال ، ابتدره منافسه قائلا

— ماذا فعلت ايها الكلب ؟

— لا شيء ياافندى . انني اقوم بمهمتي في شركة تراديتور

— لماذا اقتفيت اثر الضابط الانكليزي ايها الكلب، وكنت لله لتقتله ؟

فارتجف انجيلو، على انه قال

— لم اقتف اثر احد ، ولم اغادر مخزن سيدى

— اقول لك انك اقتفيت أثر البكباشي الانكليزي، وان كلبا حمل عليك وكاد يقتلك لولا أن دعاه صاحبه

— نعم حمل على كلب ياسيدى ، ولكن هذا لا يعد دليلا على انى كنت انوى شراً بالبكباشي

— اذن تعترف ايها الكلب بأنك كنت تقتفى اثر الضابط ؟

— تقول انني اقتفيت اثر البكباشي ؟ كلا . ولكني كنت على مقربة منه عند ما حمل الكلب على ، لا لسبب الا ان صاحبه كان يسير على مقربة

— انك تكذب ولا تجهل انك كذاب . اصغ الي . لقد جاءني الصبي صاحب الكلب واخبرني كل ماجرى ، ولولا انه يخشى الوقوف امام مجلس عسكري لكنت الان في عداد الاموات . ولكن يظهر انك تريد ان يفشى سرك ، سآخذك الى السردار

فاضطرب انجيلو وصاح قائلا

— كلا . كلا

— او هل لي أن اخبر هؤلاء الزنوج ليأخذوك الى غرفة السجن ؟

اغمى على انجيلو اذ ذاك فجاء اسكندر رودوكانا كي بقدح من الماء وصبه على وجهه . على أن الصبغة التي دهن بها وجهه ظلت ثابتة لان الشاب كان قد اختارها من نوع جيد لا يزول عن جسمه ولو اغتسل في النهر

اظهر انجيلو خضوعا مدهشا عند ما افاق اذ قال

— ماذا تريد عمله بخادمك ياسيدي ؟

— إصغ الي . ساعطيك مهلة اثنتي عشرة ساعة ، فاذا رأيتك بعدها في المعسكر أو خارجه اخبرت الجنود الزنوج بما كنت تنوى عمله بضابطهم فيفعلون بك ما يشاؤن . هل سمعت ؟

فقال انجيلو وهو يضمر له الشر

— نعم ياسيدى . اذا رأيتني بعد ست ساعات فى المعسكر افعل بي ما تريد . ولكن أتوسل اليك ان تذهب الى القائد وتحصل لي منه على جواز لاجتياز الخطوط لكي التحق بقبيلتي

ذهب اسكندر الى القائد وطلب اليه ان يعطيه جوازا لرجل اعرابي سيء الخلق ، يرتاب في انه جاسوس ، فاعطاه الجواز وهو لا يشك ان انجيلو كان فى الواقع جاسوساً للخليفة فانتهز الشاب فرصة الحصول على الجواز والتخلص من خطوط القتال فصمم فى الحال على السفر الى ام درمان ومقابلة الخليفة

الفصل الثاني والاربعون

السايرفي ام درمان

بقي ادريس السايرالى النهاية متمتعاً بثقة الخليفة . على ان الرجل كان بالرغم من رغبته في الحرص على اخلاصه للخليفة ، اشد حرصاً على الخلاص بجلده، فترك الدون زارو ينشيء مركزاً للجاسوسية في السجن ، حتى صار لدي الصقلي هيئة منظمة من الجواسيس تجمع له المعلومات ، وهيئة اخرى تحملها الى السردار دون أن يجرأ على التعرض له أحد . وكان ادريس يبحث مع الدون زارو يومياً في خير الوسائل التي تضمن له النجاة من الموت ، فكان يوصيه دائماً بعدم التعرض للأسري البيض . وقد اظهر ادريس شيئاً من اصالة الرأي باتباع هذه الوصية ، فوضع الدون زارو أنصار الحكومة في فناء السجن إذ لم يعد ثمة خوف من محاولتهم الهرب، ثم سجن البجارة الذين كانوا يتعطشون لسفك دماء اعداء الخليفة الذين كانوا في الغرفة الصخرية المروعة المعروفة باسم «أم حجر» . ثم قرر ، عملا بنصيحة الدون زارو ، أن يقتل كل من يحاول من البجارة ان يمس أحداً من الاسرى البيض

وكان الاسرى الاوربيون قد نقلوا كلهم ، عدا الدون زارو ،

لى كرري لمشاهدة النصر الذي تنبأ به الخليفة لنفسه ، لان الصقلى جعل ادريس يفهم الخليفة ان ليس من الملائم ان يرسله الى ميدان القتال مخافة أن ينسف الذخيرة و يساعد العدو بذلك . وقد فاز الدون زارو في حيلته هذه ،ومع ذلك لم يكن بينه و بين الموت العاجل غير اسوار السابر وحسن نية ادريس ، هذا عدا الاخطار التي كانت تتهدده من جانب قنابل الجيش المصري ، ومن جانب الخليفة سواء عاد ثملا بخمرة الفوز أو حاملا لواء الخذلان والفشل

قضى الخليفة أياما في كررى مع جنوده قبل النهاية . وكان الجيش المصري يتقدم في خلال ذلك على مهل وبحذر ، فكان كل يوم ينقضي بمثابة اسبوع . ولم يكن الاسرى من انصار الحكومة في السجن يكتمون عواطفهم فكانوا يبتهلون الى الله علانية ان ينصر المصريين ويطلق حريتهم

وكان لادريس صبي صغير يحب الدون زارو ، فكان يصعد الى سطح السجن لكي يراقب الجيش المصري عند قدومه فيمكث طول يومه جالساً مثل الطائر ، غير مبال بحرارة الشمس المحرقة . وقد قضى الصبي بضعة أيام لا يرى شيئاً ، الى أن صاح ذات يوم ابتهاجاً قائلا

— أرى عفاريت ، عفاريت كثيرة

وكان الدراويش يسمون البواخر والقنابل « عفاريت » ولم يلبث ان قال الصبي

— ان العفاريت تطلق عفاريت

سمع البجاره الذين في السجن قصف المدافع فتملكهم الغيظ وصاحوا قائلين ان الحصون التي اقامها الخليفة على شاطيء النيل ستمنعهم . وقال ابراهيم فوزي باشا صديق غردون ، وحمزة الجعلي هذا القول بعينه للدون زارو لان الحصون كانت اقوى بكثير مما كانت عليه عند ما اغرقت بواخر غردون

فقال الدون زارو

— انكم لاتعرفون ما بلغه الجيش من التدريب اخيرا ،ولاتدرون ان الانكليز من امهر بحارة العالم ، فهم لايرسلون البواخر لمنازلة هذه الحصون اذا كانوا يعلمون انها تستطيع اغراقها

فقال فوزي باشا

— واأسفاه . انني أعرف الانكليز جيدا ، انهم لا يبالون بالمخاطر ، وهم مصابون بالجنون مثل الدراويش تماماً

فقال الدون زارو

— لقد وصلوا على كل حال وسيزحفون بقواتهم ، ولا يعدم الانسان دائما فرصة لضرب الدراويش ضربة قاضية . ليس لدى الدراويش قواد يراقبون كل شيء وانما لديهم قواد لانتهاز الفرص

انقطع اطلاق القنابل فجأة فصاح الصبي قائلا

— كفت «المفاريت» عن اطلاق النار . انها تجري ولكنها لا تستطيع الهرب لان حصوننا ستقطع عليها الطريق وتغرقها كما غرقت بواخر غردون . انها تجري باقصى سرعتها

اضطرب الدون زارو عند سماع هذا القول وكاد يفقد صوابه وهو لا يصدق أن الحملة التي ظل اعواما طويلة ينتظر قدومها قد آبت بالفشل ، واخيراً صاح قائلا

— هل انت واثق من أن البواخر فرت هاربة ؟

فاجابه الصبي قائلا

— نعم انني واثق . انني اراها بعيني رأسي

فقد الدون زارو اذ ذاك صوابه واندفع الى الامام بالرغم من ثقل قيوده . واخذ يصيح باعلى صوته قائلا

— انهم قادمون . هل تسمع صوتي هذا ياغردون ؟ لقد قلت لهم انهم قادمون فلم يصدقوك فلماذا لا يصدقونني الان ؟ لقد جاؤا بخيلهم ورجلهم ومدافعهم و امتلأ النهر ببواخرهم وسيلاشون عبد الله عن وجه الارض . الا تسمع مدافعهم ياغردون ؟

ثم اخذ يضحك ويرقص ويهذى ويصيح مخاطبا غردون الى ان سقط على الارض اعياء ، فحمله ادريس ثم التفت الى الحراس والاسرى وقال لهم

— ان الرجل مجنون . انهم لا يجرأون على مهاجمة الخليفة وقد جاءت بعض سفنهم ثم ارتدت ثانية وهى تطلق نيرانها لانها خشيت ان تغرقها الحصون

صاح الصبي الصغير قائلا

— لقد تعطلت آلات واحدة منها . ستراها الان وهي تغرق . قد تعطلت اخرى . ثم اخرى ، ستغرقها الحصون كلها

جاء ادريس اذ ذاك بسلم صعد عليه الى سطح السجن ليرى بعيني رأسه ما هنا لك ، فرأى البواخر قد وقفت عن السير فعلا ، ولكن لم يكن هذا دليلا على ان آلاتها تحطمت . وانما خشيت التقدم اكثر من ذلك ، وستجد مشقة فى عودتها

نزل ادريس ثم خاطب الحراس قائلا

— لقد دب الخوف في قلب الانكليز . انهم لا يجرأون على مهاجمة الخليفة

على انه لم يكد يفرغ من التفوه بهذه الكلمات حتى سمع دوى المدافع وهى تقصف كالرعد وخيل اليه ان المدينة كلها قد امتلأت بقنابل مهلكة متفجرة . والواقع اخذت المنازل تنهار على نفسها كأنها من ورق وتكدست اشلاء القتلى والجرحى في الشوارع . وكانت زوارق المدفعية قد هدمت استحكامات الحصون الضعيفة اثناء مرورها وشرعت الآن تطلق قنابلها على المدينة نفسها

صرخ الصبي قائلا

— ارى «عفريتاً» جديداً

فقال ادريس وقد تولاه القلق

— اي نوع منها ؟

— تعال وانظر بنفسك يا أبت

صعد ادريس الى سطح السجن ثانية ، فشاهد في الجهة اليمنى من جزيرة « توتى » بريقاً كبيراً ومقدارا اكبر من الدخان ثم سمع دوياً شديداً ، فعلم اذ ذاك أن لدى الجيش المصرى مدافع ضخمة في المؤخرة، وأنه لا تمضي مـدة وجيزة حتى يكون لها تأثير عظيم في ام درمان

سمع ادريس عند الطلقة الخامسة صوت تهدم عظيم ، فنظر نحو مصدر الصوت ثم دقق النظر وهو لا يصدق عينيه اذ شاهد قبة المهدي قد تهدم نصفها . اخيراً نزل ادريس وقال

— لقد ذهبت بركة المهدى وغضب على عبد الله لانه خالف أوامره ، وعندي هذا نذير لنا

ثم سار نحو الدون زارو ، وكان قد افاق اذ ذاك من هذيانه وخاطبه قائلا

— حقا جاء المصريون والانكايز ياسليمان ، وسيجد الخليفة

عند عودته أن المدينة قد تحولت الى رماد ، ولكن ما العمل لكي ننقذ ارواحنا ؟

— لا استطيع أن اقول شيئا يا ادريس ، ولكن ليس في أم درمان كلها مكان خيراً من هذا لوقاية اجسامنا لانه أقوى بناء في المدينة ، ولكن اخبرني هل ستخدم الجيش المصري بحماية الاسرى من أن يغتالهم البجارة فلا تفتح الابواب لاحد حتى يأتي الجنود المصريون الينا ؟

— وهل إذا اتبعت نصيحتك هذه يا سليمان وفتحت الابواب للجنود المصريين تخبرهم أنني كنت صديقا للاسرى ومنقذاً لهم ؟

رأى الدون زارو أن في وسعه أن يقول هذا القول ، فوعده بذلك

فقال ادريس

— هل تريد أن تحملوا بنادق يا سليمان ؟ لدي مائة بندقية هنا في السراير

— كلا سنبقى كما نحن مكبلين بالحديد ، ولكن لك أن تعطي الحراس الآخرين بنادق وتأمرهم بقتل كل من يجرأ من البجارة على الخروج من السجن

— سأفعل ذلك بلا ريب . هل لك أن تصدر الي أوامرك لانني أعرف ان الغلبة ستكون للاعداء وأود أن اكون خادماً لك

— حسن . ضع حارسين مسلحين بالبنادق على باب غرفة «أم حجر» حيث يوجد البجارة ، واذا حاول احد أن يخرج منها مر بقتله رميا بالرصاص

— سأطيع أمرك يا سليمان

كفت زوارق المدفعية عن أطلاق النيران عند سدول الظلام لانها لم تشأ أن تطلق قنابلها سدى بعد اسكات مدافع الحصون

سمع الدون زارو وقع اقدام الوف من الرجال على الرمال دليلا على فرار المنهزمين . وكان الرجال يسألون الحراس عما اذا كان الخليفة في المسجد لكي يخبروه ان الحصون تهدمت وأن المدينة كلها صارت تحت رحمة زوارق المدفعية . على أنه لما علم الخليفة بالامر وهو خارج المعسكر في كرري أمر أن تطلق البنادق بالتحية لكي يحمل الناس على الاعتقاد بأنهم اصابوا فوزاً ، وأن زوارق المدفعية أغرقت ، وأن جيش الاعداء يتقهقر بأقصى سرعة

وكان الشطر الاعظم من الجيش معسكراً خارج المدينة نحو الشمال فاعتقد الناس أن اطلاق البنادق دليلا على الفوز ، ولكن علم فريق منهم أن ام درمان ملأى بالقتلى والمنازل المتهدمة وأن قبر المهدي دمر ، وأنه لا يستطيع أحد الخروج الى الشوارع دون أن يعرض نفسه لخطر الموت

قضى الاسرى القلائل ليلتهم ملتفين حول الدون زارو . وكان

ابراهيم فوزي باشا وحمزة الجعلي وغيرهما يصلون و يبتهلون الى الله أن ينصر المصريين ، الى أن طلع النهار فحملت رياح مصر الشمالية الى آذانهم المرهفة دوي المدافع وطلقات عشرين الف بندقية مرة واحدة ، فأبرقت عينا الدون زارو . وقال

— آه ، هذه بنادق الجنود المصرية والانكليزية ، لقد عرف عبد الله الآن قيمة نفسه . تشجعوا ايها الاخوان . ان حملة الحراب من الدراويش لا يستطيعون الثبات أمام هذه النيران . ستكون هذه آخر معركة للخليفة

اخيراً لم يطق صبراً فمشى يتعثر الى كوخه وأخذ يشتغل بصنع نوع من القلانس لانه ايقن أن الدقائق لا تمر الا اذا اشتغل بأصابع يديه . ومع ذلك قضى وقته وهو على أحر من الجمر الى أن جاء شابان من ساحة القتال وقت الظهر وطلبا اليه اخراج رصاصتين اصيبا بهما ، فسألهما الدون زارو عن المعركة فأخبراه أن الجيش المصري صد الحملة التي قام بها جيش يعقوب دون أن يتزحزح من مكانه وأن الخليفة ارتد بقواته عن جبل «سرغام» وانهما علما عند مغادرتهما ساحة القتال ان يعقوب خسر جيشاً آخر وهو يحاول الاحداق بالجنود الزنوج ، وكاد يقضى عليهم لو لم يصل الانكليز الى نجدتهم في الوقت المناسب . ومع ذلك لو تم لهم ما ارادوا ما تغيرت المعركة اذ كان في وسع القوات الاخرى أن تكتسح امامها جيش عثمان الدين وجيش

علي ودحيلو . وكان الجنود يصبون رصاص بنادقهم كوابل من المطر فيوقعون الاضطراب في صفوف الدراويش . وحدث أن حمل جيش من الدراويش على فرقة الهجانة في جوار النهر فأصلتهم احدى بواخر المدفعية ناراً حامية وصدتهم بعد بضع دقائق . ولا يأتي الليل حتى يدخل الجيش أم درمان ويقضي على جميع من يلقاهم في طريقه.

صاح الدون زارو عند سماع هذه الانباء قائلا .

— تعال يا ادريس . لقد ضاعت اعمال عبد الله كلها وذهبت أدراج الرياح . لقد قضى الجيش المصري في ساعات قليلة على جيشه كما قضى عبد الرحمن النجومي على جيش هكس باشا . وقد مات يعقوب ورجاله وكاد يصيب عثمان الدين وعلي ودحيلو ما أصاب يعقوب ولا تمضي ساعات قليلة حتى تسمع الموسيقى وهي تصدح أمام الجنود عند دخولها أم درمان ، وسيسقط أمامهم كل رجل مسلح فلا يقوم بعدها ، أما الذين يسلمون فسينجون من الهلاك

فقال ادريس السابر .

— وأنا ؟ ماذا يكون نصيبي ؟

— سأحميك . سيأتي المصريون والانكليز اخواننا واخوان ابراهيم فوزي باشا واخوان حمزة الجعلي

الفصل الثالث والاربعون

أمام أم درمان

ظل جيش مصر العظيم ينشر قواته طول النهار على ضفة النيل اليسرى الى قرية « العجايجة » وسهل كرري . وكان النهر الواسع على اليسار حيث يصب النيل الازرق مياهه المشبعة بالطمي في النيل الابيض على حين كانت أمامهم تلال صخرية منخفضة لا يرى فيها دليل على الحياة ، ولكن أخذ قلب كل جندي يخفق بشدة اذ كان المعروف أن مدينة المهدي المقدسة وجيوش الخليفة تقع وراء هذا الافق الرهيب

ظلت طوابير المشاة تتدفق طول النهار الى القاعدة التي اعدت للزحف منها على ام درمان ومهاجمة المدينة في الغد . فتقدمت الارطات الانكليزية أولا تليها الارطات المصرية ثم السودانية

احتشد أربعة وعشرون ألاياً من المشاة الذين تعطشوا للقتال في قرية « العجايجة » في أول سبتمبر سنة ١٨٩٨ . ورابط كل لواء منها في الساحة المعدة له فوقفت ست فصائل من الجنود البيض في خط القتال واثنتان وراءها ووقفت أربع فصائل من المصريين والزنوج في خط القتال مع اثنتين في المؤخرة

وكان على الجيش أن يقضي الليل متأهباً للقتال مع جنود

الاستكشاف في المقدمة لأن القواعد الحربية تقضي على الخليفة ان ينقض بقواته على الجيش المصرى في تلك الليلة بعد أن رأى اعداءه قد تأهبوا للقائه ، ولكن لم يكن ثمة ريب في أن الدراويش قد جمعوا قواتهم كذلك بالرغم من السكون البادي على التلال

ركب هكتور ماكدونالد قائد اللواء الثانى المصري، جواده وأخذ يتفقد حالة الخطوط فرأى لامبرت واقفا تبدو على وجهه حالة غريبة لم يعهدها من قبل، فسأله قائلا

— ماذا جرى يا اليفانت ؟ هل تشكو ألما ؟

— كلا يا سيدي . انني بخير

— اذن ماذا دهاك ؟ أي قلق يمكن أن يصيبك ؟ لم تتلق خطابات منذ مدة طويلة ، فماذا جرى ؟

— انني متألم يا سيدي لأن هناك فتى اعرابيا في خدمة ذاك الرجل اليونانى الذي يقدم المؤن الى الجيش . وهذا الفتى تقع عيناي عليه من وقت الى آخر فيذكرني — يذكرني بشخص أعرفه

تذكر لامبرت فجأة أن ليس بين رؤسائه الضباط من يعرف سر زواجه ، فقال الضابط

— هل ذكرك بشخص عزيز لديك ؟

فأشار لامبرت اشارة خفيفة برأسه ولكن الضابط لاحظها في الحال وقال

— هل هي تلك المرأة التي انقذناها بعد معركة توشكي ؟ قد

تكون مغرما بها يا اليفانت ، ولكن ليس هذا وقت التفكير بالنساء . لا اجهل انك جندي شجاع وأن هؤلاء الجنود السود يسيرون بابتهاج معك الى الموت ، ولكن يجب ايها الرجل أن لا تستسلم لافكارك هذه ونحن على وشك معركة شديدة

تورد وجه لامبرت خجلا بالرغم من سمرته ثم قال

— انك مخطئ ياسيدي . لست أفكر في تلك المرأة مطلقا

— اذا لم تكن تفكر في تلك المرأة ففيمن تفكر اذن ؟

— نعم أفكر بامرأة يا سيدي ، ولكنها ليست تلك المرأة ولا أفكر فيها بالوسيلة التي تظنها ، لقد ذكرني رؤية الصبي الاعرابي بأغلاط تلك المرأة ، التي سبيت في الخرطوم واتخذها المهدي زوجة له لجمالها

— لا أرى علاقة بين هذا وذاك

— وضعها المهدي في حريمه يا سيدي وحاول أن يكرهها على أن تكون زوجة له . . . ولكنها . . . ولكنه لم يفلح لأنه مات . وبعد ذلك عاشت عيشة تعسة في أم درمان الى أن تمكنت من الفرار فقطعت خمسمائة ميل في سبعة أيام على ظهور الابل واجتازت الصحراء

— أذكر ذلك، فقد هربت مع الكاهن النمسوي ولكني لا أرى الى الان ما علاقة هذا بحالتك هذه يا اليفانت التي لا أظن أن يراها أحد على وجهك لو كنت مساقا الى الموت

— لذلك علاقة كبرى بحالتي هذه يا سيدي، فقد أحببت تلك الفتاة ولا أود في العالم شيئاً اكثر من أن اتخذها زوجة لي — هذا قبل سفرها الى السودان، والآن لا استطيع أن أذكر انها ذهبت الى الخرطوم ثم اصابها ذلك هناك

— نعم هذا مؤلم للنفس يا اليفانت، ولكن لماذا تفكر بها الآن في وقت يجب أن تتحول فيه كل أفكارك الى المعركة التي سنخوض غمارها غداً ؟ أريد أن ننقض على الاعداء بقوتنا عند طلوع النهار ولا ندع منهم احداً يفلت من أيدينا

لم يلاحظ لامبرت كلمات القائد الاخيرة وانما اجابه على الشطر الاول من كلامه فقال

— انني أفكر في المعركة يا سيدي. الاترى انني أفكر في المعركة ؟ ليس بين هؤلاء الجنود من يتعطش مثلي الى دماء الدراويش. ان ظهوري بهذا المظهر هو لتعطشي الى دمائهم التي أريد ان تسيل مثل هذا النهر لكي تمحو الاهانة التي لحقت المرأة التي اعبدها وأهواها. هل أدركت كل شيء الآن يا سيدي ؟

سار القائد بجواده دون أن يفوه بكلمة. وكان قد شهد معارك عديدة ورأى دماء تسفك لم يرها أحد من ضباط الجيش المصري ولكنه رأى في أقوال لامبرت ما أوقع الحيرة في نفسه

الفصل الرابع والاربعون

يوم أم درمان

انتهى ليل أول سبتمبر سنة ١٨٩٨ الطويل. وكان جنود الاستكشاف باتوا طول ليلتهم متأهبين للعودة في لمح البصر الى الجيش عند سماع اقل حركة لانذار رفقائهم بقدوم جيش الدراويش الجرار للهجوم، ولكن انقضى الليل بسلام

نعم لم يقدم الخليفة على الهجوم تلك الليلة لان سم الارتياب والشك الذي نفثه الدون زارو في عقله المملوء مكراً ودهاء، كان قد ثر تأثيره فاعتقد ان اعداءه يريدون أن يحملوه على الهجوم عليهم ليلا لكي لا يستطيع جنوده رؤية الالغام التي وضعت لنسفهم في الهواء، ولم يشأ أن يسمع قول جاسوسه الابيض الذي قال له إنه يستحيل على الجيش المصري أن يضع الغاماً واسعة النطاق كالتي يرتاب في وجودها في ساعات قليلة، و إن مخبره كان يهذي عند ما أخبره أن الاعداء يستطيعون أن يبثوا لجنوده الغاماً يرونها بالنهار ولا يستطيعون رؤيتها ليلا

لم يقتنع الخليفة بشيء من ذلك ووضع خطته الحربية على اساس

المعلومات التي جمعها عن المعارك التي دارت بين جنوده و بين قوات الجيش المصري . فقد لاحظ أن اعداءه يحملون حملتهم وقت الفجر عادة فأخفى جيشاً كبيراً في التلال الواقعة خلف جبل سرغام للانقضاض به على مؤخرتهم اثناء زحفهم للهجوم على المدينة قبل طلوع النهار وكان الدون زارو قد اقنعه تماماً بأن الاعداء سيكررون حركاتهم هذه كالعادة ثم ارسل بواسطة جواسيسه كلمة الى السردار قال فيها أنه يعتقد أن الخليفة صدقه وعول على اتباع نصيحته ثم أوصاه أن يخيب ظن الخليفة

والواقع لو حرك السردار جيشه الى مكان يستطيع منه مهاجمة المدينة وقت الفجر لانقض جيش الخليفة على مؤخرته أو جناحه اثناء زحفه ليلا دون أن يخشى الالغام ، ولاستطاع أن ينزل بقواته خسارة فادحة اذا لم تستطع التغلب عليه . بيد أن السردار لم يكن ينوي مقاتلة الدراويش في المدينة حيث يستطيع الاعداء أن يحولوا كل منزل الى حصن، وأن يتقهقروا متى أرادوا وانما كانت خطته ترمي الى استدراج جيش الخليفة خارج المدينة ثم زج جيشه بين العدو والمدينة

انقضى الليل دون أن تطلق رصاصة واحدة فخرج الفرسان البريطانيون عند طلوع الفجر الى اليسار وسار الفرسان المصريون الى اليمين لعلهم يستطيعون حل هذا اللغز ويدركون السر في هذا السكون وخلو التلال من الاعداء . على حين استجمعت المشاة قواها وتأهبت للقتال ، ولو أنه لم يبد أي دليل على نية العدو الذي لا يحتمل أنه

يجره الجهل الى الخروج الآن من استحكامات المدينة ومواجهة نير
البنادق الحامية بعد أن ضاعت منه فرصة الظلام في الليل

وكان كل رجل فى الجيش — عدا قليل من القواد — يتو
فى كل لحظة تلقى الامر بالزحف على ام درمان ، ولكن لم يحدث ش
من ذلك وبقيت المشاة فى خطوطها بعضها خلف «الزريبة» والبع
الاخر خلف الخنادق ، مع المدفعية الانكليزية فى طرف الج
الايسر ، تليها ارطتان من الجنود الانكليزية ثم ثلاثة الوية
الجنود المصرية ورابع احتياطي. وكان خط المشاة الطويل يرابط
شكل نصف دائرة قاعدتها النيل ، تحمي طرفيها زوارق المدفعية ،
حين كانت المدفعية المصرية ومدافع مكسيم منصوبة على مسا
معينة وسط المشاة

ظل السكون سائدا جميع المنطقة المحيطة بالجيش ، الى
شوهد فارس مصري يعدو بجواده من ناحية جبل سرغام
ظهر فارسان اخران ثم جميع الفرسان الاخرى ، ففاه رجال الج
كلهم دفعه واحدة قائلين

— لقد أتوا !

بدأت المعركة بلاريب ، فلم تمض دقائق معدودات
شوهدت اعلام بيضاء ترفرف فى المكان الذى اجتازه الفر

توا ، ثم سمعت اصوات مختلطة خافتة تحولت الى قرع الطبول ، واصوات وصيحات تخرج من حناجر وحشية

نظر الرجال بطبيعة الحال كل الى ساعته ، فكانت الساعة السادسة والنصف . وبينا كانت الاصوات البعيدة تقترب اذ دوى احد المدافع . والظاهر ان دويه هذا كان كتعويذة سحرية ، فلم تمض دقيقة واحدة حتى شوهدت خطوط طويلة من الاشباح البيضاء تتقدم الى الامام بسرعة لا تقل عن سرعة الجياد . وكانت هذه الجموع لا تحفل بنيران المدافع فظلت تتدفق باطراد الى الامام ، ولو ان صفوفهم اضطربت قليلا عند ما اطلقت الجنود المرابطة في الميسرة بنادقها عليهم مرة واحدة ، ولكن لم تمض لحظة حتى استرد الدراويش نظامهم وغيروا وجهتهم فتلقوا وابلا آخر من الرصاص واذ ذاك رأوا انهم يقاتلون خطا طويلا من المشاة فعادوا الى وجهتهم الاولى وواصلوا الزحف .

انطلق الدوريش على اثر هذه الصدمة غير مبالين برصاص المشاة المصريين وهو يفتك بهم فتكا ذريعا ، ولا بنيران المدافع المصرية التي نصبت بين المشاة واخذت تمطرهم وابلا من رصاص « شرابنل » . فكان كلما سقط صف منهم تقدم آخر وحل مكانه

واصل الدراويش الزحف في وجه نيران حامية ، يشد ازرهم حملة البنادق الذين اخذوا يطلقون رصاصهم على المركز الذي رابط فيه

المشاة الانكليز . وكان الدراويش يشفقون من تحمل هذه النيران . اما البجارة فقد برهنوا على شجاعة تبعث على الاعجاب . نعم لم يتقدموا بعد ذلك ولكنهم لم يتقهقروا أيضاً لانهم كانوا يسقطون اثناء زحفهم الى الامام . وكانت العين لا تشاهد غير بساط من جثث بيضاء فرشت وجه السهل الواسع . وكانت هناك خطوط اخرى من الجنود المصرية والانكليزية والسودانية ترابط في خطوطها تنتظر قدوم قوات جديدة من العدو

وكان جنود الارطة الحادية عشرة السودانية مرابطين نحو اليمين مع ضابطهم لامبرت ، ولم تكن الفرصة قد اتيحت لهم الى الان لا طلاق رصاصة واحدة . واتفق ان مر بهم القائد ليتفقد خطوطهم فخاطب لامبرت قائلا

— تمهل يا اليفانت . سيأتي دورنا عند ما نصل الى ام درمان اذ لابد من انتزاع الحصون والمعاقل هناك

كانت الساعة الثامنة الان فمضى نحو نصف ساعة ، تبادل الفريقان فيها اطلاق البنادق . فكانت هذه اخف معركة في الحرب كلها

وكان عثمان الدين قد اخذ يقيم البرهان على انه خير من يخلف عبد الله وذلك بما كان يظهره من الجرأة والاقدام في قيادة جزء آخر من الدراويش ، رابط به نحو الشمال . فقد رأى بثاقب فكره

ان نقطة الضعف في خطوط السردار هي التي يرابط فيها اللواء المصري في الشمال فحول هجومه نحوها . على ان السردار كان يعرف نقطة ضعفه هذه ولذا امر قائد الفرسان المصريين ان يتحرك بقواته الى الامام لاستدراج الدراويش وتحويل هجومهم اليه

زحف الكولونيل بتسع فصائل من خيرة الفرسان المصريين وبفرقة الهجانة ومدفعية الجياد ثم رابط في تلال كرري، وهي سلسلتان متوازيتان من التلال يفصل بينهما واد عرضه الف خطوة ، يتجه نحو النيل الى نقطة تبعد عن النهر مسافة وجيزة . وكان في الطاقة حماية الابل والجياد من النيران في الوادي ، فشرع الجنود يطلقون النيران من سلسلة التلال الجنوبية ، ومدفعية الجياد تطلق نيرانها من ناحية النهر، وهو المكان الوحيد الذي كانت تستطيع فيه التحرك

برهن عثمان الدين على مقدرته العسكرية فعدل عن مهاجمة اللواء المصري وتحول الى قوة الفرسان الجريئة التي افسدت عليه حركة التطويق التي اراد القيام بها ، واذ ذاك حلق الموت وجوه الفرسان لان قوات عثمان الدين كانت تحتضن الاكام الواقعة في الطرف الغربي ، بعيداً عن نيران مدفعية الخيالة

راي قائد الفرسان الخطر المحدق به فانسحب برجاله الى الاكمة الشمالية قبل ان يلحقهم العطب . اما الهجانة فلم يستطيعوا التحرك

بسرعة كمشاة الدراويش لان تلال كرري وعرة ، كثيرة الصخور لا تستطيع الابل السير فيها بسهولة

وكان القائد قد تلقي الامر بالانسحاب الى « الزريبة » ولكنه انسحب شمالا على امل أن يستدرج هذا الجيش الجرار ، المؤلف من خمسة عشر الف مقاتل، بعيداً عن ساحة القتال . فاذا استطاع ذلك بقوته الصغيرة كان لعمله هذا تأثير هام في نتيجة المعركة . بيد انه رأى ان فرقة الهجانة لا تستطيع التحرك بسهولة بحيث تشترك في حركته هذه ، فأمر قواته بالارتداد الى المشاة . ولكن جاء امره هذا بعد فوات الفرصة لان الدراويش كانوا قد فطنوا الى غايته هذه فحولوا وجهتهم وتركوا قوة كبيرة منهم للاشتباك مع الفرسان ثم حملوا في الوادي نحو الاكمة الجنوبية بقوتهم الكبري ليحولوا بين فرقة الهجانة والزريبة ، ثم تقدموا حتى صار جيشهم الجرار على مسافة اربعمائة خطوة من فريستهم ، ولا تمضي دقائق قليلة حتى يقضى على الهجانة الابطال

لم يكن الكولونيل من الضباط الذين تسمح لهم نفوسهم بوقوع مثل هذا العمل على مشهد منه . فاصدر امره الى الفرسان المصريين بالتأهب للهجوم لاستدراج الدراويش وابعادهم عن الهجانة . على انه راى انه اذا هجم فرسانه على الاعداء فانهم لا يهجمون عليهم كفاتحين بل كشهداء ، فقرض على انيابة عند ما شعر بعجزه لان

الولفًا من حملة الحراب كانوا قد تدفقوا الى السهل والقوا بانفسهم بين الهجانة المصريين والزريبة

راى الهجانة موقفهم هذا فتأهبوا لكى يبيعوا ارواحهم غالية فامرهم ضابطهم بالترجل وتركيب حرابهم فى بنادقهم ثم الا لتفاف حول ابلهم على شكل مربع واطلاق نيران البنادق على الدراويش الذين لما رأوا فريستهم بين مخالبهم القوا جموعهم كلها بين الفرسان المصريين والنجدات قبل ان يتجهوا يسارا لمداهمة الهجانة . وقد وثق الدراويش بالفوز عند ما رأوا ان ليس هناك أمل بوصول اية نجدة الى الهجانة ، ولكن الفرصة لا تعرف صفحًا . اذلو هبطوا من التل وانقضوا على الهجانة مباشرة لقضوا عليهم بلا مراء دون ان يجدوا ما يحول دون غايتهم . وقد ظلت هذه الفرصة سانحة لهم الى هذه اللحظة ولكنهم لم يكادوا ينظمون صفوفهم للهجوم حتى سمعوا دويا هز الارض من تحت ارجلهم فحولوا أبصارهم نحو النهر فرأوا سحابة من الدخان ترسل نارًا لامعة اليهم ، ثم لم يلبثوا ان شاهدوا مئات منهم يسقطون على الارض من تلال كرري الى النهر صفا وراء صف . وعندئذ ادرك الهجانة المصريون الذين كانوا قد تأهبوا لملاقاة الموت بشجاعة واقدام ، ان الاسطول النهرى قد انقذهم من الهلاك

وكانت الزوارق قد تلقت الاوامر بحراسة اطراف الزريبة ، فلم

تجد عملا تعمله غير الترقب والانتظار . الى ان لاحظ قائدها ان الدراويش قد غيروا وجهتهم وحولوا هجومهم نحو النهر ، فانتقلت الزوارق على اثر هذه الحركة وسارت الى مكان تستطيع ان تطلق منه نيرانها دون ان تمس الزريبة والهجانة . ثم شرع يراقب حركات الهجانة على اعتقاد انهم قد يحتاجون الى مساعدته . وقد تأهب رجاله لتقديم هذه المساعدة في كل لحظة فوقف كل منهم في مركزه الى ان تلقوا الامر باطلاق النيران ففغرت المدافع والمترا ليوز والبنادق افواهها وصبت نيرانها مرة واحدة على جموع الدراويش الزاحفة ، الى ان تولدت سحابة من الدخان بعد قليل عاقت اعمال البنادق ، ولكن رجال المدافع والمتراليوز كانوا مدربين على القتال فظلوا يطلقون النيران بنظام وشدة الى ان رأى القومندان ان مدافعه اوقفت تيار العدو فامرها بالكف عن اطلاق نيرانها حتي يستطيع التزحزح من مكانه والتخلص من ستار الدخان . فلما تم له ما أراد استانفوا مهمتهم وعادت مدافعهم تحصد الصفوف حصدا ، الى ان وهنت قوة الدراويش ولم يعد في طاقتهم مواجهة النيران القتالة فالتجأوا الي التلال . على حين ظل الهجانة المصريون ثابتين فى مركزهم واخذوا يمطرون الدراويش من جهة اخرى وابلا من رصاص بنادقهم . وقد ارادوا ركوب ابلهم والانضمام الى المشاة ، ولكن

الجندى المصرى حريص على النظام العسكرى فاطاعوا ضابطهم وظلوا ثابتين عاقدين العزم على ان يلعبوا دورهم الى النهاية ، حتى يحملوا الدراويش على الاسراع فى الهرب وعندها يعودون بابلهم الى الزريبة آمنين

رأى عثمان الدين ان حملته التى وجهها نحو النهر قد صدت . وأن الرجال الذين حصدتهم نيران المدافع هم حملة الحراب ، فارسل من نجا منهم لانجاد حملة البنادق الذين كان قد احتفظ بهم لمقاتلة الفرسان الذين فروا امام حملة البنادق من الدراويش وقطعوا ثلاثة اميال طويلة نحو الشمال ، لان نيران الدراويش كانت خطرة عن قرب فقط . وكانت الارض رخوة لا تصلح للمدفعية فغاصت عجلات المدافع فى الرمال واذ ذاك اخذ رجال عثمان الدين من حملة البنادق يصوبون نيرانهم الى الفرسان والجياد . ولكن قبض قائد الفرسان على زمام الحالة . ولم يكن يخشى وقوع مدافعه في ايدى الدراويش لانهم كانوا يجهلون استخدامها، على حين رأى ان محاولة جرها أو تعطيلها يعرقل قواته فاصدر امره الى جنوده بانزال المدافع عن ظهور الجياد ثم الابتعاد عنها الى نقطة يستطيعون منها اصطياد الدراويش وهم يشتغلون بغنيمتهم . والواقع لما ضيقت قوة الدراويش الكبرى عليه الخناق اطلق لجواده العنان وسار بالفرسان المصريين الى ان استدرج الاعداء

الى مسافة بعيدة خارج ساحة القتال فلم يعد في وسعهم الأشتراك في تقرير مصيرها

ابتهج العرب ابتهاجا عظيما عند ما دفعوا الفرسان المصريين وا كرهوهم على ترك مدفعين لا اهمية لها ،لان الاستيلاء على المدافع يعد فوزاً باهراً فى اعين الدراويش فالتفوا حولها كما يعف الذباب على الجيفة ، على حين اطلق فرسانهم لجيادهم الاعنة وحملوا على مؤخرة الفرسان المصريين اثناء ارتدادهم . على انهم كانوا يقاتلون جنوداً مدربة على القتال اذ لم يكد يستدرج المصريون اعداءهم بعيداً عن المشاة حتى قاموا بحركة باهرة وحملوا عليهم حملة صادقة ردتهم على اعقابهم خاسرين. وكانت زوارق المدفعية تراقب ما يجرى كالعادة لانتهاز الفرصة ، فلما رأى قومندانها الفرسان المصريين قد افسحوا له الطريق، صب نيران مدافعه على جموع الدراويش الذين احتشدوا حول المدفعين واصلاهم ناراً حامية واكتسحهم بعيداً عن النهر بسهولة عظيمة . ولما دحر الفرسان المصريون فرسان الدراويش الذين التجأوا الى التلال ، استردوا المدفعين اللذين تركوهما ثم عادوا بهما الى الزريبة

راى السردار ان الفرصة سانحة للقيام بحركته الكبري بعد اكتساح جيش الدراويش بعيداً عن السهل ، فاستقر رأيه على أن يلقى بقواته على المدينة قبل ان يستطيع الخليفة وجيشه العودة اليها . ولكن كان عليه قبل كل شيء ان يقوم بحركة استطلاع لكي

يرى ان ليس هناك قوات تقف في طريقه : ولم يكن السردار قد اصدر أمره بعد ولكن كان الجميع يتوقعون صدوره

وقف الفرسان بجانب جيادهم ولم تمض لحظة حتي شاهدوا قائدهم يشير الى الاكمة الواقعة أمام جبل سرغام ، وهو التل الذي كان يحدد الافق أمامهم وسمعوا الامر بالركوب والزحف ، فساروا تتقدمهم فصيلتان او ثلاث لاستطلاع الطريق ، ولكن لم يروا للعدو أثراً ولم يشاهدوا غير صخور جبل سرغام الى اليمين وسهلا يمتد من هناك الى أم درمان ، وقد سارت فيه جماعات قليلة من الدراويش من مشاة وركبان ، على حين شوهد على مسافة ثلاثة أميال سيل جارف من الجرحى والهاربين ، يتدفق الى المدينة

تقدم الفرسان ، وبينا كانوا يشتغلون بتذليل العقبات التي اعترضتهم إذ شاهدوا رماة الدراويش بين صخور جبل سرغام وقد شرعوا يرمونهم عن ظهور جيادهم ، فترجلوا عن جيادهم واحتموا بين الصخور . وبينا كانوا يطلقون بنادقهم على اعدائهم سمعوا قائدهم يصدر اليهم الامر قائلا

— الى الامام . طهروا الاكمة اليسرى . وابذلوا جهدكم لمنع العدو من دخول أم درمان

رأى الفرسان الدراويش وهم يعودون الى المدينة بالمئات . وكانت طبيعة الارض تلائم أعمال الفرسان ولكن القائد ارسل

دوريتين فقط تؤلف كل منهما من خمسة جنود فاتجهت احداهما الى جبل سرغام دون ان تكترث بطلقات البنادق ، واطلقت الاخرى لجيادها الاعنة في طريق أم درمان ثم عادتا ، فقال ضابط احد الدوريتين ، ان ليس ثمت خطر من ناحية جبل سرغام أو من ناحية اخرى ، وقال ضابط الدورية الاخرى انه وجد خوراً قليل الغور طوله ثلاثة ارباع الميل يتجه نحو الجهة الجنوبية الغربية به نحو الف جندي من الدراويش ، فابتهج الأربعمائة فارس البريطاني بهذه الفرصة التي ستمكنهم من مهاجمة الاعداء ومطاردتهم الى ابواب المدينة

وكان الجنود المرابطون في الخور من قبيلة «الهدندوة» أي من رجال عثمان دجنة . وكان السردار قد حظر على القومندان مهاجمة الدراويش إذ لم يكن لديه غير آلاي واحد من الفرسان الانكليز في الجيش ، فأراد أن يدخرهم لاعمال الاستطلاع ومطاردة الاعداء ولم يشأ تضييعهم في مقاتلة حملة الحراب وجهاً لوجه . فأصدر القومندان أمره بالالتفاف حول طرف الخور ، ولكن لم يرق عمله هذا في أعين الهدندوة فأرسلوا نحو مئة من رجالهم الى الفرسان ليكرهوهم على مهاجمتهم واطلقوا بنادقهم عليهم فقتلوا عدداً منهم

أصدر القومندان إذ ذاك أمره بالهجوم فاندفع الفرسان بجيادهم الى الخور ولم تمض لحظة وجيزة حتى أدرك قائدهم ان قواته وقعت في

كمين، إذ شاهد نحو ثلاثة آلاف من الدراويش ملتفين حول نحو اثني عشر علما . على ان هذا المشهد أثار نار الحمية في صدور الفرسان فاندفعوا كتلة واحدة على الاعداء . وقد اصيب العرب بصدمة شديدة لهذه المباغتة واضطربت صفوفهم واختلت جموعهم ، فانتهز الفرسان هذه الفرصة وإعملوا فيهم حرابهم الى ان شقوا لانفسهم طريقاً وسط الخور . ولكن حمي وطيس القتال لان الفرسان وقعوا بين فريقين من الاعداء الذين كانوا يلقون بأنفسهم عليهم و يتشبثون باعنة جيادهم و يجذبونهم عن ظهور جيادهم و يضربونهم بسيوفهم و يطلقون بنادقهم على الجياد والفرسان

حمي وطيس القتال بين الفريقين فتمكن للفرسان الانكليز من التخلص بشق النفس ، فاصطفوا في طرف الخور بعد ان فقدوا ربع جيادهم ونصف رجالهم ولم تعد لهم قيمة في القتال . وقد أراد الفرسان أن يعيدوا الـكرة على الاعداء لانقاذ زملائهم الذين سقطوا في الخور ، ولكن الكولونيل أيقن ان الدراويش أجهزوا عليهم على أثر سقوطهم

توقع الدراويش الهجوم عليهم ثانية فجمعوا جموعهم وتأهبوا للقتال . على أن الفرسان التجأوا الى مناورات الصحراء فاطلقوا لجيادهم الأعنة وداروا حول جناح الدراويش الى أن وصلوا الى نقطة يستطيعون اطلاق البنادق منها ، فترجلوا وشرعوا يطلقون بنادقهم

على الدراويش الذين غادروا الخور وأخذوا يزحفون على الفرسان . وكان هؤلاء يعلمون ان هلاكهم محقق اذا هم تزحزحوا عن مكانهم خطوة واحدة فثبتوا في مراكزهم وظلوا يطلقون بنادقهم باحكام الى ان اضطر الدراويش في النهاية الى الانسحاب في صفوف غير منتظمة نحو العلم الاسود الكبير الذي كان يرفرف على جبل سرغام ، وهكذا بقي الفرسان الانكليز في مراكزهم مع قتلاهم . نعم كانت مهمتهم استطلاع الآكام المحيطة بجبل سرغام ، ولكن غلطتهم التي ارتكبوها جعلت الفوز أتم .

الفصل الخامس والاربعون

لامبرت وجنوده

خاطب لامبرت ضابطه وصديقه القائمقام ثرسبي قائلا

— آلا سحقاً لهذا الحظ السيء ياجورج ، أليس لنا نصيب في القتال ؟

— لا تعجل ، ستملأ بطنك يا اليفانت . اتظن ان السردار استبدل لواءنا بلواء من الجنود المصريين عبثاً ؟

— أظن انه فعل ذلك لانه لا يريد ان يعرض نفسه للخطر

— قد يكون ذلك

صدرت الأوامر إذ ذاك الى جنودهم بالزحف غرباً . وكان اللواء البريطاني الاول قد تلقى الامر بالاسراع للالتحاق باللواء الثاني الذي سار في المقدمة ، على حين حل اللواءان المصريان الأول والثاني مكانهما ، فقال لامبرت

—لابد ان تكون هذه حركة تطويق، وقد يتاح لنا الاحداق بقوة من الدراويش في النهاية

فقال ثرسبي — قد يكون ذلك

ثم عاد فلزم الصمت . أما لامبرت فلم تقنع نفسه المتعطشة للقتال بذلك فرفع منظاره وأخذ يتفقد ساحة القتال ، فشاهد اللواءين البريطانيين يجتازان الاكمة الواقعة وراء جبل سرغام ورأى اللواء المصري الأول تحت الجبل مباشرة ، واللواء الثاني يجد في اثر الاول أما اللواء الثالث المصري الاحتياطي فكان مرابطا نحو اليسار . على انه خيل الى لامبرت انه اكتشف بمنظاره شيئاً يتحرك نحو الطرف الشمالي لجبل سرغام، ورأى الارطة العاشرة السودانية التي في المؤخرة تتحرك الى الامام لا الارطة الحادية عشرة التي في المقدمة

إذن لا بد في الامر شيء

علم لامبرت بعد مضي خمس دقائق ان صلاته اجيبت ، لانه شاهد علم الخليفة الاسود مرفوعاً فوق قمة التل ورأى يعقوب — مع عشرات من الاعلام المختلفة الالوان — على رأس حرس الخليفة ، وهو مؤلف من خمسة عشر الف مقاتل من احسن جنود المهدي، يحمل على الثلاثة آلاف جندي الابطال الذين بقيادة الكولونيل ماكدونالد

وكان لامبرت يجهل ان السردار شاهد كل شيء، وانه أمر اللواء المصري الثاني في الميمنة واللواء البريطاني الثاني في الميسرة بالتقدم لانشاء خط واحد مع اللواء المصري الاول ثم الزحف على حرس الخليفة وتخفيف العبء عن كاهل الكولونيل ماكدونالد ، كما كان يجهل ان السردار أطلق لجواده العنان نحو الاكمة لتفقد

اللواء البريطاني الاول ثم اصدار الامر اليه بسد الثغرة بين اللواء المصري الثاني وميسرة ماكدونالد

تأهب ماكدونالد للقتال دون ان يحسب لوصول النجدات اليه حساباً . وكان يعلم أن جنوده السود يفضلون منازلة الدراويش بالحراب ويهملون أقوى سلاح في أيديهم وهو نيران البنادق لكي يمسكوا بتلابيب خصومهم ويلقوهم وجهاً لوجه ، لان الجندي السوداني في الجيش المصري كان كفئاً لمنازلة أقوى جندي من الدراويش بحربته ، ولكن كان عدد الاعداء خمسة اضعاف عدد الجنود السود على حين كان هؤلاء يتعطشون دائماً لدفن حرابهم في صدور الدراويش وسماع صوتها وهي تمزق أجسامهم ثم رؤية الدماء وهي تسيل من جراحهم

لم يكن بين الجنود السود جندي اكثر تعطشاً لسفك دماء الدراويش من لامبرت الذي أراد الفتك بهم وسفك دمائهم لتكون كفارة عن الاهانة التي لحقت فرنشسكا على ايديهم ، فشهر سيفه ثم أمر جنوده ان يطلقوا نيران بنادقهم بأحكام فأطاع الذين سمعوا الامر منهم نداءه لا سيما بعد أن رأوه ثملا بخمرة الحرب .

وكان الجنود السود يمقتون البجارة الذين استعبدوهم زمناً طويلا فكانوا يقاتلون دفاعاً عن كيانهم ولذا لم يروا رفاقهم الآخرين

الذين اندفعوا بحرابهم واستولوا على المنحدرات الاخرى من جبل سرغام

وكان عمال النقل — الذين كان بينهم ذاك الفتي الاعرابي الذي كانت عواطف لامبرت تتحرك عند رؤيته — يعملون بجد ونشاط خلف اللواء المصري الاحتياطي . ولا يزال رجال المستشفي في الزريبة بجانب شاطىء النهر ، على حين وضع الجرحي في الزوارق التي تحمل المؤن والذخيرة بخفارة فصيلتين من المشاة . اما الفرسان المصريون فلم يكن قد جاء دورهم بعد لانهم كانوا يشتغلون بنقل جرحاهم .وكانت زوارق المدفعية قد انحدرت في النهر واخذت تطلق نيرانها على جنود عثمان الدين ، نجل الخليفة عبد الله ، وهم الجنود الذين كانوا يطاردون الفرسان المصريين ليسوقوهم الى الصحراء فلم يفلحوا

وجد الجيش الجرار بقيادة عثمان الدين وعلى رد حيلو ملجأ له في الداخلية . فشرع يتحرك نحو الجنوب ثانية بعد عودة الفرسان المصريين الذين كانوا يجهلون ان المشاة غادروا الزريبة ، فرأى هنتر الخطر الذي كان يتهدد جنود ماكدونالد اكثر من ماكدونالد نفسه

ولاحظ ان نيران الجنود السود لا تحصد جنود يعقوب كما يجب ثم رأى الثغرة المخطرة بين ميمنة اللواء المصري وميسرة الجنود السودانية فاطلق لجواده العنان ليلفت نظر السردار الى هذا الخطر .

وكان السردار يقدر آراء هنترا كثر من آرائه الخاصة فامر الالوية

الثلاثة التي كانت تسير غربا للاستيلاء على جبل سرغام ، بان تغير وجهتها وتسير شمالا الى ان تحدث زاوية قائمة مع قوات ما كدونالد فخففت هذه الحركة الضغط عن كاهل الجنود السودانية فقد كان على كل جندي من جيش يعقوب ان يجتاز ستار النيران التي أسدلها اللواء البريطاني اولا واللواءان المصريان ثانيا

على ان هـذه النيران على شدتها لم تمنع تدفق الدراويش فكانت الحراب تلتقي بالرماح كثيراً ، ولم يكن شر خطر يتهددهم من جانب البجارة الذين القوا بانفسهم على اسنة الحراب، وانما كان من جانب ثغرة اكتشفوها بين خطوط النيران الطويلة على جانبهم وخط ما كدونالد الطويل امامهم ، يستطيعون اختراقها والالتفاف حول جناح ما كدونلد . فلما ادرك هنتر هذا الخطر أمر الجنود المصرية الاحتياطة من الارطة السابعة بالتقدم ، فنشرت خطها وتقدم الجنود لسد الثغرة . على أن البجارة القوا جموعهم عليهم قبل ان يتأهبوا للقتال وعلى ذلك اخذت الجنود المصرية ترتد امام هذه الحملة العنيفة خطوة خطوة وهي تناضل عن كل شبر من الارض . ولما رأي لامبرت موقف المصريين الحرج لفت نظر الكولونيل ترسي اليه . ولم يكن لهذا ان يصدر امراً ولكنه وجد الخطر محدقاً بالجميع فامر لامبرت بالتقدم بجنوده الاحتياطية من الارطة الحادية عشرة السودانية لامداد الارطة السابعة المصرية .وكانت الجنود قد ركبت حرابها في

بنادقها فاندفعت خلف لامبرت الى نقطة الخطر . وكان هنتر قد لاحظ حرج الموقف فاطلق لجواده العنان ليتلافى الخطر بنفسه. وكان يعرف ان الجنود السودانية لا تحكم الرماية مثل المصريين ، وأن البجارة لا يمكن صدهم الا بنيران البنادق لا بالحراب فاصدر امره الى لامبرت ان يرابط خلف الجنود المصريين ويستعد للطوارئ

غير ان البجارة كانوا يتدفقون كالسيل بحيث لا تنفع في صدهم نيران البنادق مهما كانت شديدة ، فاخذ المصريون يرتدون امامهم نحو قوات لامبرت التي كانت مرابطة خلفهم فامر الضابط جنوده باخلاء الطريق والوقوف في خط يصنع مع موقفهم الاول زاوية قائمة . ولم تكد تتم هذه الحركة حتي كان الجنود المصريون قد مروا بهم اثناء ارتدادهم،والبجارة يشددون الضغط عليهم . وكان لامبرت لا يجهل الخطر المحدق به وبقواته ولكنه لاحظ لحسن الحظ أن البجارة منهمكون في مقاتلة المصريين فلم يعيروا قواته ادنى اهتمام ، وتدفقوا خلف المصريين

صاح لامبرت اذ ذاك وأمر جنوده بالهجوم فحملت على البجارة وأخذت تعمل فيهم بأسنة حرابها فتحول البجارة لمواجهة عدوهم الجديد وهم يصرخون حنقاً وغيظاً . وكانوا ثلاثة اضعاف اعدائهم فأخذوا يلقون بجموعهم الكثيفة على السودانيين . ولكن كانت قوى الاعداء قد وهنت بعد تغيير وجهتهم فأعمل الجنود

فيهم حرابهم على حين رأى المصريون اذ ذاك ما اصاب خصومهم فجمعوا صفوفهم وأعادوا الكرة عليهم ولم تمض لحظه حتى قضوا على البقية الباقية منهم وعادوا الى صفوفهم . اما الجنود السودانيون فقد صدرت اليهم الاوامر بعد هذه المعركة التي ابلوا فيها بلاء حسنا بالعودة الى مركزهم الاول في الاحتياطي

ابتسم لامبرت في النهاية

كان سيف القدر معلقًا فوق رؤسهم بخيط عند ما حمل جيش يعقوب الجرار على قوة ماكدونالد السودانية الصغيرة ، ولكن الخيط لم ينقطع ولم تفلح الحملة و باء البجارة بالفشل

اضطربت صفوف البجارة واختلت من جراء النيران الحامية التي صبتها الالوية الثلاثة عليهم ، ولكنهم لم يتقهقروا بل غيروا وجهتهم الى خط الجنود الطويل الذي اخذ يزحف عليهم من ناحية الجنوب

لو استطاعت قوات الخليفة الثبات نصفه ساعة اخرى لقضت على قوات ماكدونالد السودانية واللواء المصري المرابط الى جانبها . والواقع كانت خطة الخليفة صحيحة ولكن الرجل الذي كان يخضع القبائل له بقوة الاستبداد الغشومة لم يستطع أن يحمل ولده على طاعته يوما واحداً ، لان عثمان الدين الذي امر بمهاجمة جناح قوات ماكدونالد مع هجوم يعقوب عليها من المقدمة ، كان قد تأخر ولم يصل الى ساحة القتال غير الان فقط ، فاتصلت قواته بقوات العلم

الاخضر المشهور التي يقودها علي ود حيلو ، وهي القوات التي بقيت بعيدة عن ساحة القتال ووجهت حملتها الى ميمنة ماكدونالد . ولكن الكولونيل درأ عن نفسه هذا الخطر فسحب الارطة الحادية عشرة من ميسرته لمواجهة الخطر الجديد ثم قاتل يعقوب بالارط الثلاث الباقية لديه

رأى جنود الارطة التاسعة السودانية في الميمنة ان جنود الارطة الحادية عشرة اتجهت نحو اليمين فتحولت هي الاخرى نحو اليمين دون ان تنتظر صدور الاوامر اليها بذلك وواجهت الحملة الجديدة . وهكذا وقف الايان من الجنود السود لا يتجاوز عددهما سبعمائة وخمسين جنديا في وجه جيش بل جيشين هما جيش عثمان الدين وجيش علي ودحيلو اللذان اندمجا معا

رابطت الارطتان العاشرة السودانية والثانية المصرية في خط عمودي مع الجنود السودانية وأخذتا تقاتلان حرس الخليفة الذي يقوده يعقوب . وكان ماكدونالد قائد القوتين واقفًا عند نقطة اتصالهما ، لاهم له الا ملاقاة هجمات العدو اينما جاءت ، ولكنه لما شاهد تيارا لانهاية له من الدراويش يتدفق من الشمال ، قرر في الحال أن يدع جيش الخليفة الى القوات التي تزحف من الجنوب ويتحول بقواته الى الشمال ، ثم نشر جنود الارطة العاشرة الى اليمين ، وجنود الارطة الثانية المصرية الى اليسار . وقد اتجهت القوات الاخيرة نحو

الغرب لحماية جناحها من هجوم حرس الخليفة الذي كانت جموعه تتدفق للهجوم بشدة مضاعفة

وكان الامير يعقوب راكباً وسط جنوده ، يتقدمه العلم الاسود الكبير ، يستحثهم على القتال بعد أن ادرك ان الساعة قد حانت لتنفيذ خطة الخليفة ، وهى أن يحمل على الجيش المصري من الغرب وقوات عثمان الدين وعلى ود حيلو من الشمال ، فثارت حمية البجارة لوجود يعقوب فى وسطهم واشتدت عزيمتهم ، ولكن اتفق ان وقع حادث هلعت له قلوبهم ، ذلك ان رجلا من جنود المدفعية المصرية اطلق قنبلة على العلم الاسود انفجرت بين يعقوب وعلمه فكسرت عمود العلم وسقطت طياته السوداء على جثة يعقوب الهامدة وقتل عشرات من رجاله حوله

انخلعت قلوب البجارة عندما شاهدوا قائدهم قتيلا وعلمهم ملقي على الارض ، فعاد الذين بقوا منهم على قيد الحياة لكي يخبروا الخليفة ان كل شيء قد ضاع . على أن المعركة لم تكن قد انتهت بعد . لان اللواء السوداني بقيادة ماكدنلد كان اذ ذاك فى خطر شديد ، فقد كانت لدي عثمان الدين وعلى ودحيلو قوات كافية للتغلب على نيران السودانيين بالرغم من شدتها . وقد رأى مكدونلد ان الحملة الامامية قد تلاشت فارسل فى الحال يطلب الارطة الحادية عشرة السودانية مع البكباشى لامبرت فتقدمت الى خط القتال بعد ان حلت محلها

ارطة مصرية . فأخذ الجنود السود كعادتهم يطلقون بنادقهم بدون احكام ، ولا غرض لهم الا لقاء اعدائهم وجهاً لوجه ، واعمال اسنة الحراب في صدورهم . وقد بذلت البطاريات ومدافع المكسيم اقصى جهدها لصد تيار الاعداء بعد أن ادرك رجالها ان عليهم يتوقف نجاة ماكدونالد وجنوده

ركب جنود الارطة العاشرة حرابهم في بنادقهم واخذوا ينتظرون النهاية واذ ذاك التفت لامبرت الى القائمقام ثرسبي وقال

— خير لك ان تصدر الامر ياسيدي

فصاح القائمقام قائلا

— ايها الجنود ، ركبوا حرابكم !

وكان لامبرت على كثرة مشاغله ودقة موقفه لا يفكر بشيء الا بالمرأة التى عشقها وتزوجها والانتقام لها ، فكانت نفسه تتوق الى ملاقاة الدراويش لكي يعمل فيهم سيفه ثانية . وكان الجنود فى الخطوط الامامية على مسافة لاتتجاوز مائة خطوة منهم ، على حين كانت قوات عثمان الدين وعلى ودحيلو تتدفق بالالوف على امل الفوز المحقق . وقد تأهب الجنود السود فى الارطات التاسعة والعاشرة والحادية عشرة للقاء الموت بوجوه باشة ، مصممين على ان يبيعوا ارواحهم غالية ، ولكن لم تمض على تاهبهم هذا مدة وجيزة حتى

تعالت اصوات جنود الارطة العاشرة بالهتاف عندما شاهدوا خلفهم جنود الارطة البرطانية من حملة الرماح، وقد جاؤا لنجدتهم . وكانت جماعات صغيرة من الدراويش قد صارت الان على مسافة ماية خطوة تتلوها بقية الجيش على مسافة وجيزة فانتشرت جنود الارطة الانكليزية فى خط القتال ثم شرعت تطلق نيران بنادقها فتمكنت من صد الخط الاول من الدراويش . وقد رأى الجنود السود اذ ذاك مثالا لهم فشرعوا ايضاً يطلقون بنادقهم على الدراويش من حملة الحراب الذين كانوا يلقون بانفسهم على افواه البنادق بجرأة واستماتة ، وهو اعظم عمل مدهش شوهد في هذه المعركة الغريبة

قتل يعقوب وذهب جيشه ولم يبق منه غير ثلاثة من الابطال الشجعان وقفوا ملتفين حول العلم الاسود . ولكن لم تمض لحظة وجيزة حتى قتل واحد من الرجال الثلاثة ثم تلاه الثاني . وعند ذلك ترك الجندي الاخير الذي بقي على قيد الحياة من جيش يعقوب العلم وتقدم الى اعدائه ثم نادى باعلا صوته قائلا « الله اكبر » ثم صوب رمحه والقاه فى وجه الاعداء ووقف ينتظر ، ولكن لم يطل انتظاره اذ اطلق الجنود عليه وابلا من الرصاص اخترق جسمه وأرداه قتيلا فسقط ورأسه على ذراعيه ووجهه نحو الجيش . وهكذا قتلته آخر رصاصة اطلقت في المعركة

قتل يعقوب ، وحمل على ودحيلو من ساحة القتال وقد كسرت

رصاصة عظم فخذه ، ولكن عثمان الدين لم يصب باذى ، على حين لم تشترك في القتال قوة كبيرة من قوات الاعلام الخضراء التي عادت الى أم درمان واجتازت المدينة قبل ان يقطع عليها خط الرجعة وذهبت الى الطرف الجنوبي من المدينة

لما جلت قوات الدراويش عن تلال كرري بادر السردار فى الحال الى استئناف الزحف على ام درمان ، فقد كان امامه خمسة عشر الف جندي مع الوف عديدة اخري لا تحجم عن الانضمام اليهم ، وهذه القوات لا يمكن اخراجها من المدينة ، دون تدميرها أو تحمل خسارة كبيرة فى الارواح اذا استطاعوا الثبات فيها. فصدر الامر الى الجيش بالزحف العام على ام درمان ، ولم تنتصف الساعة الثالثة بعد الظهر حتى أخذ الجيش كله يتحرك الى الامام ، واللواء السوداني يسير فى طليعته لانهم كانوا خير من يعرف الطريق واساليب الدراويش

وكان البكباشي لامبرت راكبا جواده بجانب ضابطه القائمقام جورج ترسي، فى طليعة الارطة الحادية عشرة، فاجتازوا صفوفا طويلة من جثث القتلى الذين سقطوا من جيش الدراويش في معركة الصباح الباكر وفى المعركة الاخرى التى دارت عند الظهر

قامت الفرسان المصرية بمهمتها خير قيام. وكان لهم فضل عظيم فى فوز الجيش لانهم حالوا بين تعاون قوات عثمان الدين وعلى

ودحيلو مع قوات يعقوب فى الحملة الكبرى . على ان الفرسان المصريين الابطال لم يقنعوا بما نالوا من فوز وما اصابوا من نصر فتقدموا وقاموا بحملة لانقاذ الهجانة من الهلاك الذي كان يتهددهم قبل تدخل زوارق المدفعية ، مع انهم كانوا يعلمون انها حملة عقيمة . وقد توسل هؤلاء الابطال الى ضباطهم ان يحملوا على جيش عثمان الدين وعلى ودحيلو اثناء تدفقهم من فوق المنحدرات لاكتساح القوات السودانية التى كانت مرابطة في السهل امامهم، فجمعهم قائدهم فوق منحدرات كرري، وكانوا مؤلفين من تسع فصائل ثم ارسلهم لمهاجمة خصومهم ووقف يراقبهم بمنظاره وهو على ظهر جواده ، فشاهدهم بعد قليل يلتفون حول خط الدراويش الطويل ويقضون بنيران بنادقهم الحامية على هجومهم الى أن ارتد الدراويش فشدد الفرسان عليهم الضغط وطاردوهم مسافة خمسة اميال طويلة . على انهم لم يستطيعوا ان يقطعوا عليهم خط رجعتهم لان الدراويش الذين كانوا على مقربة منهم الهوهم بالتسليم ،فكان الفرسان يضطرون الى مرافقة الاسري الى النهر، على حين كانت قوات الدراويش مشتتة فلم تستطع قوة صغيرة الاحداق بهم . وعلى ذلك كف الفرسان المصريون عن القتال مستقلين وعادوا الى النهر ليتخذوا مكانهم فى الزحف العام

كان دخول الجيش المصري الظافر ام درمان من المظاهر التي تبعث الحماس فى النفوس

سار السردار في الطليعة يحيط به ضباطه الذين لفحت الشمس وجوههم اثناء معارك الصحراء الطويلة واجتيازهم الفيافي الشاسعة والقفار ، يليه علم الخليفة الاسود وموسيقى الارطة الحادية عشرة تصدح بانغام الفوز والانتصار ، يتبعها الجيش الظافر وقد امتد فى السهل بقواته الضخمة، على حين كان نهر النيل السعيد يماشيهم اثناء الطريق وعلى سطحه زوارق المدفعية

وكان طريقهم غاصاً فى البداية بصفوف طويلة من الاشباح البيضاء التى سقطت على الرمال وخضبت دماؤها الارض بعد أن حصدتهم نيران البنادق والمدافع اثناء الهجمات الشديدة فى هذا الطريق وفوق آكام جبل سرغام . وكانت آثار القتال تري حتى ابواب المدينة لان الدراويش يستطيع السير وفى جسمه اثني عشر جرحا يكفي اقل جرح منها لشل حركة رجل آخر

رأي بعض الجرحي ان الحياة لاتتحقق الا بالقاء اسلحتهم فالقوها واحتقر البعض الاخر الحياة فاطلقوا بنادقهم أو قذفوا بحرابهم في وجوه اعدائهم فجاؤهم وقتلوهم . ولكن سلمت جموع عديدة منهم وانضم كثيرون الى صفوف الفاتحين

أتي الجيش المصري بالعجب العجاب فى نهاية الاعوام التى

قضاها فى التأهب والاستعداد، فقد هدم امبراطورية واسعة النطاق فى ثمان ساعات وهزم جيوش الخليفة الثلاثة العظيمة ووضع عاصمة المهدية تحت رحمته وعول على دخول المدينة قبل ان يصل اليها من بقى على قيد الحياة من جيشى على ودحيلو وعثمان الدين، كما صمم على اخذ الخليفة حيًا

رأى السردار انه صار بجيشه الان داخل الدائرة ، وانه سبق الدراويش بمسيرة ساعة ، وان الفارين الذين يسيرون افراداً لايهمونه ولا يريد قتلهم ، وانه يحتمل جدا ان يسلموا اذا استطاعوا الوصول الى المدينة وغيروا جببهم المرقطة — وهي ثياب الدراويش الرسمية — واخفوا اسلحتهم . وعلى ذلك امر الجيش بالوقوف وتناول الطعام على شاطيء خور جميل مملوء بالماء قبل دخول المدينة ، فاعطاهم بذلك فرصة للراحة واسترداد قواهم لاستئناف النضال اذا ابدت المدينة مقاومة ما

اخيراً استأنف الجيش الظافر الزحف العام على عاصمة العدو فسار السردار فى الطليعة تليه وحدات الجيش وقد امتدت الى بضعة اميال من ساحة القتال الى ام درمان تقريبا وهي تسير بنظام تام

شعر لامبرت وهو يسير بين جثث القتلى في طريقه ان الاهانة التي لحقت فرنشسكا قد غسلت بالدم، وانه عند ما يقتل الخليفة أو

يؤسر ويكبل بالحديد — لان فرنشسكا كبلت بالحديد — يتم التكفير عن الذنب

وكان الجميع يشعرون بوقع المشهد في نفوسهم وهم يرون قبة المهدي الكبيرة التى تهدم جزء منها وهى قائمة وسط مدينة واسعة الاطراف، تمتد الى مسافة خمسة اميال على شاطيء النهر، مدينة ذات اسوار وابواب قائمة فوق مرتفع ، امامها صحراء رملية تمتد الى مسافة اميال



الفصل السادس والاربعون

— فرار الخليفة —

لما رأى الخليفة حملة العلمين الاخضرين يفرون نحو الغرب وشاهد الجيش المصري يستأنف الزحف على المدينة أصابه الذهول . وقد لاحظ الملازمون ما أصابه فمنعوا الجميع من الاقتراب منه الى أن شق يونس — وهو من كبار الامراء — الطريق اليه وخاطبه قائلا

— لماذا انت باق هنا ؟ قم ، اهرب ، فقد قتل الجميع

ولكن عبد الله ظل جالساً في مكانه لا يعي ولا يسمع ، فرفعه يونس والملازمون المخلصون وأوقفوه على قدميه ثم دفعوه الى الامام لأنه لم يكن ثمة وقت يمكن تضييعه . والظاهر أن هذه الحركة اعادته الى صوابه فأفاق ولم يلبث ان اطلق ساقيه للريح وسار يتعثر في طريقه الى أن اكرهه يونس على ركوب حمار، وهو يدرك حقيقة الخطر المحدق به ثم دعا سائس الابل وأمره أن يسرع الى المدينة ويجمع زوجاته وأولاده وأمواله ويرسلهم الى «الزريبة» في غرب أم درمان للقائه . ولكن لما وصل الخليفة الى الزريبة لم يجد احداً وأنما وجد بضعة الوف من جنوده يدخلون المدينة بنظام فسار على رأسهم وقد صمم في نفسه على الثبات لآخر مرة في المسجد . فلما وصل اليه

جلس في داخله وأمر أن ينفخ في بوق كبير مصنوع من سن الفيل ، وأن تقرع طبول الحرب ، ولكن لم يلب دعوته أحد

جلس عبد الله هنيهة كالصنم لأن الجيش الذي دخل المدينة معه كان قد غادره وتدفق من الابواب الجنوبية الغربية الى الصحراء فلما رأى أن الجميع غادروه عدا حراسه ، أرسل فى طلب ابى قاسم كاتم اسراره ، فلما جاءه سأله الخليفة قائلا

— ما العمل يا أبا قاسم ؟

— استمر في صلاتك يا عبد الله الى أن يأتيك الفوز

— كلا لا فائدة من ذلك . اذهب يا أبا قاسم واجمع زوجاتي وأولادي وائت بهم الى هنا

فحياه ابو قاسم باحترام ثم خرج ولكنه لم يعد لانه انضم الى الدراويش ، وكان عددهم الآن خمسة عشر الفاً من قبائل التعايشة والبجارة ويرلى والحبانة والوزغال والدغيم وغيرهم من قبائل عبد الله وخيرة جنوده

اخيراً لم يبق مع الخليفة أحد غير الجاسوس انجيلو تراديتور فقال مخاطباً الخليفة مستنهضاً همته

— قم ، تشجع يا عبد الله والتحق بجيشك . سيدخل الجيش المدينة بعد قليل ويجدون في البحث عنك ، فاذا وجدوك منفرداً

صرت تحت رحمة أي رجل يبغضك ، أما اذا التحقت بجنودك فانهم لا يستطيعون الوصول اليك الا بعد معركة حامية

دعا الملك المغلوب بعد ذلك رجلين من الفقراء وأمرهما أن يرافقا انجيلو الى خارج المدينة لبري كم يبعد الجيش الظافر عن المدينة ،فوجد الصقلي أن الجيش وصل الى قبور الشهداء ، أي على مسافة ثلاثة ارباع الميل من المكان الذي يجلس فيه الخليفة . ولم تمض لحظة وجيزة حتى رأى انجيلو السردار وضابطين من أركان حربه ولامبرت اليفانت واقفين عند زاوية السور الاكبر

على انهم لم يلبثوا ان تحولوا نحو بيت المال ، ولكنهم لو ساروا الى المسجد بدلا من ذهابهم الى بيت المال لوجدوا الخليفة جالساً منفرداً تقريباً ولقبضوا عليه هناك وفي ذاك الوقت ، بدلا من ان يدعوه يفلت من ايديهم ويذهب الى كردوفان حيث نادى بنفسه ملكا الى أن جاء اليوم الرهيب الذي لقي فيه حتفه في أم درمان

الفصل السابع والاربعون

﴿ سر الساير ﴾

في تلك الليلة المشهودة ، ليلة أول سبتمبر سنة ١٨٩٨ ، لم يغمض للدون زارو أو لابراهيم فوزي باشا أو لحمزة الجعلي جفن وهم رقود مكبلين بالحديد مع غيرهم من الاسرى

بات الاسرى طول ليلتهم ينصتون الى طلقات البنادق الشديدة، يحميهم ادريس السجان ببندقيته من البجارة ويحمونه هم ايضاً من رجال الجيش المصري عند قدومهم الى السجن لانقاذهم . وقد أراد ادريس أن يطلقهم من قيودهم ولكنهم توسلوا اليه ان يتركهم كما هم لأنهم خشوا أن يخطىء معرفتهم احد من الجنود الذين سيأتون لانقاذهم فيحسبونهم من انصار الخليفة و يقتلونهم اذا لم يروا القيود في ارجلهم

لم يكد يتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر حتى سمع الاسرى دوي مدفع بعيد تلاه صوت انفجار شديد في المدينة ، هدم جزءاً آخر من قبة المهدي فأدركوا ان الجيش ثابت في مكانه . وقد ظل دوي المدافع مستمراً . فأخذ الاسرى في الساير ينصتون الى قصفها المستمر ، وهم لا يدرون متى يتم تمهيد الطريق

لهجوم المشاة . وكانت رياح مصر الشمالية تحمل اليهم من وقت الى آخر طلقات البنادق ثم يسود سكون مروع فيوجسون خيفة خشية ان يكون الجيش قد وقف وقفته الاخيرة ثم ارتد على اعقابه خاسراً. ولكن النيران التى سمعوها لم تكن الا نيران البنادق التي اطلقها الجنود في الحملة الاولى ، وان السكون الذي تلاه لم يكن الا استعداد السردار للزحف على ام درمان

سمع الاسرى قصف المدافع مرة اخرى فزعموا ان جيوش الدراويش الجرارة اكتسحت قوات الجيش لأنهم كانوا يجهلون عدد الجيش المصري واستعداده .

كفت المدافع عن اطلاق نيرانها في الساعة الحادية عشرة صباحا ، ولكن لم ترد أنباء حقيقية عن المعركة الا بعد الظهر . وكان لشدة الانتظار وقع اليم في النفس فاضطر الدون زارو الى الاشتغال بالتطريز

اخيراً سمعت طلقات البنادق بعد الظهر في جميع انحاء المدينة ، فقال الدون زارو مخاطبا فوزى باشا

— اصغ يافوزى . لقد دخل الجيش

والواقع دخل الجيش المدينة . وشرع يتوغل في ضواحيها التي تمتد الى ثلاثة اميال تقريبا خلف الاسوار ، على حين تشعب الجنود بسبب الحوارى والاكواخ التي لا نهاية لها ، ولكنهم واصلوا السير بنظام تام . وكان السردار يسير في طليعة جنوده وسيفه مغمداً

ومسدسه في منطقته بحيث كان في وسع أى جندى ماهر من الدراويش اغتياله، ولكن القائد كان يعتقد انه يدخل المدينة كفاتح ومنقذ لا كقائد جيش يريد السلب والقتل ، وأنه اذا وضع ثقته في المدينة وضعت فيه ثقتها كذلك واستقبلته بذراعين مفتوحتين — والظاهر أن هذه الخطة لاءمت حالة المدينة النفسية لان الجنود الذين كانوا يسيرون في الطليعة لم يطلقوا طلقاً واحداً ولم يظهر احد من السكان نفسه ولا ارتكب عملا عدائيا . على حين اخذ الجيش كله يتخلل الضواحي وينساب في وسطها كالنهر ، أما الفرسان فقد امروا بالالتفاف حول اسوار المدينة لمنع المهاجرين من الهرب

وبينا كان الجيش يتقدم في طريقه الى الامام دون أن يستخدم جنوده بنادقهم أو يظهروا المنازل من الاسلحة ، اذ تقدم ثلاثة من الدراويش مسرعين الى الامام — وقد قلبوا جببهم دليلا على انهم تركوا المهدية — يحملون علماً ابيض ، ثم القوا بانفسهم عند قدمي السردار وتوسلوا اليه أن يقبل تسليم المدينة وينقذ ارواح اهلها فقال القائد انه لا يستطيع مخابرة احد الا امير المدينة فذهب الرجال الثلاثة ولم يلبثوا ان عادوا برفقة شيخ يركب حماراً، فتقدم الى السردا وحني رأسه ثم سلمه مفاتيح ام درمان فقال السردار له باللغة العربي انه يعفو عن كل من يلقي سلاحه، فقبل الامير الشيخ يده ثم عاد مسر الى المدينة وهو ينادي باعلى صوته معلنا هذا النبأ السار، فتنفس الجمي

الصعداء وخرج ألوف من الذين كانوا مختبئين في منازلهم وأخذوا يقبلون ارجل الضباط ويدعون لهم بالخير والبركات، لاسيما سلاطين باشا، الذي كان ياوراً للخليفةوقت هروبه فصارالان مرشداً لاعدائه

وكان الناس يتمرغون فى التراب امام السردار ويستقبلونه كما يستقبلون ملكا منفياً عاد الى عرشه، ولا عجب فقد كانوا يعدونه كفاتح وممثل للحكومة المصرية التى جاؤا الآن يرحبون برجالها بعد الذى عانوه من الاضطهاد والذل فى عهد الخليفة

لو قام البجارة بحملة صادقة على قوات الجيش المصري بعد تشتتها في المدينة على هذه الحال لوقع مالا تحمد عقباه. ولكن السردار كان قد عجم عود المدينة وسبر غور نفسية اهلها بدقة فواصل السير دون أن تطلق رصاصة واحدة مسافة ميلين آخرين الى نهاية السور العظيم الذي يحيط بالمدينة الداخلية، وهنا حاول بعض جنود الخليفة الثبات. ولكن لم تكن بالاسوار معدات لوقاية حماتها فلم يمض ربع ساعة حتى اسكتتها مدافع المكسيم

فتح الباب الكبير عملا بشروط التسليم، فسار السردار تخفره جنود الارطة الرابعة عشرة السودانية، وكانت جثث القتلى من الرجال والنساء والاطفال ترى مكدسة في الطريق بحالة مريعة وغصت المنازل بالجرحى ولكن احتشدت الجماهير حول الجنود لاظهار ولائهم والاعراب عن مظاهر الترحيب بهم، فأرسل السردار

رسله الى جميع شوارع المدينة ينادون بالعفو عمن يلقون اسلحتهم، فلم تمض مدة وجيزة حتى تكدست الاسلحة اكواماً في الشوارع، تخفرها جنود الارطة الرابعة عشرة السودانية

بادر السردار في الحال الى استئناف السير الى ان وصل الى قبر المهدي على زعم ان يجد عبد الله هناك. ولكنه لو صار الى المسجد الاكبر لقبض عليه فيه

حدث ان سمعت زوارق المدفعية اطلاق البنادق في المدينة فشرعت تلقى قنابلها على مقبرة المهدي ومنزل الخليفة. وقد سقطت ثلاث قنابل متوالية دون ان تمس احدا، ولكن قتلت الرابعة المستر هوبرت هوارد مراسل التيمس، الذى كان واقفا بجانب السردار فتاجل الزحف لهذا السبب الى أن اسكتت زوارق المدفعية باشارة

تأثر السردار لهذا الحادث فترجل عن ظهر جواده ووضع يده في يد القتيل ثم أمر ان ينقل بالحفاوة اللازمة ثم غادره وسار مسافة وجيزة مع لامبرت

وكان السردار يسير اعزل بعد أن ترك مسدسه وسيفه مع حاجبه الذى كان يمسك بعنان جواده. غير انهما لم يكادا يقطعان خمسين خطوة حتى سمع لامبرت فجأة صوتا حادا يخاطبه بالعربية قائلا «احترس» فالتفت، فلمح الفتى الاعرابي الذي تشبه عيناه عيني

فرنشسكا، والذي لم تبرح صورة وجهه مخيلته طول مدة القتال، وفى اللحظة عينها وقعت عيناه على اعرابى آخر خيل اليه انه يعرفه

وكان الاعرابي يشير الى السردار، مرشدا اليه ثلاثة أو اربعة من الدراويش فحملوا عليه وهو أعزل، ولكن لامبرت بادر الى لقائهم بمسدسه فقتل الرجال ثم هرع خلف المرشد ولو انه لم تبق رصاصة واحدة فى مسدسه

صوب الاعرابي مسدسه وشرع يفرغه على رأس لامبرت فاصابت رصاصتان خوذته دون ان تصيباه باذي فلم ينتظر لامبرت حتى يجرد سيفه بل وثب على الرجل وقبض على عنقه فكسره واذ ذاك لاحظ لامبرت في فم الرجل اسنانا كان يذكر شكلها الغريب ولم يلبث أن أيقن ان غريمه هذا هوانجيلو تراديتور، فالتفت الى السردار الذي كان واقفا فى جواره وقال

— انه ذاك الايطالي الشيطان الذي منعتني من اخماد انفاسه فى مطعم الدون زارو الذي كنا نتناول فيه طعامنا يا سيدي

فقال السردار

— انني مسرور لانك لم تدنس سيفك بدمه يا اليفانت

نسي لامبرت انه يخاطب القائد العام فصاح قائلا

— الصبي . اين الصبي ؟

فلم يتعض السردار من تجاهله هذا وسأله قائلا

— أى صبي ؟

— الصبي الاعرابي الذي حذرنا

— حذرنا من قتلي ؟

فذكر لامبرت انه يخاطب السردار فقال

— نعم يا سيدي

— لا بد من البحث عنه ومكافاته

سأل لامبرت الحراس الذين هرعوا الى مكان الحادثة ع
اطلاق الرصاص، عن الصبي ولكن لم يلاحظه احد لان الج
اضطربوا لوقوع الحادث مع انهم كانوا كلهم يعرفونه باسم حس
الخادم في شركة ردوكاناكي

دهش لامبرت بذهول لهذا الاتفاق الغريب، فقد رأى
الصبي الاعرابى الذي يذكره دائما بفرنشسكا هو الذي انذره
رأي ان الخائن هو غريمه انجيلو تراديتور .

شاهد الرجلان الفقيران اللذان ارسلهما الخليفة مع انجيا
المعركة فعادا الى المسجد دون أن يراهما احد وابلغا عبد الله ما
فاستطاع الافلات والهرب والتحق بجيشه دون ان يشعر به اح

ولما كان النهار قد انصرم، وكادت ظلمة الليل ترخي سد
سرعة، تفرق الضباط مع الحراس للبحث عن الخليفة في المس

ومنزله والابنية العمومية والقبض عليه . على حين ركب السردار
مع لامبرت ويارووه وقوة كبيرة الى الساير لانقاذ من فيه من الاسري.
وكان السردار قد سمع عن مناعة السجن فأخذ معه مدفعا من مدافع
المكسيم للتغلب على اية مقاومة يلقاها ، ولكنه لم يكد يصل الى
السجن حتى فتحت الابواب امامه ، فوجد القائد نفسه داخل
فناء واسع قذر ، في وسطه نحو ثلاثين اسيرامكبلين بقيود ثقيلة، شدوا
في سلسلة واحدة، والى جانبهم ادريس يحمل بندقية . فلم تكد تقع
عيناه على القائد حتى القى بندقيته وجثا على ركبتيه امامه فى التراب

تحول السردار نحو الاسرى فرأي الاسير الاول ذا لحية بيضاء
طويلة ، يتدلي شعره على منكبيه، قد سودت الاقذار وحرارة الشمس
وجهه ، يرتدي جبة من جبب الدراويش ، لا يستطيع احد ان
يقول انه رجل ابيض، على انه لما ابتسم في وجه منقذه ذكر القائد في
الحال بريق عينيه وبشاشة وجهه فمد اليه يده وحياه قائلا

— مساء الخير ايها الدون زارو ، كيف حالك ؟

فتناول الصقلي يد منقذه وامطرها قبلات ثم اجابه قائلا

— انني الأن بخير بعد ان وقعت عيناي عليك يا سيدي

ثم طلب ان يقدم اليه اصدقاءه — ابراهيم فوزي باشا، صديق
غردون وحمزه الجعلي وغيرهما من الاسري المكبلين بالحديد
فصافحهم القائد واحداً واحداً .

اشار الدون زارو بعد ذلك الى ادريس ، وكان لا يزال جاثيا
في التراب وقال

— هذا ايضاً صديقنا يا صاحب السعادة

ثم اخبر السردار ان ادريس اظهر شيئاً كثيراً من ضبط
النفس في معاملة الاسري البيض بالرغم من قسوته وخشونته في معاملة
ضحايا الخليفة ، وانه لما علم ان الجيش المصري قادم للاستيلاء على
ام درمان ، انقذ الدون زارو وغيره من اصدقاء الحكومة من ايدي
البجارة الذين كانوا يريدون اغتيالهم ، فصفح القائد عن ادريس
وتركه يشرف على السجن بمساعدة جاويش انكليزي وعشرين
جنديا سودانيا ، ثم اصدر تعليمات سرية بمراقبته

اطلق سراح الاسري الاخرين في خلال ذلك من السلسلة
الطويلة التي كانت تقيدهم معا

وكان جماعة من الاعراب قد رافقوا السردار الى الساير ،
بينهم الصبي حسين الذي يشتغل في شركة ردوكاناكي .وكان محبوبا
لدي الجنود فسمح الحراس له بالدخول معهم . فانتظر الصبي حتى
فرغ السردار من مخاطبة الدون زارو والتفت الى ادريس ، فالقى
نفسه علي عنق الصقلي فجأة وصاح قائلا باللغة الايطالية

— ابت العزيز . ابت العزيز

سمع لامبرت هذه الكلمات ، وكان قد سمعها من قبل كثيرا

بهذه النغمة الحلوة فدار بجسمه بعنف وعندئذ رأى الصبي ذا العينين اللامعتين . ولم يكن في حاجة الى سماع كلمات الاعزاز التى خاطب بها الدون زارو ابنته حتى يعرف من هى ؛ اذ ألم ير منذ مدة طويلة ان تينك العينين لا يمكن ان تكونا غير عيني فرنشسكا ؟

وكان السردار قد فرغ من مخاطبة ادريس الساير فالتفت وقال .

— من هذا الصبي ؟

فحنى الدون زاور رأسه واجابه قائلا

— هذه ابنتي يا صاحب السعادة

نظرت فرنشسكا الى لامبرت نظرة استفهام ولكنها لا تنم على شيء من شأنه ان يفشي سرهما . اما هو فنظر اليها نظرة شفت عما يكنه قلبه من لواعج الحب لها ولم يلبث ان خطرت بفكره جميع الاخطار التى تهددتها وهى متنكرة في ثوب صبي ففك منطقة حسامه وقدم سيفه الى السردار قائلا

— انها زوجتي يا سيدي

وكان لامبرت يعرف أن جزاءه العزل ، فلكي يكفي قائده وصديقه آلام طرده في مثل هذه اللحظة قدم اليه سيفه دليلا على انه يريد أن يعتزل الخدمة في الجيش . على ان القائد سأله قائلا

— متى تزوجتما يا اليفانت ؟ هل حدث ذلك قبل صدور الامر بالقتال ؟

— نعم يا سيدى

— وهل عرضت نفسك لخطر العصيان لأنك كنت شديد

الرغبة في القتال؟

— اظن انني كنت انتحر ياسيدي اذا لم استطع مقاتلة الخليف

فرد السردار اليه سيفه ثم قال

— لم يحط الزواج من قيمتك بصفتك جنديا يا اليفانت . وق

قلت في تقريرى انك اعظم ضباطي شرها في القتال، فقدمت لي مثا

على ذلك الآن

وكان الليل قد ارخي سدوله على السجن ، ولم يكن هناك نو
غير ضوء مصباح ضئيل يستخدمه الحراس اثناء تجولهم في الظلام
فزادت الظلمة المكان وحشة ، فكانت الغرفة الصخرية المعرو
باسم « ام حجر » والاكواخ القذرة التي قضى فيها على كثير
من العظماء بالموت جوعا ، تبدو كأشباح ضئيلة ، لان نور المصباح
يتجاوز وسط الفناء، على حين كان السردار الذى قوض بجيشه د
سلطنة واسعة في معركة واحدة ، واقفا بجسمه الضخم الطويل يبتس
في وجه الصقلي الذي عرفه منذ ثلاثة عشر عاما وفي وجه غيره
الاسرى الذين قضوا في الاغلال الثقيلة أعواما طويلة ، فاصيب
ارجلهم بالوهن والعجز بحيث لم يستطيعوا المشي والخروج من السج
الا بعد ان أركبوهم على الحمير

تعلقت فرنشسكا بعنق زوجها الطويل، وهي تدرك انها صارت له الى الابد دون سواه . وكان شعورها من نحو انجيلو قد تغير فجأة من الحب الى البغض، فابتهجت بما اصابه وارتاحت نفسها لميتته المريعة . ولا عجب فقد رأته بعيني رأسها يرشد الدراويش الى السردار ليقتلوه ورأته يحاول اغتيال لامبرت بعد أن اقسم ان لا يمسه بأذى بالذات أو بالواسطة فزالت الغشاوة عن عينيها . وكانت تمرغ بالفكر خديها على قدمي زوجها كما مرغ ادريس خديه على قدمي السردار ولكنها ظلت بالجسم متعلقة بعنقه

اخيرا التفت السردار الى لامبرت وقال

— خذ عشرين جنديًا يا بكباشي اليفانت ورافق هؤلاء الاسرى عند وصول الجيش الى مركز القيادة

ثم حنى رأسه الى السيدة المتنكرة وقال

— ولا تنس فرنشسكا الجميلة

الفصل الثامن والاربعون

الخاتمة

في ٤ سبتمبر سنه ١٨٩٨ دخل كتشنر مدينة الخرطوم على رأس الجيش المصري الظافر ورفع العلمين المصري والبريطاني فوق دار الحكومة ثم اقام حفلة جنازة مؤثرة على روح غردون في البقعة التي سقط فيها القائد بعد ان ارشده اليها احد حراسه الذين كانوا معه عند ما خر على الارض صريعًا

كانت اسوار قصر غردون التي تهدمت ، من المناظر المؤثرة . ولما صدحت الموسيقى في النهاية بالسلام واطلقت المدافع من زوارق المدفعية سالت دموع الحاضرين من الجنود الذين خاضوا بحيرة من الدماء في ساحة ام درمان

اصدر السردار امره بعد ذلك بأيام قايلة الى لامبرت بالسفر الى القاهرة مع الجرحى الذين يستطيعون السفر، والنزلاء الاوروبيين الذين انقذوا من ام درمان ، ثم امره ان ينتظر في القاهرة الى ان يتلقى تعليمات اخرى، فأخذ لامبرت قوة كبيرة من رجالة لحماية الجرحى من عصابات الدراريش الضالة في الصحراء تخفرهم الى ان وصلوا الى

حلفا وهناك تخلفت وواصل لامبرت ومن معه السفر الى القاهرة فى احدي البواخر النيلية

كانت انوسنزا جالسة فى منزلها بحى الازبكية فسمعت صوت مركبة تقف في الشارع فاطلت من النافذة فرأت لامبرت مع اثنين من العرب عرفت صاحب اللحية البيضاء منهما فانتظرت دق الجرس قبل ان تذهب الى لقائهم . وكانوا يجهلون انها رأتهم ولكنها شعرت بصدمة قوية عند ما وقع نظرها على زوجها وهو فى حالته هذه الرثة وحارت في التخلص من مازقها الحرج بسبب معاشرتها للنجومى . وكان الدون زارو قد فكر في هذا الموقف مراراً أثناء الثلاثة عشر عاما التى قضاها فى الساير ، فعرف كيف يكون شعوره من نحوها ، ولكنه قال فى نفسه كيف يكون شعورها من نحوه ياترى ؟

اراد الدون زارو أن يظهر امام زوجته بحالته التى كان عليها فى السائر تماما — بشعره الطويل ولحيته وجبته وقفطانه وقذاراته . وكان لامبرت يريد أن يدق الجرس ، ولكن رفع الدون زارو يده وقال انه يريد ان يقوم بهذه المهمة بنفسه

لما فتحت انوسنزا الباب عاد الى عيني زوجها لمعانهما وضحك عند ما وقع نظره على زوجته الجميلة ، فتردد صدى هذه الضحكة فى قلب المرأة فالقت بنفسها بين زراعيه على رغم قذارته وصاحت قائلة

— اواه يازارو ، هذا انت ؟ كم انا سعيدة بعودتك الى زوجتك انوسنزا

— نعم عدت اليك ياانوسنزا . وقد كان فى وسعى الهرب مع رسل القنصل لولا أن استولى الخليفة على ابلهم

— سأقص لك شعرك واقصر من لحيتك واغسل وجهك بمياه عطرية

وبينا كانت انوسنزا تدلل زوجها ، انسلت فرنشسكا مع لامبرت الى الداخل ثم سألته بحياء قائلة

— هل لك ان ترى عجائب تزيين المرأة ؟ اذا كنت لاتشعر بضجر فتعال معي الى غرفتي وساعدني على تغيير شكلي هذا والتحول الى امرأة حضرية

وكانت فرنشسكا لا تزال ترتدي ثياب البدو ، لانها لم تستطع الحصول على ثوب أوروبي في أم درمان ، فحملها لامبرت بين ذراعيه كالطفل الصغير ثم قبلها وقال

— هل انت في حاجة الىّ حقا ؟

فضحكت فرنشسكا تلك الضحكة العذبة التى جعلت ايطاليا مهد العشاق، ثم رقدت ساكنة بين ذراعيه الى ان اوقفها على قدميها في النهاية فهرعت الى غرفتها ونادته قائلة

— اسرع يا لامبرت

قضت فرنشسكا مدة طويلة فى ارتداء ثيابها الاروبية وتنظيف شعرها وتمشيطه لانها كانت شديدة الاهتمام بنفسها . وكانت تريد الذهاب الى فندق شبرد لتتعشى مع زوجها ،على ان امنيتها هذه لم تتحقق اذ تلقي لامبرت دعوة من القنصل البريطاني يدعوه فيهاهو وزوجته لتناول العشاء في الوكالة البريطانية . وكان قد تلقى الدعوة متأخرة فلما دخل غرفة الطعام مع زوجته وجدها غاصة بالمدعوين الاخرين . وبينا كانت فرنشسكا تسير بجانب زوجها فى القاعة ليقدمها الى ممثل بلادها الجديد ،اذ تغلب عليها الحياء فلم تشعر بأن الجميع قابلوهما بالتصفيق والهتاف

لم يكن لامبرت الا ضابطا في الجيش المصرى ومع ذلك كان الجميع ينظرون اليه كسفير الجيش الظافر الذى استعاد السودان فاحتفلوا به وهتفوا للجنود الظافرين؛ وقد هتف القنصل البريطاني والمدعوون لفرنشسكا وصفقوا لها طويلا عند ما اخبرهم لامبرت اثناء الطعام ان زوجته المحبوبة شاهدت المعارك كلهاوهى متنكرة فى ثياب صبي اعرابى ، ودخلت ام درمان مع الجيش المصرى الظافر بعدانتهاء المعركة الكبرى

كانت هذه الليلة سعيدة شعرت فرنشسكا فيها بفخار عظيم . على ان اسعد لحظة لديها كانت تلك التي ازدحم فيها المدعوون بعد انتهاء الحفلة حول مركبتها وهى جالسة بجانب زوجها وهم يحيونها ويهنئونها ويهتفون لها

(تمت)